

روايات

د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

نور الله

(الجزء الأول)

The Divine Light

Part I

Dr. Naguib Al Keilany

روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا











نور الله

[الجزء الأول]

نجيب الكيلانى

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٤/١١٢٨١

الترقيم الدولي:

978-977-255-427-0



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٢٩٢٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٢٩٢٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com

شخصيات الرواية

- زمن الرواية : - أيام بعثة الرسول ﷺ .

- مكان الرواية : مكة والمدينة وبنو قريظة وبنو قينقاع وبنو النضير .

• **شخصيات تاريخية:**

١- محمد بن عبد الله ﷺ .

٢- أبو بكر .

٣- عمر بن الخطاب .

٤- سعد بن معاذ (رئيس الأوس) .

٥- أبو سفيان (قائد جيوش قريش) .

٦- عبد الله بن أبى (رأس المنافقين فى المدينة) .

٧- كعب بن الأشرف (شاعر يهودى متآمر على الدعوة الإسلامية) .

٨- حيى بن أخطب .

٩- كعب بن أسد

١٠- عمر بن جحاش (من زعماء اليهود) .

١١- كنانة بن الربيع .

١٢- صفية بنت حيى بن أخطب زوجة كنانة بن الربيع ملك خيبر .

١٣- هند (زوجة أبى سفيان) .

١٤- نعيم بن مسعود (رجل من قبائل غطفان لعب دوراً حاسماً فى غزوة الأحزاب) .

١٥- سلمان الفارسى (من صحابة رسول الله ﷺ) .

١٦- عكرمة بن أبى جهل (من قادة المشركين) .

١٧- زوجة عبد الله بن أبى .

١٨- عبد الله بن عبد الله بن أبى .

١٩- حفصة بنت عمر زوجة رسول الله ﷺ .

- وشخصيات ثانوية أخرى من النساء والرجال .

• **شخصيات موضوعة:**

١- اليهودية .

٢- هند ورابح .



﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المائدة: ٨٢]

مقدمة

لقد كنت أتمنى على الله أن تتاح لى الفرصة كى أكتب بعض الروايات عن الفترات الحاسمة فى التاريخ الإسلامى، وكنت أعتقد -وما زلت- أن هذه المهمة عسيرة وشاقة بالنسبة لعصر النبوة على الأقل، لأن فجر الإسلام ملىء بالبطولات والأحداث، فالكاتب يرى نفسه أمام عصر فذ بكل ما فيه من رجال ووقائع ومبادئ. ولعل الأمر يكون سهلاً أمام كاتب التاريخ أما الروائى فإنه يقع فى حرج بالغ، وتهيب شديد، والرواية لها متطلباتها التى لابد منها . . . إذ تحتاج بادئ ذى بدء إلى حرية الحركة والحوار، وتحتاج إلى أشياء أخرى غير الأحداث الجادة، هذه «الأشياء الأخرى» بالنسبة للرواية، كالتوابل والمشهيات بالنسبة للطعام . . . ولعل هذه «التوابل» هى الفرق الحاسم بين الرواية وكتابة التاريخ . . .

ويتساءل الكاتب هل من حقه أن يخترع حواراً على لسان صحابي من صحابة رسول الله ﷺ؟؟ وما مدى حريته في هذا المجال؟؟ وكيف يقابل العلماء مثل هذا التصرف؟؟ ربما يكون الأمر سهلاً بالنسبة لعصر ما بعد الخلفاء الراشدين، أما ما عدا ذلك فالأمر يتميز بدقة خاصة، وأمانة بالغة.. وقد يقول قائل: إن عشرات الكتاب في الغرب خاصة قد أبدعوا في رواياتهم التاريخية، لكن أدباء الغرب يتخذون من التاريخ تكأة ووسيلة للتعبير عن آرائهم الخاصة، ولا يجدون أنفسهم في حاجة إلى قيود من نوع معين، إنهم ينظرون إلى التاريخ نظرة تتجلى في قول أحدهم: «ما التاريخ إلا مشجب أعلق عليه لوحاتي ولا شك أن الفرق كبير بين المنهجين»..

لقد حاول «جرجي زيدان» أن يقدم التاريخ الإسلامي في روايات، وعلى الرغم من النجاح المبدئي الذي حققته رواياته لأسباب عدة، تتعلق بإمكانيات الرجل المادية، وامتلاكه لدار صحفية كبرى، وتتعلق «بالفراغ» الظاهر في هذا المجال، حيث لا بديل مناسب يقوم مقام رواياته، وتتعلق بلجوئه إلى الأسلوب الغربي القديم الكلاسيكي في كتابة الرواية.. أقول على الرغم من النجاح المبدئي، إلا أن هذا لا يخفي سوءاته التاريخية والعقائدية في هذه الروايات، وسوءاته الفنية أيضًا...

لذا لم يزل هناك شيء يقال في مجال روايات التاريخ الإسلامي، ولم يزل هناك منهاج بل مناهج أخرى من الضروري ممارستها، وخاصة على أيدي فنانين يؤمنون حقيقة بالعقيدة الإسلامية ودورها الحضاري الخالد . .

ومن ثم فإني أخوض التجربة، معترفًا بأن شيئًا من التهيب والرهبة يواكب خطواتي، لما يتوهج به هذا العصر من عظمة فوق كل تصور، وبطولات أسمى من كل وصف، وإيمان يعلو فوق كل إيمان، إنني أحاول جاهدًا أن أتخذ طريقًا . . فعلى الرغم من أن «الحدث» هو العمود الفقري لأية رواية، إلا أنني سأحاول أن أقدم انعكاسًا نفسيًا للأحداث الضخمة . . انعكاسًا يلمع على صفحات النفوس الطاهرة والشريرة، المؤمنة والكافرة . . لأن الأحداث قد يجدها القارئ في آلاف المجلدات، أما التوترات النفسية، والقلق الخالد، والإيمان الصامد . . فهي أشياء يجد الروائي الجاد فيها بغيته، وينطلق فيها قلمه برغم تجاهل أكثر المؤرخين لها . . .

وكان من العسير على أي كاتب أن يلم بكل جوانب العصر وأحداثه، لهذا اخترت جانبًا خاصًا له أثره وخطره البالغان، أقصد ذلك الصراع الدامي الذي خاضته الدعوة الإسلامية في مواجهة أعدائها من اليهود والمنافقين . .

إن الخطر اليهودى يضرب بجذوره الخبيثة فى أعماق التاريخ، ويتسلل حتى عصرنا هذا، والغريب أن أخطر المواقف التى تعرض لها الإسلام فى بدايته كانت على أيدى اليهود أمثال كعب بن الأشرف، وحيى بن أخطب، وعمرو بن جحاش، وكعب بن أسد وغيرهم. فهم الذين حركوا قريشًا فى غزوة «أحد»، وهم الذين ساقوا العرب بدهائهم وأموالهم ومؤامراتهم، فى المعركة الخطرة «غزوة الأحزاب»، وهم الذين حاولوا اغتيال الرسول، وغدروا بالعهود والمواثيق فى أحلك الظروف. .

وكان المنافقون -وعلى رأسهم عبد الله بن أبى- هم حلفاء اليهود المخلصون وطابورهم «الخامس» الذى يسدد طعناته الآثمة إلى قلب رسالة الله الخالدة.

إن قصة «الحقد» اليهودى قديمة ومعادة، وليس أدل على ذلك ما يقاسى منه العرب والمسلمون فى هذه الحقبة التعيسة من تاريخنا المعاصر، بعد أن سقطت فى أيدى اليهود مدينتنا المقدسة الخالدة «القدس»، وبعد أن استشرى الخطر اليهودى وهدد معاقل الإسلام. . هذا، ولم تصرفنا أحداث اليهود ومؤامراتهم ضد الرسول، عن أثر العقيدة الإسلامية فى نفوس المؤمنين بها، وما ولدته فى نفوسهم من مقاييس

جـديدة للسلوك الإنسـانى، ونظام الحـيـاة، ومـجـالات الفكر . .

ولقـد رأيتنى مـضطراً إزاء الأحـداث الكثيـرة الضـخـمـة، والمعارك المثيرة التى خاضها المسلمون الأوائل، أن أقدم عصر النبوة فى روايتيـن: الأولى هى التى بين يدى القارئ، والثانية ستتلوها بإذن الله مباشرة.

بقـيـت نقطة أخـيـرة . . إن كُـتـاب الروايات الهـادفـة، والأدب الملتـزم، قـد يرون أنفـسـهـم حـائرين بين السـبك الفنى، والهـدف العقـائدى، فإذا غرق الفنان فى إغراءات الفن وشـروره فقـد يضر بالهـدف الأسـمى، وإذا ركـز على الهـدف وتجـاهل مـتطلبـات الفن، تحـول العـمـل الأدبى من رواية إلى شىء آخـر غيـر الرواية . . ومن ثم فلم يكن هناك مناص من أن يدبر الكاتب لقـاء مـخلصًـا ممتـعًـا بين الفن والهدف، فـيـمضـيـان معًا متكاتفين متصافحين فى هذا الطريق المقدس، وثقتى كبيرة فى أننى ربما أكون قد بلغت حدًا من التوفيق يرضى القارئ . . ويرضى الضمير . . وإلى اللقـاء فى الجـزء الثـانى من هـذه الرواية. وإلى اللقـاء فى روايات التاريخ الإسلامى التى سنقدمها تباعًا لأبناء العروبة والإسـلام . . آملين أن نشـارك فى بناء جـيل مـسلم حـر، يعـرف الطريق إلى الله، ويأخـذ بيـد الإنسـانيـة من ظلام

الضــلال والشــرك الخـفى إلى نور الهــداية ، وأفق الحــرية والحب والسلام .

نجيب الكيلانى

المراجع التاريخية:

رجعنا إلى عدد كبير من المراجع التاريخية والتزمنا بأدق الروايات وأقربها إلى الصدق فيما ورد من أحداث تاريخية .

□□□

الفصل [١]

«أجل . . لا مفر من الرحيل يا «أم عبد الله» . . . لم يعد فى «مكة» مكان يأوى إليه المستضعفون والمعذبون . . إن السادة أصحاب النفوذ والسلطة والجاه يأبون إلا أن يستعبدوا أرواحنا وفكرنا ، بعد أن استغلوا عرقنا وجهودنا بدراهم معدودة . . لكأن الأقـوياء وحـدهم هم الذين يعـرفـون الطريق إلى الحقيقة . . الحقيقة الشاملة لكل شىء . . يا لها من حقيقة شائنة يا أم عبد الله . . إن السياط التى مزقت أجساد المساكين من أمثال ياسر وسمية وبلال ترغم الإنسان على أن يكفر بتلك الحقيقة التى يروج لها أبو سفيان وأبو جهل وغيرهما من رجالات مكة . . الإرغام والقهر والإذلال يا أم عبد الله لا تتفق مع الحقيقة التى يرفع نبلاء قريش لواءها . . لسوف نرحل إلى الحبشة يا أم عبد الله . . هذا ما أمرنا به رسول الله الكريم محمد ابن عبد الله . . ومحمد يا أم عبد الله . . رجل طيب . . . شريف . . صادق ليس فى يديه سوط ، ولا يسوق الناس

بالقهر والإذلال، إنه لا يملك غير الكلمة المضيئة. والحجة الدامغة، والسلوك الباهر. :. إنه حبيب الفقراء والعبيد والمساكين.. أجل.. أقول الكلمة المضيئة.. إنها شيء كبير يا امرأة.. ألم تعجز السيوف عن إطفاء نورها، لكأن المعذبين والمضطهدين منا زيت يمد تلك الكلمة بمزيد من الضياء والقوة.. لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله.. محمد رسول الله..».

ورفعت أم عبد الله وجهًا شاحبًا قد بللته الدموع الغزار، وقالت لزوجها: «الحبشة أرض بعيدة، وليس لنا فيها أهل ولا أصدقاء».

- «لكن بها ملكًا طيب القلب، يفتح أرضه وقلبه للمعذبين والمضطهدين ويقول الرسول عنه -يا زوجتى المسكينة- «إن فيها رجلاً لا يظلم الناس عنده».

وأخذت الزوجة تجفف دموعها وتقول: «كيف نأكل؟ وكيف نعيش فى تلك الديار البعيدة؟ وإلى متى نبقى هناك؟؟».

قال زوجها فى ضيق ظاهر: «كما نأكل هنا، إننا لا نمتلك الضياع، وليس لنا تجارات واسعة، نكسب قوت يومنا من عرق جبيننا، نعيش هنا فى قهر وذل، وفى الحبشة سنجد

الأمان، الأمان هو الحياة يا امرأة . . لأن فى الأمان اطمئنانًا وحرية فى القول والعمل وفى العقيدة . . إننى لا أخاف من المستقبل يا أم عبد الله . . إن الله معنا . . ولقد وعدنا بالنصر . . وسنعود إلى ديارنا يومًا ما وقد تطهرت من أدران الحقد والذل والشرك . . ولن نجد عند عودتنا أهل مكة يعبدون أصنام الحجر أو أصنام البشر . . ».

- «لكم يعز علىَّ أن أترك موطننا الحبيب برغم الفقر والذل، ولسوف أظل فى حيرة من أمر هؤلاء الطغاة الذين يأبون إلا أن يحيلوا حياتنا إلى غم ونكد وغربة . . أعترف أننى ضقت ذرعًا بما نعانيه فى مكة من هوان . . لكن لم يزل بنفسى شىء ليس بالقليل من حب هذه الأرض. إن شوقًا جارفًا يربطنى بهذه المعالم والمبانى والتلال والبيت العتيق . . ».

هتف زوجها محتدًا: «لم يزل الشيطان يوسوس لك . . الوطن ليس رمالاً وجبالاً وبيوتًا . . إنه أكبر من ذلك . . إنه معنى كبير . . قيم أصيلة تسود أمة من البشر . . إنه بناء من القلوب والأفكار المؤمنة الخالدة. والعلاقات العلوية الطاهرة . . إننى لا أنكر ألفة الإنسان للأشياء، لكن الذى أنفر منه وألعنه أن تتحول هذه الألفة إلى قيد وانحطاط وإهدار للقيم الرفيعة . . إن وطننا هو الوجود الروحى الذى تخفق فوقه راية «لا إله إلا الله محمد رسول الله . . ».

هزت أم عبد الله رأسها فى ثقة وإيمان، وقالت: «صدقت.. إن ألفة الأشياء الكونية الظاهرية، قد أوشكت أن تطمس أشواق روحى.. الإنسان شىء آخر بالإضافة إلى الطعام والشراب والجسد، والوطن شىء آخر بالإضافة إلى الأرض والجبال والأشجار والمرعى..».

قال زوجها: «ها أنت ذى تعودين إلى الحق.. ما أسعد قلبى!! سنمضى فى الطريق إلى الحبشة وإنى لموقن بأن الله سيرعانا، وسنجد فى كنف «النجاشى» الراحة والأمان، إنه من أهل الكتاب يؤمن بالله.. وسنسعى ونجتهد ونعمل، ونعبد الله دون خوف.. وسيكون معنا عدد كبير من المسلمين، سيهاجرون فراراً بدينهم وحريتهم..».

وصمت لحظة، ثم هتف فى حزم: «نحن لا نهرب فراراً من الموت يا أم عبد الله.. فالموت فى سبيل الله استشهاد وطريق إلى الجنة التى وُعد بها المتقون.. ولكننا نسيح فى الأرض، وندخر قوانا وحياتنا ليوم آخر.. يوم مشهود.. ثم إننا ننفذ أمر الرسول أولاً وأخيراً.. ولا تنسى أن خروجنا على هذه الصورة سيجلب العار والخزى على قريش أبد الدهر.. سيقول الناس فى كل مكان: إن قريشًا قد اتخذت الظلم مركبًا، واضطهدت بنيها، وفرضت الذل على الأبرياء،

وسيعرف القاصى والدانى الكثير عن قضيتنا العادلة . . إن محمداً ﷺ يعرف جيداً ما يفعل . . ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى . .

قالت أم عبد الله : «ومن سيكون معنا؟؟» .

- «فيهم عثمان بن عفان ، وزوجه رقية بنت الرسول ، والزبير وابن مسعود وعبد الرحمن بن عوف . . وغيرهم . . سنخرج متسللين يا زوجتى حتى لا تمنعنا قريش من السفر : سنعتصم بالكتمان . . » .

زمجرت قائلة : «إننا نترك لهم كل شىء ونمضى ، ماذا يريدون بعد ذلك؟؟» .

- «يريدونك أن تبقى ، وأن ترتدى عن دينك ، أو تظلى رهينة فى أيديهم يتسلون بتعذيبك والنيل منك ، إنهم يودون أن يقيموا سياجًا صلبًا حولنا حتى لا تنتشر دعوتنا فيعرف الناس الحقيقة . . والحبشة يا زوجتى ليست غريبة عنا . . إنها متجر قريش . وصلاتنا بها وطيدة . . آه يا زوجتى . . لن أنسى أطفال مكة وصبيانها وهم يعبثون ببلال وينالون من شرف «سمية» .

لقد شحن قلبى آنذاك بحقد هائل . . حقد لو انطلق لأحرق مكة وشعابها . .

ما أتعس أن يتحول الحاكمون إلى حملة للسياط . . فالحاكم

ليس له فى ذهنى سوى صورة الأب الحنون الكبير القلب الذى ينحاز للحق . . قد تظنين أننى حالم أتجافى عن طبيعة الكون والوجود . . لكن إيمانى بذلك لا يتزعزع . . سأظل أومن بأن الحاكم مربٍّ ومرشد وأب ، أما أن يتحول إلى جلاد فهذا ما أرفضه . . » .

قالت أم عبد الله : «إن قريشًا لا تفكر فيما تفكر فيه أنت ، ومكة تحكمها العصبيات ، وتتوزع السلطات المختلفة بين رءوسها ، ولهذا فهم يريدون أن يبقى كل شىء على حاله ، إن الجديد فى هذه البلاد يهولهم ، ويثير الذعر فى قلوبهم . . ومحمد يسفه آلهتهم ، ويحارب تقاليدهم وتسلطهم ، ويحترم العبيد ، ويعلى من شأن الفقراء ، ولا يقيس الناس بحسب أو نسب ، مقياس التفاضل الوحيد لديه هو التقوى . . فأين إذن المجد العريق ، وأين كبار الشعراء والحكماء العرب . . إن كلمات محمد برغم بساطتها وقوة إقناعها أمر ضخم مهول إنها هدم للقديم ، والإعداد لإقامة بناء جديد للحياة ولطبقات الناس ، ومعاييرهم الخلقية . . » .

هز الزوج رأسه قائلاً : «أعترف أنه حدث جلل» .

- «ومن ثم فلابد أن يكون التصدى له تصديًا رهيبًا مشحونًا بالعنف والقسوة . . » .

- «والله غالب على أمره يا أم عبد الله . . » .

وتسلل المهاجرون، كل من طريق، إن عيون قريش لا تنام، إنها تبحث عن البذور الجديدة تريد أن تسحقها وتحيلها إلى رماد قبل أن تنمو وتترعرع وتزهر وتثمر، ومضت أم عبد الله وزوجها، وعيونهما تتأرجحان هنا وهناك من شدة الخوف، القلوب تخفق، ألا يتصادف أن تكتشف قريش هذه القافلة الهاربة بدينها، فتجرها إلى الوراء، إلى ساحات الموت والعذاب الرهيب، وينكلون بها أشد التنكيل؟؟ إن أم عبد الله تهرول وأنفاسها تتلاحق، بعد وقت قصير ستغادر هذه الأرض التي تحبها، لكنها سوف تتنفس الصعداء، وتشعر بارتياح بالغ وقد نجت من العذاب والإذلال. . . ستحرر روحها، وستستنشق هواءً نقيًا ولن ترى الأيدى المتصلبة المتشنجة وهى تمسك بالسياط، ولن تلاحقها السخرية المرة، والكلمات البذيئة.

- «إلى أين يا أم عبد الله؟؟».

كانت قد تخلفت عن زوجها مسافة ليست بقصيرة حتى لا تثير الشبهات، وعلى الرغم من التخفى الشديد، إلا أن ذلك الصوت انطلق خلفها، فارتعدت فرائصها، وداخلها خوف بشع، فالتفتت خلفها وهى تكاد تسقط من شدة الرعب، وقالت: «من؟؟».

يا لها من كارثة، إنها ترى عمر بن الخطاب بدمه ولحمه، ذلك الشاب الفارع الطول، القوى البنية، العميق النبرات، وابن الخطاب معروف ببطشه وغلظته ومعاداته الشديدة لمحمد وأتباع محمد، ألم يقم بنفسه بتعذيب بعض المسلمين؟؟ ألم يهدد بقتل محمد، ويتهمه بالمروق، وبأنه صابئ عن دين الآباء والأجداد، وأن دعوته ضد نظام مكة وأمنها واستقرارها؟؟ إن أم عبد الله تعرف ابن الخطاب جيداً . .

- «دعنى وشأنى بربك يا ابن الخطاب».

- «إن فى سيرك ما رابنى، ثم إن ما انتابك من هلع قد بذر فى نفسى الشكوك، فضلاً عن أنى رأيت زوجك يمضى فى نفس الطريق، إن شيئًا ما يجرى فى هذه اللحظات وأنا لا أعرفه . . وابن الخطاب كما تعلمين تواق للمعرفة . .».

اشتد بها الارتباك والارتياع، لكنها تماسكت، لن تستطيع أن تخدع هذا الرجل، من يدرى لعله قد ألم بطريقة ما بأخبار المهاجرين إلى الحبشة، لا مناص من أن تصدقه القول، وفى ذلك خطورة كامنة، فكيف السبيل إلى النجاة من هذا المأزق، أجل . . إنها تعرف كيف تنجو وتعرف كيف تدخل إلى قلب عمر، وتحمى نفسها من أذاه . .

- «لسوف أخبرك بكل شىء بشرط . .».

- «ما هو؟؟».

- «أن تسترنى، وتحفظ سرى..».

- «هذا عهد علىّ..».

قالت وقد تمازجت نبراتها بالدموع: «إننا مهاجرون..».

وسادت فترة صمت قال عمر عقبها: «إنه للانطلاق يا أم عبد الله؟؟».

- «نعم والله، لنخرجن فى أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجًا». ونكس عمر رأسه لم تفارق ذهنه صورة المرأة الضاوية الملثمة، التى تحمل فوق كتفها وظهرها متاعها التافه، ولم يزل صوتها المندى بالدموع يرن فى أذنيه، وهل ينسى ما ساهم به من تعذيب وإيذاء لهؤلاء المساكين؟؟ يا له من أمر غريب!!

كان فى إمكان هذه المرأة أن تقول كلمة واحدة تنجى بها نفسها من جحيم المشكلات والمتاعب، أن تتنكر لمحمد، لكنها رفضت، وها هى ذى تغادر الأهل والدار والوطن، وتتحمل مشاق الغربة، وأهوال الطريق، وتواجه المستقبل المجهول، وترفض أن تتخلى عن شىء آمنت به..

- «أما زلت عند عهدك، أم ستفضح أمرى؟؟».

وأدار عمر رأسه، ثم هرول مبتعداً عنها وهو يقول فى رقة لم تألفها فيه من قبل: «صحبكم الله..».

انطلقت أم عبد الله مسرعة، وأخذت تتعثر، فإذا ما سقطت تحاملت على نفسها ولمت شعثها، وعاودت المسير، وبلغت زوجها بعد جهد، وبعد أن وضعت قدمها على السفينة الراسية على شاطئ البحر، روت لزوجها ما حدث من ابن الخطاب. ثم علقت قائلة: «ورأيت رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه -فيما أرى- خروجنا، لقد قرأت على وجهه معانى لم آلفها فيه من قبل.. يبدو لى أن عمر على وشك أن يعلن إسلامه».

ضحك زوجها ساخراً، ثم قال: «لا يسلم هذا الرجل حتى يسلم حمار الخطاب..».

◻◻◻

الفصل [٢]

«كنت دائمًا أحسم الأمور بضربة قوية نهائية، أو برأى ثاقب لا يهتز أو يتأثر بالمعارضة، فماذا جرى لى؟؟» هكذا قال عمر بن الخطاب يحدث نفسه. وهو يسير فى الطريق وحيداً، يعتصره الضيق، ويمزقه الألم، إن أمر محمد يشغل باله، وينغص فكره، ويملأ تفكيره بالمتناقضات التى لا نهاية لها، حاول جاهداً أن ينقض عليه ويريح قريشًا منه، لكنه ما يكاد يقترب منه، حتى تضج الهواجس فى رأسه، ويحيط به الاضطراب من كل جانب، ويدرك أن ذلك أمر كبير، خطير غاية الخطورة، لم يستطعه أحد من رجالات قريش وأبطالها، ثم إن نداء داخليًا يهيب به فى كل مرة أن قف، ولا ترفع يدك وإلا . . وما يكاد عمر يرفع عقيرته مفنداً دعوى محمد، أو مسفهًا لآرائه، حتى يشعر أنه لا يؤمن بما يقول، وأن منطقه لا يكاد يستقيم أمام دعوة محمد فيما تقدمه من براهين قوية وبساطة مذهلة. . يا لها من مأساة يعيشها عمر!! ألم يكن عمر

وآباؤه من قبل هم سفراء قريش فى كل مكان، يحلون المعضلات، ويقضون أعتى المشكلات، لهم الرأى الثاقب، والحل الذى يرضى الجميع؟ أليس لعمر من سعة التفكير، وانطلاق اللسان، ورجاحة العقل، ما جعله السفير المعلم إلى القبائل المجاورة، والممالك القريبة؟؟

وأخذ عمر يناقش نفسه بهدوء عاصف، ترى ماذا أخذ على محمد من انحرافات؟؟

وأجاب عن تساؤله: «إن محمداً يبتدع دينًا جديداً لا عهد للعرب به.. محمد يفتح الطريق أمام خلافات وتمزقات لا يعلم إلا الله مداها.. محمد يهدد نظام أمن البلاد.. محمد يحاول أن يقتلع التقاليد من جذورها.. ويبنى دعائم ملك جديد له ولبنى هاشم من بعده..».

وعاد عمر يتساءل: «هذا كلام عام غامض، يمكن أن يرد عليه محمد بنقيضه، ويمكنه أن يوضح أن دعوته هى الحق، إنه جاء يداوى أسقامًا طال عليها الأمد، وأنه جاء لرفع لواء الإخاء والعدل والحرية، ولتنقية العقائد مما علق بها عن شرك وانحرافات.. ولهذا أرانى مضطراً أن أقصد إلى لب المشكلة وأتساءل: ما الخطأ فى كلمات محمد؟؟

آه يا عمر.. الله واحد.. يا لها من كلمة!! ليس لدىً من

دليل مقنع يمكن أن يهدم هذه الدعوة . . الله واحد . . وهل فى الإمكان أن أقول : إن الله اثنان أو ثلاثة أو أربعة؟؟ وكيف؟؟ وهل تستقيم دعواى؟؟ ومحمد يقول : إن العبيد إخوة لنا . . يضرب عرض الحائط بكل المواضعات والنظم القائمة . . فبلال مثل أبى بكر، ومثلى أنا .. ومثل أبى جهل أو أبى لهب وأبى سفيان . . تالله لو انطبقت الأرض على السماء لما جاز هذا القول . . إن هذا التصور فساد أى فساد . . مستحيل أن أقبل هذه «الافتراضات» الغريبة . . ».

وضاق صدر عمر، وهتف فى حنق : «يا إلهى» أى إله؟ أين الطريق؟؟ أين وجه الحقيقة؟؟ إننى على استعداد لأن أدفع حياتى ثمنًا لمعرفة الحقيقة . . لقد كثر اللغط فى مكة، وامتلأت نواحيها بالنقاش الحاد، وماجت شوارعها بالأصوات الصادقة والكاذبة، وثار الغبار فى جنباتها . وأنا أمضى متخبطًا بين الشك واليقين، يحرقنى الشوق إلى المعرفة الجادة، وأشعر أن سلاسل وأغلالاً ثقيلة، تقيد من عزيمتى وتشدنى إلى الأرض، فلا أستطيع الانطلاق كما أشتهى، ولا يمكننى التحليق فى الآفاق العالية النقية التى طالما حلمت بها . . وبيوت مكة ترقد فى جمود مميت يبعث على الغيظ والملل، ونخيلها يتمايل فى برود وكسل، وكأنه يسخر من عواصف العقول والقلوب التى تحترق . . آه . . أين أيام الهدوء والسكينة

الروحية؟؟ وأين أيام «عكاظ» سوق مكة الشهير، حيث تتوافد القبائل من شتى الأنحاء للتجارة وإلقاء الشعر والمصارعة والسباق؟؟ لم تصعد الحلقة يا ابن الخطاب أمام خصم إلا وهزمته، ولم تبدِ رأيًا في الشعر أو الأنساب إلا وتشربته الأسماع والقلوبَ. . وها أنت اليوم تقف بعودك الفارع كالبرج الخاوى الخرب، وتشمخ برأسك التى لا تحمل غير القلق والشكوك والهواجس المتزاحمة. . » وهتف عمر بصوت مسموع: «إننى لا أعرف أين أمضى. . ».

وأفاق من هواجسه على ضحكة متكسرة تنبعث من خلفه، وصوت غانية يقول: «بل تعرف يا ابن الخطاب، إن الطريق إلى بيتى معروف، لقد حفيت قدماك من كثرة السير عليها. . ».

وصاح: «من؟؟ أنت؟؟».

- «أجل. . أنا. . ألا تسبقنى إلى هناك، إن لدىّ من الأحاديث والأنباء والألحان والكئوس ما ستطرب له نفسك. . ».

وقف جامدًا يفكر، دائمًا يتلعثم ويضطرب لدى مفترق الطرق، لم يكن كذلك فى الماضى، لكن هكذا أصبح. . أى عذاب يقاسيه، وجاءه كذلك فى الماضى، لكن هكذا

أصبح . . أى عذاب يقاسيه، وجاءه صوتها: «يبدو أنك فى حاجة إلى من يأخذ بيدك . . ».

وجذبته من يده قائلة: «هيا بنا . . لشد ما تشوقت إلى خشونتك وفظاظتك ونبراتك القوية الصارمة . . لقد قضى الزواج على الكثير من توثبك وتحمسك وإشراقك . . لكن لم تزل كالعهد بك جذابًا متفرداً بفضائلك . . ».

قهقه فى سخرية وقال: «أية فضائل لرجل متزوج يقصد بيتك يا امرأة؟؟».

واستقر به المقام فى بيتها، ومضت فترة قصيرة، جاءت له عقبها بإبريق من الخمر المعتق وكأسين فارغتين، وسدد إلى الخمر نظرة طويلة، وتمتم: «لماذا لا يحرم محمد الخمر حتى الآن؟؟».

قهقهت المرأة، وأردفت تقول: «كيما يعطى الفرصة للحيارى والمحزونين . . إنهم فى حاجة إلى النسيان والمرح وذلك لا يتأتى إلا عن طريق الخمر . . ثم لا تنسَ أن الخمر تدر على مثلى دخلاً لا بأس به . . » وشرد عمر بضع لحظات وقال: «الحيارى والمحزونون لا يعالجون بالخمر يا امرأة . . ومحمد لا يؤمن بالمسكنات الوقتية . . لقد جاء يحمل الحلول الحاسمة . . وهناك فى العالم الآخر جنة للموعودين . . أتصدقين هذا الكلام؟؟

قالت فى شىء من الملل: «وما شأنى بهذا كله؟؟».

جذبها إليه جذبة شديدة، رق لها قلبها، وظنت أنه على وشك أن يهم بها، لكن ما أشد دهشتها، وهى تسمعه يقول: «لماذا أرسل الله محمداً بالذات؟؟».

هتفت وهى تلتقط أنفاسها مهزومة مصدومة: «علم هذا عند محمد أو عند من أرسله..».

- «لمَ لم أبعث نبيًا وأنا فارس قريش وسفيرها مثلاً؟؟».

- «سؤال غريب..».

- «أنا لا أحسد محمداً، لكن مئات الأسئلة تطرح فى رأسى صباح مساء.. إننى أعرف أنه الصادق الأمين، ولعله خير رجالات مكة وأشرفها.. لكنى فى الحقيقة أبحث عن السر، والمؤثرات التى تتدخل فى اختيار إنسان ما لكى يكون نبيًا..

سددت إليه نظرات ثاقبة وقالت: «عمر.. لشد ما تغيرت، هذه أسئلة غريبة لا يمكننى الإجابة عنها، إننى أجيد العزف والغناء ومنادمة الرجال.. لكننى لا أعرف الكثير عن الله».

وسادت فترة صمت قالت بعدها: «ولم هذا الانشغال كله؟؟ إن محمدًا لم يتبعه غير شرذمة قليلة أغلبها من ضعاف الناس والعبيد.. فلماذا يشغلكم أمره لهذه الدرجة؟؟ لقد أصبحت مكة مجنونة بالحديث عن محمد وعن أتباع محمد.. لماذا لا يتركونه وشأنه، وليفعلوا هم ما يشاءون؟؟ فليمضِ كل فى طريقه الذى يختار بحرية تامة.. إن ما أسمعه عن محمد لا يخرج عن كونه كلمات جديدة عن الله والملائكة والناس. والدنيا والآخرة، والجنة والنار.. أترى أن مثل هذه الكلمات تؤدى إلى خطر ما؟؟

ضحك عمر وقال: «هذه الكلمات الصغيرة كبيرة جداً.. إنها السحر الذى أثار الانقلابات فى الدنيا منذ بدء الخليقة.. إنها تشكيل جديد لعقيدة الإنسان.. لوجدانه وعقله وسلوكه.. هل تفهمين؟؟».

وأخذت المرأة تملأ الكأسين وهى تقول: «ما أكثر المنحرفين فى هذا الزمان.. حتى أبو سفيان الرجل العاقل ذو المقام العالى يخرج إلى الشوارع مزمجراً، ويعقد الاجتماعات، ويتدارس المأساة، وحوله نخبة من رجالات مكة الأفذاذ.. ماذا جرى؟ هل جن الناس؟؟».

ثم قدمت إليه كأسًا ممتلئة، وهى تقول: «لتشرب هذه الكأس، فقد يكون فيها شفاؤك».

وتمتم وهو يتناول الكأس: «الحيارى.. والمحزونين..».

وشرب الكأس دفعة واحدة، ثم تناول ثانية وثالثة، وأخذ يقول: «أتذكرين يا امرأة.. كانت قبيلتنا -بنو عدى- تنافس بنى عبد شمس.. وكنا قلة.. لم يصمد أبي للمنافسة.. واستطاعت عبد شمس أن تطرد قبيلة أبى فيجلوا عن «الصفا» ويلجئوا إلى بنى «سهم» لكى يسبغوا عليهم حمايتهم، ويعيشوا إلى جوارهم.. هذا عار كبير يا امرأة.

هذا العالم عالم الأقوياء وحدهم، لطالما أمعنت الفكر، وتساءلت: لماذا لم يثر العرب من أجلنا؟؟ لماذا لم يوقفوا عبد شمس عند حدهم؟ لكن الحق دائمًا فى جانب الأقوياء.. كنا فقراء قليلى العدد..».

وتناول كأسًا رابعة واستطرد: «ماذا يريد محمد؟؟ أن يحمى الفقراء ويكسر من شوكة الأقوياء والأغنياء؟!

إنها نفس القصة.. طائفة تتحكم في الأخرى.. لسوف يتحول الضعفاء إلى أقوياء، والأقوياء إلى ضعفاء.. وتتكرر المأساة..».

قالت المرأة: «أهذا ما يريده محمد فعلاً؟؟ لو كان الأمر كذلك لكنت أول المؤمنين بدعوته.. اصدقني الحديث يا عمر.. لقد أفرطت في الشراب ويبدو أنك تهذي..».

وعاد عمر يقول: «لا.. لا.. إنني أفترى على محمد.. إنه لا يريد ذلك.. لماذا أكذب؟؟ إنه يقول: «الناس سواسية.. كأسنان المشط».. يبدو أنه يريد أن يحد من بطش الأقوياء، ويقضي على مظالمهم، وفي الوقت نفسه يرفع من شأن الضعفاء.. ويعلي من قدرهم، حتى يصل الجميع إلى مستوى يلتقون فيه على سلام وصفاء وأخوة..».

قالت المرأة: «إنه لشيء رائع وخطير يا عمر..».

ضحك عمر حتى كاد يستلقي على ظهره وقال: «ها أنت ذي ترين أن الكلمات الصغيرة عن الله والإنسان والجنة والنار والدنيا والآخرة.. كلمات خطيرة إلى أبعد درجات الخطورة..».

- «لكنها على أية حال كلمات طيبة ياعمر.».

أخذ يدق الأرض بقبضته المتشنجة ويقول: «وهذا ما يحيرني، ويعذبني..».

قالت في سخرية: «لن نخسر شيئًا إذا ما انتصر محمد».

- «تريدين أن تقولى إننا سنكسب الكثير . . ».

- «بالضبط».

- «لكن محمدًا لا يفكر بمعيار الربح والخسارة . . القضية عنده حق وباطل . . كفر وإسلام . . نور وظلام . . جنة ونار . . ومن أراد الحق وآمن به بلغ غاية المنى . . الحق فى ذاته غاية . . الحق هو الخير . . والربح شيء آخر . . إن له مقاييس أخرى . . أتفهمين؟» أقبلت المرأة نحوه بعد أن خلعت ثوبها الخارجي . . وبدت فى ثوب شفاف مثير، ثم ألقت برأسها على صدره الكث الشعر وقالت: «حدثنى عن الحب» . .

قال شاردًا. وهو يضع على رأسها يدًا كالثلج: «الحيارى والمحزونين . . ».

- «عمر . . ».

واستطرد كالمسحور: «وجنة الموعودين . . ».

- «هل ذهب عقلك؟؟» . .

- «يلقون العنت والعذاب فلا يرجعون . . يقتلون ويضربون . . ويفرون إلى الحبشة وجبروت مكة وسياطها لا

تستطيع أن تزحزحهم عما يعتقدون . . إن كل شيء في هذه الأرض يتقوض . . ينهار . . أبو سفيان ينهار . . عبد شمس يتهاوون .

إن عيني تخترقان الحجب . . إني أرى عجبًا . . لقد سحت في شتى أنحاء الأرض يا امرأة . . قابلت الملوك والحكماء . . وناقشت النصارى والمجوس ، وسمعت الكثير من الرهبان والكهان وأحبار اليهود . . كلهم كانوا يعيشون في عالم ضيق مغلق أعمى . . برغم صدقهم في بعض ما يقولون . . لكن محمدًا شيء آخر . . أرى في عينيه صفاء الأطهار . . وعلى وجهه عزيمة الرجال الأحرار . . وعلى ملامحه السمح نور الله . . » .

قالت المرأة : «ماذا جرى لك يا عمر؟؟» .

فلم يعرها التفاتًا ومضى يقول : «إن أمره يحيرني . . أهو ساحر؟؟ أهو كاهن؟؟ أهو شاعر يحسن صياغة الحديث؟؟ تحاملت على نفسها ، وأعطته ظهرها ، وقالت نافرة : «لم تعد تصلح لشيء يا ابن الخطاب ، حسبتك تحدثني عن الحب فإذا بك تتحول إلى كاهن أو فيلسوف ، لست أدرى ! ! لقد أضعت الوقت في الهذيان السمج . . » .

فصاح في اهتياج : «لكني سوف أقتل محمدًا . . » .

فالتفتت إليه فى دهشة: «ماذا؟؟».

- «لا شىء..».

- «ما أبشع التناقض الذى تعيش فيه يا عمر!! لقد توهمت أنك ستؤمن بدعوته، إن قرارك الأخير يشكك فى كل ما قلته قبل ذلك عن محمد.. لكن لك عذرك.. لقد دارت الخمر برأسك..».

وقال وهو يشرد ببصره إلى بعيد: «تريدينى أن أحدثك عن الحب؟؟».

قالت فى لهفة: «أجل..».

- «آه.. الحب.. إن كلماتى عن الحب الذى تريدين لا تخرج عن كونها جرعات من خمر.. مسببات لإثارة الجسد.. الحب الذى أحلم به شىء آخر.. كانت عبد شمس تحب نفسها عندما فكرت فى طرد أبى وقبيلة بنى عدى معه، وأبو سفيان وقريش لا يحبون إلا سلطانهم ومراكزهم وهم يذيقون محمداً ورجاله النكال، «وأنت» أنت تحبين المتعة والمال.. تقتلين الزمن والملل والخوف والتمرد، بكأس من خمر، أو ضمة من رجل.. الحب شىء آخر..».

قالت المرأة وقد اكفهر وجهها، وجرحت كبرياؤها: «الباب

مفتوح . . تستطيع أن تنصرف . . لقد أضعت وقتى وصدعت رأسى . . » .

انتصب عمر واقفًا ، ثم رفع يده ليسدد إلى وجهها صفعتين قويتين ويقول : « لا يصح أن يعلو صوت النساء ، أو يتكلمن بهذا الأسلوب الوقح . . إنها قحة وسوء أدب وفجور . . » .

□□□

الفصل [٣]

«لسوف أمضى إليه، ولن أتردد، هذا الجرىء الصامد، الذى يهدم البناء حجراً حجراً، ويعمل فى هدوء، ويمزق أواصر الناس، فينشق الابن عن أبيه، وتخالف المرأة زوجها، ويتمرد العبيد على سادتهم، لقد فرّق محمد أمر الناس، ويوشك أن يحطم كيان مكة والعرب. . لسوف أقتله. . فإن كان نبيًا فليحمه الله منى. . ابن الخطاب يقتل نبيًا. . هذا نبأ كالرعد. . ومن غيرى يفعلها؟؟ ابن الخطاب يدافع عن وحدة قريش، ورابطة العرب. . ومن سواى يقدر على فعل ذلك؟؟».

وأخذ عمر يتحسس الأخبار، ويسأل عن مقر محمد الآن، هيهات أن تستطيع قوة فى الوجود أن تثنيه عن عزمه، وعمر لا ينكر أن نوازع نفسية غريبة تثير فى قلبه رعدة خفية، وبعض الهواجس تنبت فى روحه التردد. . فليسحق نزوات الخوف والتردد، وليضع حدًا لهذه المأساة، فينتهى العذاب والتمزق، ولا يفر الصابئون إلى الحبشة أو غيرها، ولتهجع الفتنة

والمناقشات الحادة، وعرف عمر أن محمدًا بدار الأرقم بن أبى الأرقم عند «الصفا»، ومعه أربعون من أتباعه. . فأسرع متوشحًا سيفه. . والسيف يحسم كثيرًا من الأمور يا ابن الخطاب. . لكن الدم المراق لا يجف على تلك الرمال بالسرعة التى تتمناها. ألا يمكن أن يجر ذلك على كثيرًا من المتاعب؟؟ ليكن. . إن استقرار الأمور، وعودة الهدوء إلى مكة لابد وأن يضحى الرجال بالكثير فى سبيله. . وتصور عمر نفسه وهو يرفع سيفه اللامع، ويعلو به هامة محمد. . والسيف يهوى بسرعة فائقة. . لكن وجه محمد باش. . مبتسم. . يشرق بنور غريب. . إن نوازع الضعف والتردد تعاوده من جديد. . لكنه يهرول إلى الطريق. . لن يستسلم للهوى والضعف. . لابد من قتل محمد. . ابن الخطاب يمضى وقوة مجهولة تحاول جذبه إلى الوراء، فيدق الأرض بقدميه، وكأنه يقهر هواجسه، ويعلن عن إصراره وعناده. .

- «إلى أين يا عمر؟؟».

- «من؟؟ نعيم بن عبد الله؟؟».

- «نعم. .».

- «وما شأنك بى!!».

- «أراك مكفهر الوجه، متوشحًا سيفك. . أخشى أن

يكون وراء ذلك أمر خطير يا عمر. . » توقف عمر وقال: «لسوف أقتل محمداً. . ».

لكأنما أراد عمر أن يعلنها على الملأ، وأن يطلقها كوعد لا يصح النكوص عنه.

قال نعيم: «ويحك يا ابن الخطاب!! لقد عهدتك راجح العقل، ثاقب النظرة. . ».

- «لم أزل كذلك. . ».

هتف نعيم: «لا تغرق نفسك فى متاهات الخطأ، وأنت فى فورة الغضب. . ».

- «إن محمداً رجل مثلنا. . يأكل. . ويشرب. . وينام. . ويعاشر النساء. . ».

- «وهو لم يزد على ذلك، سوى أنه نبى مرسل. . ولك أن تصدقه أو لا تصدقه، وهو لا يحاسب أحداً، إنما الحساب عند الله. . قضية لا يُفصل فيها الآن. . ».

صاح عمر محتداً: «بل سأفصل فيها الآن بسيفى. . ».

- «لكن محمداً لم يرفع فى وجهك سيفًا. . ».

- «ليته يفعل. . لو حدث ذلك لهان الأمر. . ».

وأردف نعيم قائلاً:

«إن الرجل يقارعكم حجة بحجة، ويناز لكم بالكلمة، ولجوؤكم إلى السيف، مظهر من مظاهر العجز والخطأ، وهو فى الوقت نفسه إقرار غير مباشر بقوة حجته..».

قهقه عمر ساخراً، وهو يقول: «أية حجة تلك التى تتحدث عنها؟؟ هذا الصابئ فرّق أمر قريش، وسفه أخلاقها، وعاب دينها، وسب آلهتها..».

ورأى نعيم أن يجرب معه شيئًا آخر، فقال مهدداً: «أترى يا عمر أن «عبد مناف» تاركوك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ؟؟».

أدرك عمر ما ينطوى عليه من خطورة كامنة. قد تؤدى إلى فنائه وفناء قبيلته «بنى عدى» بأسرها، ليت الضرر يحيق به وحده، لكن إراقة دم محمد قد يشعل النار فى أرجاء مكة، ويمزق أمنها ووحدتها أكثر مما تمزقها دعوة محمد، ها هو التردد والضعف يعودان إليه مرة أخرى، ولكنه أعلن كلمته، ولن يتقاعس أو يتردد، وصاح عمر مصمماً: «لسوف أضحى بأغلى شىء كى أقضى على الوباء قبل أن يستفحل أمره..» قال نعيم فى غير قليل من السخرية المرة: «أنت تسميه وباء، ومحمد يسميه شفاء، والحكم ليس لك وحدك إنها قضية كبرى تهم الجميع، والناس فى أنحاء مكة وخارجها هم القادرون على

إصدار الحكم . . وفى مثل هذه الأمور يا عمر لا يصح أن نحكم السيوف . . إنها عمياء صمّاء لا تخلف وراءها غير الدماء والأحقاد . . لتترك الآراء تتصارع يا عمر . . إن محمداً يعرض قضيته ، ويترك للناس الخيار ، فلا قهر ولا إلزام . .

وأنت تلزمه بقضيتك بحد السيف . . والدم لا يطفىء الحزازات ، ولكنه يزيد فى إشعالها . . » .

قال عمر فى صبر نافذ : «هل انتهيت من كلامك؟؟» .

فلما لم يجب نعيم ، هدد عمر فى إصرار : «لسوف أقتله . . » .

اقترب منه نعيم ، وسدد إليه نظرات حادة لا تخلو من شماتة ، وقال : «ألا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم . . » .

قال عمر وقد ساد وجهه شحوب ظاهر : «ماذا تعنى؟؟» .

أجاب نعيم وهو يضغط على مخارج الحروف : «لقد أسلمت أختك فاطمة و . . » .

وقاطعه عمر : «أختى؟؟» .

- «أجل ، وزوجها ابن عمك سعيد بن زيد . . » .

- «هذا كذب . إنك تحاول تحطيم عزيمتى ، والنيل من كبريائى . . » .

واستطرد نعيم دون أن يكترث لاعتراضه: «وتابعا محمداً على دينه..».

نحى عمر نعيمًا عن طريقه، وعاد أدراجه إلى بيت أخته متلاحق الأنفاس، ما هذه الضوضاء التى تضطرم فى رأسه، إن فكره لم يرتبك طول حياته كما يرتبك فى هذه الأيام، العواصف الهوجاء تعصف بروحه وعقله، والليل الطويل يأتى إليه بالهموم والأرق، والتردد ينتهبه دون رحمة أو شفقة، والعالم الرحب الكبير أضحى أمام بصره مثل كهف ضيق مظلم داهمه غبار كثيف وحرارة تكتم الأنفاس.. ابنة الخطاب تتبع محمداً.. امرأة لا وزن لها ولا قيمة تفكر وتقتنع، وتختار الطريق الذى آمنت به، ألم تكن ترتجف أوصالها إذا ما وقفت أمام عمر، وتنتفض فى هلع إذا ما صاح بها؟؟ هل أصبحت كلمات محمد أحب إلى نفسها من كرامة أخيها، ومن أمن قريش؟؟ وهل تستحق هذه العقيدة الجديدة منها أن تعرض نفسها للتضحية بحياتها؟؟ ماذا يقول الناس عنى الآن وقد أمعنت فى تعذيب المسلمين من قبل؟؟ إنها لصفعة قاسية توجهها الأقدار إلى كرامتى وكبريائى.. لسوف أعرف كيف أؤدب تلك المارقة.. لا.. لا يا عمر.. يجب أن تتسلل فى هدوء.. فقد تقبض عليهما متلبسين بقراءة القرآن، أو بأداء الصلاة التى يعلمها محمد لأتباعه.. أريد أن أرى بنفسى،

وأتحقق من كل شيء. . هذا يوم عصيب يا عمر. . لسوف أريق دمك يا ابنة الخطاب. . بل ودم زوجك أيضًا. . يجب أن أمسح العار الذى لحق بقبيلتنا قبل أن أهوى بسيفى على هامة محمد. .

وسمع عمر صوتًا نديًا رقراقًا. . إنه يعرف هذا الصوت. . آه آيات من القرآن. . إننى أستطيع أن أميز كلماته من بين ملايين الكلمات. . له طابع خاص غريب فلأسمع. .

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا (١١٢) وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١١-١١٤].

ها هى كلمات الله. . تطرق باب قلبه فى رفق، لكأنما هذه الكلمات لحن سماوى مؤثر حزين يسيل الدموع. . الدموع؟؟ لا. . وسقط السيف من يده، فأسرع بتناوله، خيل إليه أن عضلاته المتشنجة تتراخى، لكنه يقاوم. . هذا سحر، سحر لا شك فى ذلك، ترى كيف جاءته هذه الكلمات البسيطة التى تسحر القلوب؟؟ إنها شيء فوق شعر عكاظ وحكمتها وخطاباتها. .

الويل لك يا عمر!! كيف تضعف؟؟ ستكون أضحوكة الناس فى مكة، ومضغة فى الأفواه.. واستعاد رباطة جأشه وإصراره، ودفع الباب فى عنف، وصاح بصوت أجش.. أسرع قارئ القرآن «خباب» بالهروب إلى حجرة داخلية، بينما وقفت فاطمة جامدة شاحبة وإلى جوارها زوجها سعيد..

وهتف عمر: «ما هذه الهينمة التى سمعت؟؟ لقد تناهى إلى سمعى كلمات غريبة..».

قالت فاطمة فى ارتباك: «لا شىء يا عمر».

- «بلى والله.. لقد سمعت».. ماذا أقول؟؟ يا للكارثة!! لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه..».

ونقل نظراته الخانقة بينهما، ثم أمسك بتلابيب سعيد وجذبه إليه فى عنف، وأخذ يسدد إليه ضرباته، فقامت فاطمة لتكفه عن زوجها، فانصرف إليها يضربها، حتى شج رأسها وأسال دماءها، وهو يقول: «لقد نسيت أن هناك دروساً قاسية فى الأدب كان يجب أن ألقنها لك من قبل يا ابنة الخطاب يا صابئة..».

قالت فاطمة ودموعها تمتزج بدمائها: «نعم، قد أسلمنا.. وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك..» ماذا يسمع عمر؟؟ أفاطمة التى تتكلم؟؟ إنها لم تعترضه فى حياته، ولم تقف منه

مثل هذا الموقف من قبل، أيمكن أن يحدث لها هذا الانقلاب المفاجئ؟؟ ولماذا؟؟ وما شأن امرأة تافهة بالرسالات؟؟ وما يضيرها أن تعتنق الدين الجديد أو لا تعتنق؟؟ إن رأس عمر يكتظ بمزيد من علامات الاستفهام التى تثقل على عقله كحجارة صغيرة مدببة، أو كسهام تؤلمه، وتسيل أمنه واطمئنانه.. «فاصنع ما بدا لك» يا لها من كلمة كبيرة تفوهت بها فاطمة.. آه.. لقد كانت تقرأ منذ لحظات كلمات تهز الجبال، لقد سمعت الصوت الندى الرقراق يقول منذ لحظات: «ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا» إنها الشحنات التى يعبئ بها محمد نفوس الناس، فلا يرهبون الوعيد ولا يستسلمون للوعود..

ورفع بصره إلى فاطمة، كانت تقف كالجبل الأشم صامدة قوية، لا يبدو على وجهها الدامى أثر للخوف، ولا تنطق ملامحها برهبة من الموت، حتى لكأن أخاها يمسك بعصا هزيلة، ولا يتشح بسيف صارم حاد.. ودماء فاطمة تنسكب.. يا لقسوتك يا ابن الخطاب.. الدماء تسيل.. يا متجمد القلب.

- «معذرة يا فاطمة.. لقد أقدمت على إساءة بالغة.. لشد ما يؤلمنى أن أرى دمك الزكى يسيل..».

قالت وقد انهمرت دموعها بغزارة: «أنت أخى.. وأنا أحبك.. لكن حبى لله أشد.. إنه خالقك وخالقى. لقد تغلغلت كلماته إلى روحى وعقلى فآمنت..».

طأطأ عمر رأسه، ثم همس فى رقة: «أين الصحيفة التى كنتما تقرآن فيها؟؟».

قالت فاطمة فى حرج: «تريد أن تمزقها.. إننا نخشاك عليها..».

- «أقسم بآلهتى أن أردها إليك بعد إتمام قراءتها..».

أخذ عمر يتلو الصحيفة.. سورة «طه».. إنه يشعر بالحرج.. يشعر بالعيون التى ترقب حركاته وسكناته، وتتابع انفعالاته تظهر على وجهه.. لكنه سرعان ما دخل إلى عالم مثير مائج.. قصة موسى وفرعون.. بنو إسرائيل يترنحون تحت ضربات الطغيان.. معجزات.. قصة العذاب والظلم والانحراف.. وآية تقول: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٤، ١٥] وعمر يستغرق فى الكلمات العذبة.. ويمضى فى رحلة من أروع رحلات العمر بين حقائق تهزه هزًا عنيفًا.. «السلام على من اتبع الهدى».. «وقد خاب من افترى» آه.. وهذه كلمات أخرى لها فعل

السحر فى نفسه، إن السحرة الذين كفروا بفرعون وبسحرهم الخادع أمام آيات الله الكبرى، يصرخون في وجه فرعون، ويقولون فى إصرار لا يتزعزع: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٢].

إن رأس عمر يدور، علامات الاستفهام الحادة التى تنغرس فى رأسه المتعب تذوب.. تتبدد، ويحل محلها يقين.. وحقائق رائقة، صافية كالماء النقى العذب.. لم يعد يشعر بظمأ روحه العنيد الطويل.. هل حقًا حاول عمر أن يرفع سيفه فى وجه هذه الكلمات ليقتلها؟؟ لشد ما كان مغرورًا مخدوعًا.. صغيرًا.. آه.. أصابت فاطمة وأصاب زيد.. وأخطأ عمر.. عمر سفير قريش وفارسها ومتحدثها اللبق.. لماذا حدث ذلك؟؟ هل كان من الضرورى أن يحترق بنيران العذاب، وتدمى الأشواك قدميه، وهو يعبر الطريق الطويل إلى الحقيقة الرائعة؟؟ ورفع رأسه، وبدت قطرات من الدمع عالقة بأهدابه، وتمتم فى خشوع.

- «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله..».

ووثب «خباب» قارئ القرآن، من مخبئه الذى توارى فيه منذ ساعة، وأخذ يتواثب فى مرح وسعادة، وهو يقول: «والله يا ابن الخطاب، لقد سمعت رسول الله يقول: اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب.. فالله الله يا عمر.. والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه..».

وتنهد عمر فى ارتياح.. إن الضيق الذى يضغط على صدره ينجاب رويداً رويداً.. أنغام حلوة شجية تضخ بها روحه.. مذاق جديد لحياة رائعة.

الفصل [٤]

أصبحت الدنيا غير الدنيا، وتبدل مزاجه النفسى، وشعر عمر أنه قد خلق خلقًا جديدًا، وامتدت الثقة بالنفس إلى آفاق أرحب وأغنى، شتان بين الأمس واليوم، إنه لم يكتسب مالاً، ولم يتسم مكانة رئاسية عالية بين قومه، ولم يضع على رأسه تاجًا، أو يمسك بيده صولجانًا، لكن خيل إليه أنه قد حاز كنوز الدنيا بأسرها، وأن بين جنبيه من اللذة العظمى ما لو عرفها القياصرة والأكاسرة، لقاتلوه عليها بالسيوف . . لقد أصبح صاحب رسالة، يبذل فى سبيل نشرها وإنمائها كل ما يملك من جهد ووقت ومال قليل، ذلك هو سر الانقلاب الكبير الذى شمل حياته . . إنه يجلس الآن إلى جوار بلال العبد الحبشى، وإلى أبى بكر خليل رسول الله وإلى على بن أبى طالب ذلك الشاب الصغير، إلى الأغنياء والفقراء، والضعفاء والأقوياء من المسلمين، أولئك الذين كان ينازلهم فى المعارك غير المتكافئة، وينال من إيمانهم وأفكارهم، إنه يجلس إليهم

يتوسطهم رسول الله، يملأ قلبه ينبوع دافق من السعادة لا مثيل له.. ويتصدى لمظالم قريش وضغوطها ومكرها فى صبر أبىّ، وإيمان لا يتزعزع.. وإنه ليجد من النشوة الفائقة عندما يتعرض للإيذاء ما لم يجد طول حياته، إن محمداً إنسان كامل بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى حسبما يعتقد عمر، فهو لا يبدو كشيخ للقبيلة مستبد، يملى إرادته، أو ينتصر لنوازعه، ولا تحركه حزازات صغيرة مبعثها العصبية أو الكبرياء الفارغة ومحمد ليس شاعراً ينشد المجد، ويبغى الكسب على الفصحاء، وهو ليس كاهنًا يترنم بالألغاز والأحاجى، ويعيش فى جو غامض يثير الدهشة وحب الاستطلاع، أو يحتكر الأسرار الإلهية.. محمد رجل بسيط، يحمل قضية واضحة، يتفتح لها القلب الحى، وتتشربها العقول المستقيمة وتهفو إليها النفوس السليمة.. ومحمد يبتسم ويأكل وينام، ويتزوج ويداعب الأطفال، ويحترم الناس أيًا كانت منازلهم، ويجعل من العمل اليومى العادى لونًا رائعًا من العبادة..

ويقول عمر لابنته «حفصة»: «تصورى يا ابنتى.. حتى الكلمة الطيبة صدقة يثاب المرء عليها.. العطف على الأبناء شىء نؤجر عليه، والحدب على الزوجة وملاطفتها تعقبه حسان كثيرة من الله.. الأكل الحلال.. الشرب الحلال.. حتى الشوكة يشاكها الإنسان ينال عليها الثواب..».

قالت حفصة فى استغراب : والشراب أيضًا؟؟

- «أجل الشراب . . آه فهمت، تقصدين الخمر . . إنها تثير حيرتى . . يقول القرآن إن إثمها أكبر من نفعها . . وهذا لا يشفى غليلى، إنها تذهب العقل، وتغلب جانب الحيوانية على جانب الإنسانية فى الآدمى . . ولهذا فأنا أكرهها، كلمت الرسول عنها فأشار إلىّ أن أنتظر، هذا ما فهمته، وإنى أعتقد أن الله لا شك سوف ينزل فيها حكمًا حاسمًا فى يوم من الأيام . . أى حفصة يا ابنتى الغالية . . إن أباك قد جرب الكثير من أحداث الدنيا . . وسافرت كثيراً وقابلت عديداً من رجال الحكم والفكر والدين والمال . .

لم أجد أعظم ولا أوضح من كلمات محمد . . وسيكون لهذا الدين يا ابنتى شأن أى شأن . . إننى أتطلع بعين الغيب إلى المستقبل فيخيل إلىّ أنى أرى الرايات تخفق فى أرجاء الدنيا معلنة مولد الحرية . . وكرامة الإنسان . . وتحطيم الأصنام بكل صورها وألوانها . .

ومحمد يحدثنا عن الأديان القديمة وكأنه عاشها : تاريخها . . تطوراتها . . العبث الذى داخلها . . وكيف أن الإسلام هو امتدادها الطبيعى، وهو الحلقة الأخيرة الكاملة لها . . إنه الصورة المثلى التى ارتضاها الله لعباده، والعقيدة

الكاملة التى تناسب فكر الإنسان وطبيعته وتكوينه . . » .

قالت حفصة وقد أشرق وجهها بالسعادة : «لكم يحز فى نفسى يا أبى أنك لم تكن أول من أسلم . . » .

- «لعنة الله على كبرياء الجاهلية يا حفصة . . كان عقلى يرى النور والحقيقة ، وكلما ازددت اقترابًا منها ازددت مغالاة فى حرب المسلمين والتشنيع عليهم . . الحقيقة أننى آمنت منذ زمن طويل بقلبى ، ولم يكن يبقى سوى أن أكف جوارحى عن العبث ، وأن أكف نزواتى عن السير فى ركاب الغرور الأحمق . . إنها إرادة الله يا ابنتى . . ما كان فى الإمكان أن أقتطف الثمرة قبل أن يأتى الموعد المحدد . . كل شىء فى هذه الحياة له ميعاد يا حفصة . . وعندما التقيت بالنور الأكبر سكنت نفسى ، واستراح فؤادى ، وسجد عقلى لله شكراً . . لقد بدأت بذلك عهداً جديداً من التضحية وتحمل الأذى والآلام ، ومع ذلك فأنا أسعد حالاً . . أتذكرين يا حفصة يوم أن تعاهدت قريش على مقاطعة محمد والمؤمنين به؟؟

- «أذكر ذلك جيدًا يا أبى . . لقد علقوا ورقة مكتوبة بذلك على أستار الكعبة» .

- «أجل . . تعاهدوا ألا يتزوجوا منا ولا نتزوج منهم ، وألا

يتجاوروا معنا . . كان حصاراً شديداً قاسيًا . . عشنا معزولين في «شعب بنى هاشم» نجتر آلام الحرمان والعناء والمقاطعة . . كالمنبوذين . . فترة طويلة من الزمن يا حفصة لطالما فكرت أن أحمل سيفى وأخرج إلى قريش أقاتلها وأظل أقاتلها حتى أستشهد . . لكن أباك رجل نظام . . ولم أكن بالشخص الذى يخرج عن إرادة محمد ونظامه . . كان يوصينا بالصبر والتبتل إلى الله ، وتدريب النفس على المشاق والصعاب . .

هزت حفصة رأسها فى أسى : «كانت أيامًا قاسية يا أبى» ، واستأنف عمر حديثه : «وكان رجالات قريش يظنون أننا نضمر ونكمش ، وأن قوة محمد ودعوته ودينه كلها فى طريقها إلى الزوال ، وأن المسألة مسألة وقت وليس إلا . . ولم يدر بخلدهم أن أيام العزلة والانطواء والاضطهاد كلها نار هادئة تنضج النفوس ، وتشحذ العزائم ، وتتيح الفرصة للاستعداد ثم الانطلاق . . أنت تعرفين ماذا حدث بعد ذلك .

قالت حفصة : «أجل . . انشقت قريش على نفسها ، وتلاوموا ، ومزقوا المعاهدة الآثمة ، وفكوا الحصار الغادر وأقبل بعضهم على اعتناق الإسلام . . » .

أردف عمر قائلاً : «الأهم من ذلك كله رجال من الأوس والخزرج قدموا من المدينة ، وأعلنوا إسلامهم وعرضوا على

الرسول أن يحموه مما يحمون منه نساءهم وأموالهم. . ونحن على أبواب حدث كبير. . ».

قالت حفصة فى لهفة: «ماذا يا أبتِ؟؟».

- «الهجرة. . ».

- «تعنى الفرار. . ».

- «أيتها الجاهلة. . إنها أرض جديدة. . إننا نوسع رقعة الميدان الذى نتحرك فوقه، وننقل النور إلى عدد آخر من الناس. . وهى فى الوقت نفسه قضاء على الجمود الذى ران على مكة. . ليست مكة هى البلد الوحيد فى العالم، ولم يأتِ النبى بالإسلام خاصة لأهل مكة. . إنه رسول للناس كافة فى مشارق الأرض ومغاربها. . ثم تصورى هؤلاء المهاجرين وهم ينطلقون فى عرض الصحراء، يجدون السير بالليل والنهار، مترنمين بكلمات الله الخالدة. . دون أن تؤثر فى معنوياتهم الغربة وترك الأهل والمال والوطن. . إن ذلك يعنى يا حفصة. . أنهم يعيشون لشىء واحد. . دعوة الله ونصرتها. . لقد كان لكل نبى هجرة كما يقول الرسول. . ماذا يفعل الزارع إذا لم تجد الأرض بالطيبات، إذا يئس من إخصابها؟؟ إنه يبحث عن أرض طيبة، ومرعى خصب وإلا مات جوعًا، ونفقت إبله وأغنامه. . إننا نسير إلى الأرض

الطيبة، حيث ينبت الزرع، ويجود الضرع . . وحيث الرجال الأشداء الذين بايعوا الرسول على أن يضحوا فى سبيل الله بكل ما يملكون . . أتسمين هذه الهجرة إذن فراراً؟؟».

قالت حفصة، وقد توردت وجنتاها بالخجل: «لقد خاننى التوفيق فى هذا الرأى يا أبتِ . . ».

- «وهناك أمر آخر أهم من هذا كله . . ».

- «ماذا؟؟».

- «لقد أمر الله رسوله بالهجرة . . ».

- «وأنت يا أبتِ . . ».

- «مع الرسول أينما ذهب، ما كان لعمر أن يتخلف يومًا ما عن أمر يندبه له رسول الله، لكن . . ».

قالت حفصة فى ترقب: «لكن ماذا؟؟».

- «لن أهاجر خفية . . لكم يلذ لى أن أنتضى سيفى، وأصرخ فى أرجاء قريش، وأعلن على الملأ أننى مهاجر . . ومن أراد أن تثكله أمه فليأتنى خلف ذلك الوادى . . ».

قالت حفصة باسمة: «تأبى دائمًا يا أبى إلا أن تثير حفيظة الكافرين، وتطعن كبرياءهم، لم تستطع أن تخفى إسلامك يوم أسلمت، بل جاهرت به، وتحديت أساطين

مكة، وكنت أول السائرين إلى الكعبة لتؤدى الصلاة علنًا أمام أبى جهل وأبى سفيان وغيرهما . . » .

همس عمر فى سعادة : «ذكريات طيبة . . إن حياتى لا قيمة لها بالنسبة لى، إننى لا أملكها، لقد وهبتها لله خالصة . . » .

- «لكن من الواجب أن تحافظ على حياتك حتى تحين اللحظات الكبرى الحاسمة . . » .

قهقه عمر حتى كاد يستلقى على ظهره، وقال : «تخافين أن يصيب أباك مكروه . . لكنك تعبرين عن نفسك بطريقة ماكرة . . » .

وجلس هادئًا بضع لحظات، ثم قال فى جد : «كثير من الناس يخدعون أنفسهم بمثل كلماتك، يجبنون عن مواجهة الخطر، استصغارًا لبعض المعارك، إنهم يغالون فى ثمن تضحياتهم، إنهم يأنفون أن يموتوا فى معارك صغيرة . . وما أظن ذلك إلا كبرياء فارغة، أو جبنًا مستترًا، أو إيمانًا ضعيفًا . . إن الجهاد بشتى مراحله ومعاركه معركة واحدة كبرى . . الأشياء الصغيرة تتلاحم وتكون الكل . . والمعركة الصغيرة جزء من المعركة الكبرى، ولهذا فأنا لا آنف أن أستشهد فى معركة كبرت أم صغرت» .

قالت حفصة فى عناد : «ومع ذلك فأنا أعتقد أن بقاء بعض

الناس على قيد الحياة أجدى وأنفع من التضحية بأنفسهم فى وقت مبكر . . ».

- «إننى أرفض هذا المنطق يا حفصة . . من أكون أنا؟؟ ألا يمكن أن يكون أحد الذين استشهدوا تحت وطأة التعذيب فى ساحات مكة، أصفى فكراً، وأكثر أثراً من ابن الخطاب؟؟ إن دمهم المراق فى سبيل الله فعل ما لا تفعله مئات الخطب والآراء، وكان هذا الاستشهاد الصامت أقوى ألف مرة من ضربات السيوف . . ».

وصمت لحظة ثم عاد يقول: «ومع ذلك فهناك أشياء لا يمكن أن تسمى معارك أصلاً، وهذه لا تستحق التضحية، إنها ضرب من التهور الممقوت . . ».

قالت حفصة فى خجل: «وهل من الضرورى إزاء ذلك أن تعلن هجرتك على الملأ؟؟».

هز عمر رأسه، وسدد إلى ابنته نظرات عاتبة، وقال: «أيتها الماكرة . . إننى لا أصطنع المعارك اصطناعًا لألهو بمصيرى فيها، لكن لى تجربة لا تنسى . . أجل . . فى هجرة الحبشة الأولى، يوم أن رأيت أم عبد الله ترحل فى خوف وأسى . . لشد ما تأثرت لمنظرها، بل لعلها كانت أحد الدوافع المهمة فى إعلان إسلامى . . إن هجرتى مع الرسول

سوف تترك دويًا فى أرجاء مكة، لسوف تشد إلى الإسلام نفوسًا، وستزيل الضعف من قلوب بعض المستضعفين. . إن إعلانى عن هجرتى يعنى التحريض على متابعتى. . أتفهمين؟؟».

قالت حفصة: «ماذا لو أصابك مكروه. .».

- «إن احتمال وقوع المكروه أكثر بالنسبة للبقاء فى مكة، وأقل عند الهجرة، إن الذين يتركون وطنهم وأصدقاءهم وذويهم ويرحلون، يتركون أثرًا بالغًا فى نفوس الأسوياء من الناس. . أى حفصة. . إننى أحاول أن أحسب كل شىء بدقة. . ومع ذلك فإن توفيق الله أهم من أى شىء آخر. .».

وفى اليوم التالى، انتضى عمر سيفه، وخرج إلى شوارع مكة، وطاف بالكعبة، وأدى الصلاة، ثم أخذ ينادى بأعلى صوته أينما سار، معلنًا نبأ هجرته، قائلاً: «من أراد أن تثكله أمه، فليأتنى خلف هذا الوادى. .».

كان نداؤه يثير فى رءوس الناس كثيرًا من الأفكار. .

فمن قائل: «إن محمدًا يعلو شأنه. .».

وآخر يقول: «لماذا تلجىء قريش بنيها للغربة ومغادرة الأهل والوطن؟».

وثالث يغمغم: «لقد قضى أئمة الكفر فى البلد الحرام على شعائر الأمن والحرية».

ورابع يتمتم: «ليت لى من الشجاعة ما يجعلنى أهجم على ابن الخطاب وأفلق جمجمته بسيفى، إنه مغرور بقوته..».

وخامس: «لقد فعل عمر ما يشكر عليه، فعندما يغادر محمد وأتباعه مكة فسيعود إليها الهدوء والسكون، ويظللها السلام من جديد».. وآخرون لم يتكلموا. بل شعروا بنوازع الحزن والأسى، وأيقنوا أن ما يحدث من اضطهاد المسلمين، ومطاردتهم أمر ليس من العدل ولا الشهامة العربية فى شىء..

وتحركت القوافل الصغيرة عبر الصحارى الشاسعة إلى المدينة، وفتحت يثرب أبوابها لتستقبل قافلة النور، وعلى رأسها الرجل الذى تحدثت باسمه الركبان وتناقل الرواة أنباء رسالته فى كل مكان..

وفى أطراف المدينة، وبالقرب منها، وقف اليهود يرمقون هذا الغزو.. أو الزحف الهادئ فى توجس وترقب، وقال كبيرهم كعب بن أسد فى قلق: «أيها اليهود.. هذا يوم له ما بعده.. وما أظن إلا أنه نبى مرسل قد قدم عليكم.. فإما أن تؤمنوا بدعوته، أو تستعدوا لأهوال لا يعلم إلا الله مداها..».

وكان يقف إلى جواره كعب بن الأشرف الشاعر اليهودى والمرابى الكبير، وحيى بن أخطب الداهية الأكبر، وعمرو بن سعدى ذلك اليهودى الهادئ الذى يمتلئ قلبه بالحيرة والاضطراب.. إن الأمر جد خطير، وفى حاجة ماسة إلى تفكير متصل..

وتمتم كعب بن الأشرف: «يجب أن نفتح عيوننا جيداً..».؟

□□□

الفصل [٥]

«صفية بنت حيى بن أخطب» تعد من أشهر نساء اليهود على الإطلاق، فأبوها حيى بن أخطب رجل مرموق المكانة، نابه الشأن، صاحب رأى وكلمة مطاعة بين بنى قومه من اليهود، وعلى صلات وثيقة مع رجالات القبائل العربية فى طول الجزيرة وعرضها، وزوجها كنانة بن الربيع سيد قومه، كثير المال، قوى الجانب، تحميه السيوف والدنانير والتجارة الواسعة، والديانة العتيقة، وصفية فى الوقت نفسه على جانب كبير من الجمال والفطنة والأريحية، فهى تبش عند اللقاء، وتجود للفقراء، وتواسى المحزونين، بل إنها تحظى أكثر من زوجها بحب شعب اليهود بنسائه ورجاله، ولم تكن فى يوم من الأيام بمعزل عن كبريات الأمور التى تجرى، سواء فى مجال السياسة أو الدين أو الحرب أو المال . .

وامرأة هذا شأنها لم تغلق فكرها، أو تغمض عينيها عما يجرى بشأن النبى العربى الجديد، كانت تتقصى أنباءه، وتلح

فى طلبها، وتتلقى ما يصل إليها من آيات القرآن تلقى الشغوفة ذات الفضول الزائد. . وترمق بعين يقظة صدى الدعوة الإسلامية فى مجتمعات اليهود الصاخبة. . وتابعت تطورات الموقف مرحلة مرحلة. . فى البداية كان اليهود يناقشون أمر ظهور نبى جديد، وموقفهم من ذلك النبى، الذى بشرت به كتبهم، برغم ما فيها من أكاذيب وتعاليم موضوعة لا تمت إلى التوراة بصلة. . كانوا يأملون أن النبى الجديد قد ينحاز إلى صفهم، وينضوى تحت لوائهم، فهم أسبق فى لقاء السماء، وأقدم عهدًا بكتبها. وأطول تاريخًا فى ممارستها. .

وقالت صفية لزوجها كنانة بن الربيع: «النبى الجديد يؤمن بموسى. .».

قال ساخرًا: «ويؤمن بعيسى والأنبياء من قبله. .».

- «هذه بداية طيبة يا كنانة. . ولذلك فأنا لا أنقم كثيرًا على الحبر الأكبر ابن سلام ذلك الذى أعلن إسلامه برغم ثقتنا بإخلاصه للدعوة اليهودية. .».

- «بل أسوأ بداية. .».

- «كيف؟؟».

- «لن يكون بيننا وبين محمد لقاء. .».

- «ألا يؤمن بالله وكتبه ورسله . . ».

- «نحن لا نؤمن بغير أنبياء بنى إسرائيل وكتبهم . . ».

ثم أخذ يشرح لها الأمر فى صراحة عجيبة، ما دمنا لا نستطيع أن نطوى هذا النبى العربى تحت جناحنا، فلسوف نعاديه بالضرورة . . إنه يتهم كتبنا بالتزييف والتغيير والتبديل، ويتلو الآيات عن بنى إسرائيل. وقتلهم الأنبياء بغير حق، ويسرد قصصنا بطريقة مخالفة . . والأخطر من هذا كله، أنه يدعونا إلى الإيمان بدعوته . . معنى ذلك . . أن يتحول السادة إلى جنود تحت إمرته . . أو إلى عبيد يأتمرون بمشيئته . . ومعنى هذا أن نلقى كتبنا المحرفة -كما يزعم- ولا نؤمن إلا بقرآنه . . وأن نعترف بنبوة عيسى وإنجيله . . إن دينه -كما يقول- هو خاتم الرسالات، والمهيمن على الديانات القديمة، والشامل لأمور الدين والدنيا . . معنى ذلك أن نحرم ما حرم الإسلام، وأن نحل ما أحله . . معنى ذلك زوال ملكنا وسلطاتنا، وانهيار مجدنا، فلا ربا ولا امتياز لعنصرنا . . ومعنى ذلك أن نؤدى شعائرنا وعباداتنا كما يؤديها . . وأن نرفع شعاره الخطر «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» ويصبح كنانة بن الربيع، وحيى بن أخطب، وكعب بن أسد سيد بنى قريظة، وكعب بن الأشرف شاعرنا العظيم، وعمرو بن جحاش . . أن يصبح هؤلاء جميعًا

فى منزلة العبد الحبشى بلال أو المتشرد الغريب سلمان الفارسى، أو دونهم . . والله إن ذلك لن يكون، ما دمت على قيد الحياة . . أما إسلام «ابن سلام» فهو طعنة أصابت كبرياء طعنة نجلاء . . » .

أطرقت صفية هنيهة، لم يعجبها طريقة زوجها فى عرض الأمر الخطير، ولم يرتح قلبها لتعليلات زوجها وتفسيره ؛ إن الأمر لا يصح أن يناقش على ضوء ما سيحققه اليهود من كسب، أو يقدمونه من خسائر وتضحيات، إن الدعوة التى يقدمها محمد يجب أن تناقش بجزئياتها مناقشة جريئة حرة، دون ارتباطات أو أحكام مسبقة، محمد يقول لا إله إلا الله، وهذا حق، ومحمد يسرد قصص بنى إسرائيل وحيًا من عند الله، دون أن يسبق له معرفة ذلك أو الإلمام به، وهذا جانب معجز فى الأمر، إن تفاصيل ذلك كله تفاصيل مذهلة لا يستطيعها بشر . . ومحمد يدعو إلى الإخاء والمساواة، وإلى فضائل يقبلها العقل والضمير الحى . . إنها تجد استجابة غريبة لدى المنصفين من الناس .

وتمتمت صفية بنت حيى بن أخطب : «إننى خائفة يا كنانة . . » .

- «لماذا؟؟» .

- «أخاف أن يكون محمد على حق . . » .

ضحك ضحكة قصيرة وقال : «قولى صراحة إنك تخافين أن يكون اليهود على باطل» .

- «نفس المعنى . . » .

- «لعل هذا ما كان يقوله أسلافنا عندما ظهر عيسى ابن مريم ، لكن هذا لم يمنعهم من السير فى طريقهم ، والتمسك بعقيدتهم حتى الآن . . » .

قالت صفية فى قلق : «هذا لا يعنى أن أسلافنا كانوا على حق بالضرورة . . » .

- «ماذا تعنين إذن؟؟» .

- «إن وجود الوثنيين حتى عصرنا هذا ، وعدم إيمانهم بأى نبى لا يعنى أنهم على حق» .

- «إنك يا صفية تتمتعين بمنطق خلال ، وحوار مذهل . . » .

- «إننى أبحث عن الحقيقة . . » .

صرخ فيها محتداً .

- «الحقيقة هنا . . فى كتبنا . . الحقيقة التى نملكها باقية منذ آلاف السنين ، يجب أن تكفى عن هذا الهراء . . هذه الفلسفات العقيمة لا مجال لها فى موقف الجد الحاسم

يا صفية . . إنك تتكلمين بطريقة تخالف المفاهيم التى يتحدث بها أبوك . . من أنت حتى تبدين الرأى فى أمر من أمور الدين؟؟ النساء للفراش وقدور الطعام ونظافة المنازل . . » .

أطرقت صفية صامتة، وانطوت على عالمها الخاص لشد ما تكره تصرفات زوجها، وتنقم منه أفكاره!! هذا المتعالى المتغطرس، ينظر إليها دائمًا من عل، ويرمقها فى ازدراء، يعاملها كجارية، ويرتمى فوقها كالبهيمة، ولا يكترث لرأيها حتى لكأن النساء لا يعرفن كيف يفكرن، ولا يستطعن أن يفعلن صوابًا، أو ينطقن حقًا . . شىء من النفور الزائد يخالط مشاعرها نحوه، لكنها لا تستطيع أن تكشف عن ذلك، أو تواجه به، إنه قدرها لا مفر منه، ماذا يقول الناس لو تركت بيته وأوت إلى بيت أبيها؟؟ سيقولون : بنت حيى بن أخطب، لم تراعِ حق الزوج، ولا كرامة الأم، وانسلخت عن زوجها ضاربة عرض الحائط بالقيم الدينية، والتقاليد المتعارف عليها، وصفية تحب أباها لدرجة العبادة، ولا تريد أن تسىء إلى شعوره، أو تطعنه فى كبريائه . . إنها زوجة ملك، وابنة ملك، وتناسلت من نبى . . من هارون أخى موسى .

لتكظم أساها، وتجتر أحزانها صامتة، وترضى بالقضاء المحتوم . .

وأشرق وجهها فجأة بفرحة غامرة، وتضرجت وجنتاها بحمرة محببة، وشردت ببصرها إلى بعيد.

- «فيم تفكرين يا امرأة؟؟».

- «رؤيا غريبة رأيتها فى منامى الليلة الفائتة..».

- «ما هى؟؟».

قالت وهى شاردة فى آفاق علوية محببة، ولعلها تناست وجود زوجها صاحب الكلمة المسموعة من قومه: «رأيت فيما يرى النائم.. أن الظلام قد غطى الأرض بسواده الكثيف، وليس فيه بصيص من نور أو بارقة من أمل.. وفجأة سطع فى السماء قمر منير، رأيته يأتى من يثرب، يعبر السماء فى مشهد رائع باهر.. العجيب أننى رأيت القمر يميل نحوى.. يقترب منى.. ثم.. ثم دخل فى حجرى..».

اربد وجه زوجها، وهو يستمع لتلك الكلمات، وتغيرت سحنته، ثم كور قبضته ورفعها إلى أعلى، ثم أهوى بها على وجه صفية قرب عينيها.. فانتفضت فى ذعر، وهبت واقفة وقد شحب وجهها، ووضعت يدها على مكان اللكمة، وقد هطلت الدموع من عينيها، وامتلأ قلبها بحقد هائل نحو زوجها، وقبل أن تنطق بكلمة سمعته يقول فى غيظ: «كأنك تحبين أن تكونى تحت هذا الملك الذى يأتى من المدينة..».

تمالكت نفسها، وتمتمت: «أي ملك تقصد، وليس بالمدينة ملك؟؟ وهل لى حيلة فى أن أرى رؤيا -أية رؤيا- ثم أقصها عليك؟ أترانى أجرمت؟؟».

قال وهو يصرف وجهه عنها: «دعى هذا الحديث السمج».

- «أتغار حتى من أضغاث الأحلام؟؟».

- «أغار؟؟ أنا؟؟ كيف؟؟ ليس فى هذا العالم إنسان يرجحنى.. إننى سيد الجميع دون منازع!! ومن أنت حتى أغار عليك؟؟».

حدجته بنظرات ناقمة وقالت: «تأبى إلا أن تملك عواطفى وهواجسى.. وهذيانى أثناء النوم.. إنه أمر فوق الطاقة..»

صاح فى غضب.

- «ماذا؟؟ أتتمردين يا صفية بنت حيى؟؟».

- «لا.. معذرة.. إن الإنسان لا حيلة له فيما يرى من أحلام..».

- «إذن فلا تسمعينى هذه السخافات».

- «لك ذلك..».

استبد به الضيق، وازداد الحنق، فعاد يقول: «إننى أعرف كل شىء.. أعرف ما يدور بخاطرك..».

- «أنت؟».

- «أجل. . أنا . . إن فراستى فوق ما تتصورين».

عاد أبوها فى اليوم التالى، كان على موعد مع كنانة وغيره من زعماء خيبر وبنى النضير وبنى قريظة وبنى قينقاع للتدارس فى أمر محمد، وألمت صفية بما يجرى من تدابير ومؤامرات، وآلمها أن يقع أبوها فى هذه الأخطاء التى ليس لها ما يبررها، ولم تقتنع بما يتداوله قومها اليهود من آراء وأحكام، وعندما انفردت بأبيها، همست قائلة: «أبت. . لست أدرى لماذا تثورون هذه الثورة، وتشغلون أنفسكم بتلك التدابير الخطرة. . لم لا تدعون محمداً وشأنه، وتنصرفون إلى النافع من الأمور. .».

ضحك أبوها فى حنان، وربت على كتفها فى ود وقال: «وهل هناك أهم من الدين حتى نشغل أنفسنا به؟؟».

- «لم أركم تهتمون بالدين فى يوم من الأيام كما تهتمون به الآن».

- «لأنه ظهر فى هذه الأيام عامل جديد. . كنا مشغولين بتجاراتنا وسلطاتنا. . كنا هانئين، بعد أن توطدت مراكزنا. واتسع مجدنا ونفوذنا. . لكن. .».

قالت صفية: «لكن ماذا يا أبت؟؟».

- «محمد، إنه يعرى سوءاتنا، ويسفه من أحلامنا، ويتهم كتبنا وأحبارنا.. والمضحك أنه يدعونا إلى دينه.. أتسمعين؟؟ النبى العربى الأمى، هذا الذى ما زالت قبيلته تعبد الأوثان.. يدعونا إلى دينه.. أليس ذلك أمرًا مضحكًا؟؟».

قالت صفية: «الله يصطفى رسله كيف شاء..».

شحب وجهه: «الله؟؟ أجل.. أجل.. لكننا معشر اليهود لسنا فى حاجة إلى رسل أو كتب.. عندنا رسلنا وكتبنا.. والآن دعى هذا الأمر، وحدثينى عن أحوالك وعن كنانة معك.. لا تثقلى رأسك بهذه الأمور الشاقة..».

أطرقت فى أسى وقالت: «لكنى خائفة يا أبى!!».

- «م؟».

- «إن كان محمد صادقًا فلن يضرنا صدقه، وإن كاذبًا فعليه كذبه..».

- «بل سيضرنا إن كان صادقًا أو كاذبًا..».

- «نفس كلمات كنانة زوجى..».

- «بالطبع.. نحن على وفاق تام فى الرأى.. إن زوجك ذو رأى حصيف..».

وصـمـتت صـفـيـة ، إنهـم يسـدون الطريق فى وجـهـهـا ، ويرفضون حتى مجرد الاستماع لرأيها حتى النهاية ، إنها امرأة لا أكـثـر ، لا تعـرف سـوى شـئـون الطهى والفـراش وإدارة البيت . .

وسـمـعت أباها يقـول : «لكن مـا هذه الكدمـة التى فى وجهك؟؟» .

عادت الإشراقة إلى وجهها ، وتضرجت وجنتاها بحمرة الخجل وتمتمت بصوت خفيض لا يكاد يسمع : «القمر القادم من يثرب . . » .

– «ماذا تقولين؟؟» .

– «لا شىء يا أبت . . لقـد انكفـأت على وجـهى حينمـا تعثرت قدمى إنها لا تؤلمنى . . » .

قال أبوها فى حنان : «إنها تزيدك فتنة وإشراقًا . . » .

❑❑❑

الفصل [٦]

لشد ما تغير وجه المدينة . . .

مئات من السنين مرت دون أن يحدث بها حدث ذو بال . . . وهل فى «يثرب» غير التجارة، واليهود، والصراعات المستمرة بين قبيلتى الأوس والخزرج؟؟ الفتن يؤججها اليهود، وأغلب الأموال فى أيديهم، حتى أماكن سكناهم أماكن محصنة مزودة بالماء، تجود بالزرع ذى المحصول الوفير . .

إن المدينة لا جديد فيها منذ سنين طويلة . لكن روحًا جديدة قد دبت فى أوصالها منذ جاء نبى الله .

قال «حيى بن أخطب الزعيم اليهودى الكبير» : «أيها اليهود، ما أرى إلا أن محمداً شأنه يرتفع، ولقد أصبحت له الغلبة علينا وعلى الناس جميعًا، والزمن سيكون فى صالح هذا النبى، لقد أتى إلى المدينة مهاجرًا طريدًا من مكة، ولقد استطاع بدهائه أن يضم إلى صفه الأوس والخزرج أكبر قبيلتين

فى المدينة، وأن يعقد معاهدة بينه وبين المشركين واليهود ضمن بها الأمن، ونظم حياة المدينة من الوجهة الإدارية والمالية والعلاقات العامة بين سكان المدينة أنفسهم، وبينهم وبين العرب خارج المدينة. . لقد أصبح الحاكم الفعلى أيها اليهود. . وأرى أن هذا الرجل سيجلب علينا عديداً من المشكلات، فدعوته ستنتشر، وأخاف أن يضطر العرب جميعًا على أن يدينوا بدينه. . ».

رد عليه كعب بن الأشرف أحد شعراء اليهود وذوى الكلمة منهم وقال: «إن قريشًا لن تتركه، لسوف تضربه ضربة قاصمة».

قال «حيى بن أخطب»: «ليت المنى تتحقق يا كعب».

- «يجب أن تقوم بدور حاسم فى المعركة».

- «وكيف وقد تعاهدنا معه على السلام، وسلمنا برئاسته على المدينة. . ».

- «هذا لا يمنع من أن نتحرك فى الخفاء يا حيى، إن ما ندبره من مؤامرات وخدع يحقق لنا ما يعجز السيف عن تحقيقه، نحن أهل فلسفة ودراية بالسياسة. . ولو انكشف أمر من أمورنا، لاضطر محمد إلى مداراتنا، فنحن حلفاء الأوس والخزرج فى الجاهلية وبيننا من العلاقات القديمة ما لا يستطيع

محمد أن يفصمه . . ونحن منتشرون فى كل مكان . . يهود خيبر . يهود بنىِ النضير . . يهود بنى القينقاع . . يهود بنى قريظة . . إننا لا نعرف مقدار ما تحت أيدينا من إمكانيات . . » .

ثم استطرد كعب بن الأشرف قائلاً : «وهناك رجلان إلى جوار محمد يجب أن نوجه إليهما اهتمامًا خاصًا وأعنى بهما أبا بكر وعمر بن الخطاب . . يجب أن ندرس المدخل إلى هذين الرجلين ، ونعرف كيف نفسد الطريق عليهما . . » .

- «أجل يا كعب ، وهناك زعيما الأوس والخزرج . . سعد ابن معاذ وسعد بن عبادة» ورد يهودى من عامة الشعب وقال : «إن رجال محمد كلهم على نسق يكاد يكون واحدًا ، حتى النساء يؤمن به إيمانًا قويًا لا يتزعزع . . فلماذا تتحدثان عن أبى بكر وعمر ، وزعيمى الأوس والخزرج ، ثم تهربان؟؟» لم يعلق كعب على حديثه ، بل عاد يقول : «وسلاحنا أيها الرجال المال والنساء والكلمة المسمومة . . » .

هز حيى بن أخطب رأسه قائلاً : «المال؟؟» .

- «أجل . . » .

- «والنساء؟؟» .

قال كعب : «أجل . . » .

- «أجل . . » .

تنهد حيى وقال : «والسيوف المشرعة- فقد تكون ملجأنا الأخير . . » .

وصاح رجل آخر من عامة اليهود : «يا معشر اليهود . . لماذا لم تتدارسوا كلمات محمد ، ألا يصح أن تكون دعوته حقًا ، وأنها امتداد لدعوة موسى؟؟ لقد علمنا أنه يؤمن بموسى وعيسى . . » .

وثب كعب بن الأشرف كمن لدغته حية ، وأرسل نظرات يتقد منها الشر وقال : «هذا أخطر ما فى الأمر يا معشر اليهود ، إنه يؤمن بموسى ، ولا يؤمن بالتوراة ، يزعم أننا عبثنا بها ، وزيفناها ، ويؤمن بعيسى ، ولا يؤمن بالإنجيل لنفس السبب . . كل شيء فى الكتب القديمة قد تناوله العبث والتزوير ، ولقد جاء يحمل القرآن الرسالة الأخيرة والتى تلائم كل زمان ومكان . . إننا يا معشر اليهود لم نأت هنا لنعيد النظر فى ديننا ، ونناقش دين محمد . . إن دينه مرفوض بالنسبة لنا مهما كان الأمر . . وإنما جئنا لنناقش وضعنا والحفاظ على ديننا وسيطرتنا وأموالنا وسلطاتنا القديمة فى هذه الديار . . » .

ثم صاح كعب بن الأشرف بأعلى صوته : «هل فيكم من يعتقد محمداً على حق؟؟» .

وصدرت عن الجميع غمغمة غير واضحة، وصاح كعب مرة أخرى: «أجيبونى..».

قال رجل من عامة اليهود: «ولم لا؟؟».

احتقن وجه كعب، ثم قال: «الحق هو ما فى كتبنا..».

وبعد فترة صمت استطرد قائلاً: «والله لئن فاتتكم الفرصة، وتركتم محمداً وشأنه، للحقتكم مسبة الأجيال وعار الأبد، ولو استطاع هذا الرجل أن يجمع العرب على دينه لما بقى لكم فى بلاد العرب مكان تهنئون فيه..».

وانبث اليهود فى كل مكان يشككون فى دين محمد، وينشرون الشائعات والأقاويل ويزيفون الحقائق من خلف الستار، ورسلهم تتوافد إلى قريش تكشف لها عن نوايا محمد وخططه ومدى تقدم دعوته، وخطورة كل ذلك على سلطان قريش وقوافلهم الذاهبة إلى الشام والتى تمر فى غدوها ورواحها بالمدينة التى يسيطر عليها محمد..

ويهمس عمر فى غيظ: «اليهود كالشوكة فى جنوبنا..».

فيرد أحد الصحابة: «إن بيننا وبينهم ميثاقًا يا عمر».

- «وأنا أحترم الميثاق، لكنهم يعبثون به، يؤرثون الأحقاد، ويحاربوننا بالكلمة المسمومة حربًا لا هوادة فيها، ويؤدون

لقريش دور الأذناب والجواسيس، ليتهم يرفعون السيوف فى وجوهنا صراحة. . لو فعلوا ذلك لهان الأمر. . ».

- «صبراً يا عمر. . يجب أن يكون نقضهم العهد واضحًا مكشوفًا حتى يمكن الإمساك بتلابيبهم، حتى نكسب عامة الناس إلى صفنا. . ».

ويثور عمر قائلاً: «لقد وضحت خياناتهم لكل ذى عينين، لو كان الأمر بيدى لبطشت بهم. . إننى أكره الغدر والخيانة فى كل صورهما. . ».

- «لهم يوم. . ».

- «لشد ما أخشى اليهود والمنافقين!! لسوف نخرج إلى قريش، ماذا لو طعننا اليهود من الخلف؟؟».

- «إن الرسول يا عمر سوف يترك بالمدينة عدداً من المسلمين لتجنب المفاجآت. . ».

- «ولم كل هذا التشتت. . إن بنى قينقاع يشكلون بداخل المدينة خطراً شديداً. . ».

كان عمر يعيش بكل وجدانه وقلبه مع الدعوة الإسلامية، يقضى أغلب وقته فى النهار وردحًا من الليل إلى جوار الرسول، يتدارس معه شئون المسلمين، وتحركات قريش،

ويشرب بين يديه كلمات الوحى الطاهرة، ويتساءل عمر فى عديد من المواقف، لِمَ لم ينزل الله آية يأمرنا فيها بالرد على خيانة اليهود والمنافقين؟؟

لماذا لم ينزل الله أمرًا شافيًا يتعلق بالخمر؟؟ لماذا؟ لماذا؟؟ تساؤلات كثيرة والرسول يبتسم ويجيب، فإذا ما جد حدث من الأحداث هتف بهم الرسول: أشيروا علىَّ، فينهض عمر مبديًا رأيه فى ثقة وإيمان لا يخشى فى الله لومة لائم، ويصبح عمر ذا مكانة عالية بالنسبة للرسول، بعد أن أصبح نموذجًا رائعًا لرجل المبدأ الذى يحيا به، ويتحرك فى ظله، ويمضى تحت دوافعه المثلى، ويضع كل وقته وعمله وقوله، وإمكانياته تحت تصرف العقيدة الكبرى التى آمن بها، وفى إبان انشغاله وتفاعله بدعوته سمع نداءً رقيقًا ينبعث من خلفه فى الظلام.

- «ارفق بنفسك يا ابن الخطاب».

- «من؟؟».

- «ألا تعرفنى؟؟».

- «اليهودية؟؟».

- «ويحك!! دائمًا تذكرنى بهذا الاسم المعيب.. وما ذنبى إذا كان أبواى يهوديين!! ألسنا بشرًا؟؟ حتى اليهود أنفسهم يسموننى اليهودية.. لقد نسى الجميع اسمى القديم».

- «ماذا تريدين؟؟».

اقتربت منه، وهمت بالإمساك بيده، لكنه تراجع قائلاً: «إننى متوضئ».

- «ويدى طاهرة..».

قال عمر: «ماذا تريدين؟؟».

- «سمعت أن امرأة رفضت الزواج منك لخشونتك وغلظتك».

- «وما شأنك أنت؟؟».

- «أنت تعلم كم أحب خشونتك وغلظتك..».

وذهلت المرأة، حينما هوت على كتفها عصا عمر وهو يهدر: «لقد مضى زمن الجاهلية يا حمقاء..»..

وأجهشت المرأة بالبكاء وهى تقول: «هل من الشجاعة أن تضرب امرأة ضعيفة مثلى جاءت تستنجد بك؟؟».

- «تستنجدين بى؟؟».

- «أجل..».

- «لكنك تهذين بكلمات سمجة، أشم منها رائحة الفجور».

- «إنه مجرد مدخل للحديث يا عمر . . » .

هز عمر رأسه قائلاً : «إذن فأتبعيني إلى منزلي» .

- «وزوجاتك؟؟» .

- «وما شأن زوجاتي بهذا الأمر؟ أليس لديك قضية لأنظر فيها؟؟» .

- «لكن من الأفضل أن يكون ذلك في بيتي . . » .

- «حسن لسوف أمر عليك في الغد . . » كان متعجلاً مشغول الذهن، لهذا تركها ومضى في طريقه، وسرعان ما نسي ما حدث، لقد عاد إلى ذهنه ذلك الأمر الشاغل الذي كان يحادث فيه الرسول منذ ساعة، إن قافلة أبي سفيان عائدة من الشام، وعليها البضائع الوفيرة، إنها قافلة قريش التي ألجأتهم للهجرة، وحرمتهم من الوطن والأهل والأحباب واستولت على ممتلكاتهم وصادرتها، ولولا أن أفسح الأنصار من أهل المدينة لهم في بيوتهم ومالهم لماتوا جوعًا . . لقد حان الوقت لكي يسترد الرسول والمسلمون بعض حقوقهم المغتصبة . .

بلغ عمر منزله وهو شارد يفكر، وتناول تمرات قليلة، وسطلاً من لبن، وانتحى جانبًا، واتخذ مجلسه صامتًا، وقرأت حفصة في وجهه ما يصطرع في عقله من تيارات، قالت حفصة : «إن أمرًا ذا بال يشغلك يا أبي» .

- «لأنى أفكر فى كل أمر بحدة واستغراق . . » .

- «حتى وإن صغر؟؟» .

- «وإن صغر يا حفصة . . إن كل أمر يخص المسلمين سواء أكان صغيراً أم كبيراً فهو يشغلنى . . أو بالأحرى ليس هناك شىء صغير بالنسبة لدين الله . . » .

ابتسمت حفصة وقالت : «إن الله سبحانه قد قسم أخطاء العباد إلى صغائر وكبائر . . » .

- «تلك أخطاء العباد . . لكن حقوق الدعوة والمسلمين تبدو كلها فى نظرى أشياء كبيرة . . » .

- «أنت لست حاكمًا عامًا حتى تحس بهذه المسئولية الضخمة يا أبى . . » .

قال عمر : «إننى إلى جوار الرسول أشعر كأنى عضو من أعضائه . . وأشعر أن الأعباء التى تثقل على كاهله تثقل على كاهلى -أنا الآخر- الآيات التى تهبط عليه يخيل إلىّ أنها تهبط علىّ . . والنبى ﷺ يشعرنا أننا معه وحدة واحدة . . نشعر بما يشعر به من أعباء ومسئوليات إذا مسه حزن ران علينا أسى عميق ، وإن انتابه غضبة جرت الدماء ساخنة فى عروقنا ، وإن استولى عليه تفكير بالنسبة لموضوع معين حامت حوله عقولنا . . لك الله يا رسول الله . . إن الحب الذى يربطنا به

عاطفة إلهية. . من صنع الله يا حفصة. . لم نجتمع حوله من أجل مال أو مجد دنيوى. . آمنا به، ومضينا خلفه فى أحرج ساعات الاضطهاد والعذاب والعسرة. . لقد عرفنا الطريق إلى الله، فسرنا فيه ونحن على استعداد للتضحية بالمال والنفس والحياة كلها. . ».

وسادت فترة صمت قال عمر بعدها: «كنت فى الزمن القديم يشغلنى أمر الحياة والموت. . كنت أعشق الحياة، وترتعد فرائصى من ذكر الموت، لشد ما كان يحزننى أن تؤول الحياة إلى حفرة ضيقة مقيتة حيث التراب والعفن والظلام والفناء. . أما الآن. . آه. . ويحك يا عمر. . لشد ما أتشوق إلى لقاء الله شهيدًا. . لم أعد أخاف الحفرة المظلمة الضيقة. . الموت انتقال من عالم إلى آخر. . إن ما أخافه ألا تكون الجنة من نصيبى. . كيف ألقى الله، وقد لحقت بى الذنوب والآثام. . لم تعد هناك رهبة من الموت لأنه الموت، بل خوفًا من لقاء الله إذا ما قصرت الأعمال، وأربت الآثام يا حفصة. . ».

قالت حفصة فى دهشة: «عن أية آثام وذنوب تتحدث؟؟».

- «أخاف أن تشوب أعمالى شائبة رياء أو نفاق. . ».

- «وقاك الله يا أبى شرهما . . ».

وصمت عمر برهة، ثم عاد يقول: «فى غضون الأيام القليلة المقبلة سوف أخرج مجاهداً فى سبيل الله وقد حان الوقت للجهاد يا حفصة . . فإن عاد أبوك شهيداً فزغردى واملئى الآفاق شكراً وحمداً لله . . إن الشهادة أروع شىء فى الوجود . . وإن عدت حيًا فلن يكون هناك اعتراض على مشيئة الله . . ما أروع الموت يا حفصة بين يدى الرسول!! أجل . . ما أروعه!!».

وتندت عيناها بالدموع . .

□□□

الفصل [٧]

أجهشت بالبكاء، وارتمت على قدمى عمر تقبلهما، ثم أمسكت بيمينه تمرغها فى دموعها ثم تشبثت بساعديه المفتولين، وهى تقول: «أغثنى.. أغثنى يا عمر..» حتى كاد جسدها يلتصق بجسده، وكانت قد لبست ثوبًا فضفاضًا يكشف عن نحرها الغض، ودفعها عمر عنه فى عنف وهو يقول: «إليك عنى أيتها اليهودية الفاجرة، ما كان يصح أن تلقينى بهذه الثياب، وما تفعلينه الآن ليس إلا وسيلة فاشلة لعرض الشكوى..».

قالت والدموع تترقرق فى عينيها: «لم أفعل ما يوجب غضبك يا عمر..».

- «إن الدموع لا ترد حقًا يا امرأة.. والكشف عن نحرك لا يجعل القاضى ينطق بالحكم فى صالحك.. إذا لم ترتدى ثيابًا ضافية، وتجلسى هادئة لتروى كل شىء بهدوء فسوف أنصرف عاجلاً عن بيتك..».

قالت اليهودية، وهى تلم شتات نفسها: «السوف أفعل ما تأمرنى به، وسأعود بعد لحظات..».

وغابت المرأة داخل البيت، وقصدت حجرة مظلمة تتوارى فى ركن قصى من البيت، كان بداخلها مجموعة من الرجال، وصاح أحدهم بصوت أجش: «ماذا فعلتِ؟؟».

- «إنه يأبى إلا أن أقابله محتشمة هادئة..».

قال كعب بن الأشرف وكان حاضراً: «يجب أن تقتنعوا بخطتى أيها الرجال، لننقض على عمر بسيوفنا ونمزقه إربًا إربًا، هذه فرصة لن تعوض..».

قال حيى بن أخطب: «لسوف تثور ثائرة المسلمين بالمدينة، ولن يتركنا محمد أحياء بعدها..».

- «لسوف يكون لدينا سبب قوى لقتله..».

- «أى سبب يا كعب؟؟».

- «سنعلن على الملأ أنه كان يضاجع امرأة من اليهود، وعند ذلك سيرى الناس أننا كنا فى حالة دفاع عن العرض والشرف، وهذه مسألة لها حساسية شديدة بين العرب.. لسوف نعرى المرأة عن ثيابها وسنملأ الدنيا صياحًا، ولا بأس من أن يرى الناس عمر مضرجًا فى دمائه، والمرأة غارقة فى

عـارها . . وسيسخر الناس من ادعاء المسلمين الطهارة والعفة».

وابتلع كعب ريقه قائلاً : «ولم لا نجعل أختنا اليهودية تعلن أنها هى التى قتلت عمر لأنه داهمها فى عقر بيتها ، وأراد إرغامها على الإثم . . ».

قال حيى بن أخطب : «وهل يصدق الناس هذه المؤامرة المحبوكة؟» .

- «ولم لا؟؟؟» .

- «إن ذكاء محمد ونظرته الثاقبة كفيلتان بأن يغوصا إلى أعماق تدبيرنا وتآمرنا . . » .

قال كعب غاضبًا : «ما دمتم تفكرون بهذه الطريقة ، على هذا النمط من الجبن ، فلن نستطيع أن نحقق أى نصر ضد محمد أو كبار رجاله . . » .

- «إذا حطمتم الرأس انتهى كل شىء ، لسوف نقضى على الخطر فى مهده وقبل أن يستفحل ، ها أنتم هؤلاء ترون أن الحيل قد أعيتنا ، ولا ندرى كيف نحسم الأمر على وجه مرض ، إن الجبن والتردد هما الرذيلتان اللتان تقفان فى وجه رجالنا . . إننا أيها الرجال فى حاجة ماسة إلى مغامرة سريعة قوية تحقق ما نريد ، أما هذا التقاعس فسوف يجر علينا

الوبال . . إن عدد المؤمنين بمحمد يزداد يومًا بعد يوم ، والوحى يترى عليه مؤكدًا نبوته ، وموضحًا أهداف رسالته ، وكلما مر الوقت ازداد الحاجز الذى يفصل بيننا وبينه سمكًا وارتفاعًا ، وسيأتى يوم نعجز فيه عن اختراق ذلك الحاجز . .

قالت اليهودية فى صبر نافذ : «أنتم تحيروننى . . أنتم لا تدرون ماذا تفعلون . . » .

قال كعب فى ضيق : «اذهبى إليه مرة أخرى . . يجب أن يسقط ، هذه بداية الطريق . . » .

- «سقوطه أمر عسير المنال . . » .

- «إنك لم تقضى معه سوى لحظات . . » .

- «إننى خبيرة بالرجال ، وأعرف طبائعهم لأول وهلة . . » .

- «إن المثابرة والإلحاح يا امرأة قد تؤديان إلى نتيجة مرضية . . » .

أطرقت اليهودية مفكرة ، وهدرت حانقة : «إنه متماسك الأعصاب ، ينظر إلىّ من عينين صارمتين لا يشوب نظراته ارتباك أو ارتجاف ، هامته سامقة لا يطأطئها . . ينبعث من وجهه ولحيته هيبة تملؤنى بالخجل والتضاؤل . . إنه امتحان رهيب . . صدقونى . . » .

صاح كعب محتداً : «اذهبى إليه . . وارتدى الثياب الضافية ، واعتصمى بالحشمة والوقار ، فقد يكون ذلك أكثر إثارة ، وأعمق أثراً . . فالحجاب قد يكون أكثر فعالية وإثارة من السفور لدى بعض الناس . . جربى معه يا امرأة كل شىء . . أين خبراتك وحصيلتك الضخمة من الحوادث فى معاملة الرجال؟؟ إنك تقومين بأضخم عمل فى حياتك كلها ، وتقدمين للملة اليهودية أكبر تضحية تقدمها امرأة . . إن وسائلنا فى الحرب يجب أن تكون متنوعة ، إن قلة عددنا وضعفنا يلزماننا بالصبر والروية فعلاً ، ويأخذان بأيدينا إلى أساليب شتى فى تلك المعارك الحاسمة . . والنصر لنا . . » .

أعطته المرأة ظهرها ، ومضت إلى عمر ، وأخذت تعتذر له عن تبرجها ، وتؤكد له أنه شىء غير مقصود ، وأنه سلوك قديم درجت عليه ، ولشد ما سرها أن يزجرها عمر ، ويرشدها إلى السلوك الطيب ، فهى تقبل كلماته فى سعادة ، وتعتبر نصحه أمراً ، وهى تطرب لهذه الغلظة المحببة إلى نفسها ، مؤكدة أن الرجال لا يكونون رجالاً إلا بالحزم والإباء وعدم الميوعة ، وأنها منذ رأت عمر وهى تحتفظ له فى قلبها بأرق المشاعر وأعظم آيات الحب والتقدير ، وهى لا تقصد من وراء ذلك سوءاً أو شراً ، إذ يكفيها أن تسعد بهذا الشعور ، وأن تجلس

وحدها تجتره وتنعم به . . وأخيراً قال عمر : «تكلمت كثيراً عن أشياء جانبية لا تمت إلى شكواك بصلة» .

- «هل تبرمت بمجلسى وحديثى؟» .

قال عمر فى صراحة جارحة كشفت عما يعتمل فى ذهنه وقلبه : «يقول نبينا صلوات الله وسلامه عليه : ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما ، وأنا لا أتمنى أن تطول جلستى مع الشيطان . . أتفهمين؟؟» .

- «ماذا تعنى؟؟» .

- «اعرضى شكواك فى إيجاز وسرعة . . » .

قالت المرأة ، وقد بان الغضب فى عينيها ، فزادها فتنة وإثارة : «استولى كعب بن الأشرف على كل مالى . . » .

- «هذه قضية تخص يهودية ويهوديًا ، فاذهبى إلى كبيركم . . » .

- «كبيرنا ينحاز إلى الأقوياء ، ويهمل الضعفاء ، وأنا امرأة . . » .

- «إننى أحترم النظام ، والمعاهدة التى أبرمت بيننا وبينكم لا تعطينى حق التدخل فى أمر خاص يتعلق بيهودى ويهودية . . » .

قال المرأة: «لكنه..».

قاطعها عمر قائلاً: «إننى أشم رائحة مؤامرة غادرة..».

- «عمر..».

- «اصمتى.. لو اجتمعت نساء اليهود ونساء بنى الأصفر.. بل نساء الدنيا جميعًا لما استطعن أن يعدن بعمر إلى جاهليته..».

صاحت وهى تقترب منه: «عمر.. إنك تهول الأمر وتخضع لتصورات جامحة لا حقيقة لها..».

- «حسنًا.. قد أكون مخطئًا فى تصورى..».

- «إننى أحترمك وأحبك..».

- «إننى أنظر إلى المرأة على أنها زوجة.. أو أم أو أخت أو ابنة..».

قالت المرأة فى سرعة: «أو صديقة..».

- «هذا تعبير سخيف، يحمل فى طياته العبث، وتسمية الأشياء بغير أسمائها.. وهيهات أن ينساق عمر إلى مزالق المجون والعبث..».

- «أليس فى دينكم مكان للصداقة والحب؟؟».

- «ديننا كله حب وأخوة . . » .

- «وأين مكانى إذن؟؟» .

- «فى حانة من الحانات ، أو ركن قذر من المواخير الداعرة . . » .

- «ماذا؟؟» .

- «لقد جئت لأنظر فى قضية ، ولم أجئ طالب متعة . . لو عشت لكن لعلمتكن كيف يكون الأدب . . » .

وانتزع نفسه من بيتها ، وانصرف إلى الطريق العام ، ونسمة رخية تلامس جبينه المبلل بالعرق فتهدئ من انفعاله ، وترطب من احتقان وجهه ، وتعيد السكينة والهدوء إلى نفسه ، ما أكثر ما تتزيا الشياطين فى زى امرأة . لكن لماذا يستطرد فى تفكيره؟

إنه امتحان صغير وانتهى بنجاح . . وغداً . . آه . . غداً يخرج المسلمون إلى عرض الصحراء للقاء قريش ، وقريش لها من القوة والمال والرجال والخيل ما يبث الرعب فى قلوب أعدائها . . هذا هو الامتحان العسير الرهيب . . يجب أن يسترد المستضعفون حقوقهم ، ويجب أن يفتحوا الطريق أمام البشر ليروا النور الحقيقى . . نور الله . . الحق واضح لا لبس فيه ولا غموض ، والباطل يبدو بوجهه الكالح لكل ذى

عـينين، والاخـتـيـار فى الحـقـيـقـة سـهل . . لكـن دون ذلك صـحارى من الخـوف والجـمـود . . الناس يخـافـون الأقـوياء، ويرهبون الجديد، ويتشبثون دائماً بالعتيق البالى . . بما درجوا عليـه من حـمـاقـة وغـرور وزيف . . لولا الخـوف لما بقى بنو إسـرائيل ينظرون إلى فـرعـون يذبح أبناءهم ويسـتـحـيى نسـاءهم . . ألم يكن فى إمكان واحـد منهم أن يشـرع سـيـفـه وينقض على فرعون ليريح قومه من بلائه؟؟ لكنها إرادة الله . آمنت بالله .

□□□

الفصل [٨]

الفيافى الشاسعة المترامية الأطراف، والتلال والوهاد التى تضم بين جوانحها أسراراً رهيبة، وصمتًا أزليًا عميق المعانى، وثلاثمائة وخمسة عشر رجلاً، يشقون حلكة الظلام، ويحثون الخطى إلى مكان يدعى «بدر».

إن فى هذا التحرك خطورة كبرى.. محمد على رأس الزحف الصامد.. خلاصة المؤمنين بالله، يحملون أرواحهم على أكفهم، وقد أقبلت قريش بقيادة «أبى جهل» فى عدد من الرجال والفرسان يقترب من الألف، مجهزين بالعدة والخيول والزاد.. استعدادات كاملة..

ويمضى عمر فى الطريق إلى جوار الرسول، يمد بصره إلى الآفاق البعيدة؟ ويرفعه إلى السماء، ويتلقف كلمات الرسول فى شوق. والرسول يبسط الرأى ويطلب المشورة، إن قريشًا قد استولت على مقدراتهم، وأخذت أموالهم، واعترضت طريق دعوتهم، والمسلمون لا يبغون سوى أن ينالوا العوض

عن أموالهم وأملاكهم ويكون لهم حرية الكلمة . . والدعوة إلى الله ، لكن قريشًا قد خرجت لتضرب المسلمين فى الصميم ، وتقضى على دعوتهم ، إذ لا يحق للمهاجرين أن يطلبوا أموالهم أو يفتحوا الطريق أمام دعوتهم . .

ترى ماذا يحدث لو دارت الدائرة على المسلمين؟؟ لسوف يتخطفهم الأعداء من كل جانب ، ولسوف يقيم اليهود الأعراس ويدقون الطبول ، ولسوف ينحر المشركون الجزر ويشربون الخمر ، ويغنون ويمرحون ، ويمضى الطغيان فى طريقه ، فالأقوياء يستذلون الضعفاء ، والعبيد يظلون فى قيود العسف والهوان ، ويبقى الانحراف هو القانون الطبيعى السائد . . وتدور هذه الأفكار فى رأس عمر ، فيناجى نفسه قائلاً : «كلا . . إن الله معنا . . وقد وعدنا بالنصر . . إننا نعرف ماذا نريد ، وماذا نفعل ومن أجل أى هدف سام نشرع السيوف . . إنه مهما قل عددنا ، فلن نرضخ للطغيان ، ولن نحنى الرءوس أمام طوفان الشر . . ما أشرف أن نموت من أجل إحقاق الحق ، ونصرة الخير والحب والسلام بين بنى البشر ! ! ومتى كانت القلة أو الكثرة هى المعيار الحقيقى للقوة؟؟ ومتى كان تدفق الشر وتضخمه إيذانًا باستسلام القوى الخيرة أو فنائها؟؟ كان الشر دائمًا أقوى فى كل العصور . . ولعل السبب الرئيسى فى احتدام المعارك هو انتقاض القوى

الخيرة لحماية كرامة الإنسان وشرفه أمام تشبث الطغيان وجبروته، ورفضه لمنطق العدل والحرية. . إن إيمانى بالله لا يتزعزع ولقد كنت مخلصًا حينما أشرت على الرسول بالمضى فى الطريق، وتقبل التضحية مهما كلفتنا من ثمن. . ».

وحطوا الرحال. .

وصاح عمر. . «إلينا أيها المسلمون. . . أيها المهاجرون والأنصار. . أشيروا على رسول الله. . إنه يطرح القضية المهمة للرأى والمشورة. . فماذا أنتم قائلون؟؟».

تجمع الرجال حول الرسول، وجلسوا يستمعون إلى كلماته الهادئة، وشرحه الوافى لم يخف عنهم شيئًا، بسط لهم الموقف بكل ما يكتنفه من مخاطر وتضحيات، وبين لهم أن قريشًا قد أجمعت أمرها، وحشدت قواتها لسحقهم، وهنا قام رجل من أصحاب الرسول وقال: «يا رسول الله. . امضِ لما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون. . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا. . إنا معكما مقاتلون. . فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى «برك الغماد» لجالدنا معك من دونه، حتى تبلغه. . ».

دق قلب عمر من الفرح، وأشرق قلبه بالبهجة والإيمان، مثل هؤلاء الرجال لا يهزمون عن قلة، إن واحداً منهم يستطيع أن يهزم عشرة رجال.. بل أكثر.. أجل.. لقد أخلصوا نفوسهم لله، فطلقوا الخوف، ومن ثم فقد تلاشى الحاجز الرهيب الذى يعوق الانطلاقة الجبارة نحو النصر والمجد..

وقام رجل من الأنصار، وقد كان الرسول شغوفًا بسماع رأيهم أيضًا، فهم الفئة التى بايعت الرسول من قبل، وهم الذين آووه ونصروه، وآمنوا بدعوته أعمق الإيمان، ومن ثم كان لرأيهم وزن أى وزن، قال كبير الأنصار سعد بن معاذ: «يا رسول الله.. لقد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض لما أردت، فنحن معك فوالذى بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، وما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر فى الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله..».

يا لها من كلمة رائعة «سر بنا على بركة الله»، كان لها فعل السحر فى قلوب المؤمنين، لقد شعر عمر آنذاك، أن هناك قوى كبرى تزود هذه القلة من الرجال بجهود خارقة، وعزيمة لا تهن، وزاد لا ينفد، فأية قوة فى الأرض تستطيع بعد ذلك

أن تنال من هذا الإيمـــان، أو تـدخـل الـروع إلى قلوب رجاله؟؟

من جهـة أخرى، فقد علم اليهود، بالحشـد الذى أعدته قريش، ووافتـهم الأنباء بأن معـركة حـاسمـة على وشك أن تنشب بين المسلمين والمشركين، ولم يخف عليهم مدى القوة الضاربة المتفوقة التى جمعتها قريش..

وفى اجتماع سرى لهم بالمدينة، فى منطقة تجمع يهود بنى القينقاع قال كعب بن الأشرف فى شماتة: «هذا يوم فاصل يا معشر اليهود، فأنا على يقين من أن قريشًا سوف تبدد شمل المسلمين، وتقتل محمدًا، وتقضى على الأسطورة الخارقة التى سار بها الركبان فى كل مكان، تصوروا أن المسلمين ليس لديهم سوى فرسين اثنين، وأن قريشًا لديها مائتا فرس.. لقد كنا نفكر فى قتل محمد وعمر وأبى بكر، وغيرهم من كبار رجالهم.. وها هى الأقدار تدفع بالمسلمين إلى حتفهم، لسـوف يأتى الخلاص على يد غيرنا، وسنقتطف نحن الثمرة.؟».

قال حيى بن أخطب: «على رسلك يا كعب.. إنك تلف وتدور حـول احـتـمـال واحـد لا ثانى له، ألا وهو هزيمـة المسلمين».

- «وهل هناك احتمال آخر؟؟».

- «النصر؟؟».

- «كيف؟؟ هل أصابك الخوف يا حيى بن أخطب؟؟».

- «القلة العددية يا كعب سوف تدعو المسلمين إلى مزيد من الحرص..».

- «لن يرد الحرص عنهم الهزيمة، فالحرص الحقيقى هو ألا يخرجوا إلى معركة ميئوس منها».

فمضى حيى بن أخطب فى كلامه قائلاً: «ومحمد ورجاله يزنون الأمور بميزان دقيق، ويحسنون التفكير إلى أبعد مدى» قال كعب ثائراً: «إننى أرفض منطقك، أن المسلمين قد أصابهم الغرور، وجرهم هوس الجنة والاستشهاد إلى الهاوية، والحرب سيوف وفرسان وحشد كبير وقلب شجاع..».

- «وعقيدة راسخة، وفكر مرن ثاقب..».

- «لكأنك تريد أن تبرهن على أن المسلمين سينتصرون..».

- «لا أقصد ذلك بالضبط، ولكن تصورك القائم على حتمية انتصار قريش وهزيمة محمد تصور يحتاج إلى نظر..».

وانتصب كعب بن الأشرف واقفًا وقال: «يا حيى بن أخطب.. إن ما أقصده من كلامى هو أن هزيمة المسلمين شبه مؤكدة، وأن علينا معشر اليهود أن ننقض على المدينة فى غفلة من أهلها، وفى غياب محمد وصحبه من المهاجرين والأنصار ثم نستولى عليها، وبذلك يتم القضاء على المسلمين فى «بدر» فإذا ما فروا من المعركة عادوا ليجدوا المدينة قد سقطت فى أيدينا، ولسوف تسرع قريش لمشاركتنا فى اجتناء ثمار النصر، وسيحمدون لنا أننا قد ضربنا القاعدة الأمينة التى يأوى إليها محمد..».

احتقن وجه حيى بن أخطب وقال: «أنا أحرص على أمن اليهود ومستقبلهم منك، كما أننى أشد شوقًا إلى تدمير قوة المسلمين والقضاء عليهم، لكن لماذا لا نأخذ فى الاعتبار كل ما يمكن أن يحدث؟؟ إن لدينا أطفالاً ونساءً وشيوخًا وأموالاً ونفوذًا فى هذه الديار، ويجب أن ندبر أمورنا فى حذر وروية، ولا يصح أن نتعجل النصر على محمد ورجاله فإن أية سقطة قد تكلفنا مستقبلنا كله، ثم إن محمدًا لم يترك المدينة خالية من الرجال، لقد ترك الكثيرين من حملة السلاح كى يحموا المدينة من أية غدرة مفاجئة..».

فصاح كعب بن الأشرف فى ضيق: «إننى أرفض السير فى ركبكم المتخاذل..».

وتركهم وخرج حانقًا مشمئزًا، وران الصمت على الجميع، وجفف حيى بن أخطب عرقه وقال: «يا معشر اليهود، إن النصر مع الصبر.. وقيادة محمد الحكيمة تجعله - برغم قلة رجاله- أكثر تنظيمًا، وأدق حركة من قريش.. لقد علمت أن بنى زهرة رفضوا أن يحاربوا محمدًا إلا إذا بدأهم بعدوان.. ثم انسحبوا.. إن المعركة دائرة الآن، ولا ندرى على من تدور الدائرة..».

وقام شاب يهودى وقال: «ألا ترى أنه لو انتصر محمد، فسنكون فى وضع حرج.. إن عامل الزمن يكاد يكون فى صالح المسلمين».

قال حيى بن أخطب: «إننا مضطرون على أن ننتظر، وحتى ولو انتصر محمد، فإن قريشًا لن تنسى ثأرها، وستعيد حشد قواتها، ففى إمكانها أن تعد جيشًا كاملاً من بضعة آلاف، بل إن انتصار محمد فى بدر قد يحمل فى طياته خطورة أشد على مستقبل الإسلام والمسلمين.. فالصبر.. الصبر..».

كان رأس كعب بن الأشرف على وشك أن ينفجر مما ألم به من حقد وغيظ، فمضى فى طريقه يشق الظلام إلى بيت اليهودية التى حاولت من قبل الإيقاع بعمر بن الخطاب، وعندما التقى بها قالت: «ما الذى أتى بك الآن؟ ؟».

قال وهو يربت على شعرها الناعم: «حبب إلىّ من الدنيا الخمر والمال والنساء..».

- «أحكيم وشاعر يا لسان بنى إسرائيل؟؟».

- «ما أضعف الكلمات فى مضمار تحقيق الآمال..».

- «ماذا جرى؟؟ إن حكمتك الليلة ممتزجة بالحزن العميق..».

- «إن ذكر اسم محمد يثير ثائرتى، لكم تمنيت أن تشتعل المدينة ناراً فتأتى على الأخضر واليابس، وتأكل محمداً وأتباعه..».

قالت المرأة: «النار لا تشتعل وحدها يا كعب؟؟».

- «حيى بن أخطب يرفض أن يشعلها الآن».

- «ولماذا لا تشعلها أنت ؟؟».

- «سؤال محرج يا امرأة.. ومع ذلك فالفتنة التى يراد إشعالها ضد محمد لا يمكن أن يؤججها كعب وحده، يجب أن يشعلها عديد من الرجال.. حتى تمتد من جميع الأطراف وتحاصر الوباء الإسلامى.. وحيى بن أخطب يقف عقبة كأداء فى وجه رغبتى.. إنه أشدنا حقداً على المسلمين.. لكنه رعديد..».

قالت المرأة: «إنه يبدو أكثرنا حقداً، فكيف يفعل ذلك؟؟».

- «يعتصم بالروية والحكمة والتدبير. وقد يكون في حرصه هذا مهلكة لنا جميعًا.. ومع ذلك فسأمضي في طريقي.. أريد بعض الزاد لأقوى على تحمل المسير العنيد..».

- «أي زاد يا كعب؟».

- «كأسًا من خمر، وكأسًا من شفتيك.. وغيبوبة كاملة في عالم الشوق والضياع واللذة..».

- «كلماتك أيها الشاعر الماجن تخدر أعصابي..».

- «فلنترك اليهود في اجتماعهم السري.. ولنفرغ الكأس حتى الثمالة.. لسوف أفكر وحدي منذ اليوم..».

- «وأنا..».

- «أنت الزاد يا طعامي الشهي..».

قضى كعب ليلة عربيدة بين ذراعي إثم حارق، ثم ارتمى في آخر الليل مستسلمًا لسبات عميق، ولم يعد يشعر بشيء مما حوله، ولم يفق بعد ساعات إلا على يد تهزه في عنف، ففتح عينيه في تثاقل: «ما هذا الإزعاج يا امرأة؟؟».

- «لقد ضعنا..».

كان صداع الخمر يؤلم رأسه، فرشقها بنظرة حمراء مرتجفة وقال: «ماذا هناك؟؟».

- «تنام والأنباء تتوالى؟؟».

- «لم هذا الاضطراب؟؟ ماذا وراءك؟؟».

- «لقد انتصر محمد!!».

وهب واقفًا، وقد شحب وجهه: «ماذا؟؟».

- «وفر من بقى من قريش يطلب النجاة، قتل سبعين من كبار رجالات قريش، وعلى رأسهم أبو جهل، وساق سبعين من الأسرى.. لقد اكتست المدينة بلباس الفرح، والهتافات والتكبيرات تشق عنان السماء.. ألا تسمع؟؟».

تمتم كعب: «يا له من يوم أسود مشئوم..».

ودارت الذكريات في ذهنه، اجتماع الأمس، وكلمات حيي بن أخطب، وتبجح اليهود بالمدينة وكشفهم عن نواياهم، وإشاعتهم أن قريشًا سوف تقضي على المسلمين، والشماتة التي تجلت في كلماتهم، وتصريحهم بميلهم نحو قريش، وخيانتهم للعهد، وكشفهم عن عورات المدينة للأعداء.

وأخذ كعب يرتدي ملابسه في عجلة ملفتة للنظر.

قالت المرأة: «ماذا جرى لك؟؟».

- «السوف أغادر المدينة الآن».

- «ولِمَ ؟؟ أتخاف محمدًا؟؟ إنك لم ترتكب إثمًا ظاهرًا..».

قال كعب: «إننى لا أطيق سماع تلك الهتافات والتكبيرات.. إن مظاهر الفرح والابتهاج بانتصار المسلمين تكاد تورثنى الجنون.. وكيف أقوى على رؤية محمد وهو يعود إلى المدينة منتصرًا، يحيط به رجاله الأقوياء.. المنتصرون؟ كيف أرى هذا المشهد المثير؟؟ اللعنة على الأقدار.. تعسًا لكم أبناء اليهود، لسوف تذوقون الوبال والنكال.. لسوف أفر إلى مكة.. سأعد القصائد أرثى بها صرعى بدر، سأثير مشاعر الثأر فى قلب قريش.. سأؤجج النار وحدى يا امرأة.. سأشعلها حتى تأتى على الأخضر واليابس، وعند ذلك نجلس أنا وأنت على أطلالها نغنى ونشرب ونقضى الليل عناقًا وأشواقًا..».

وصمت برهة، ثم عاد يقول: «ولن أعود من مكة إلا فى صحبة جيش يعد بالآلاف، وسأمشى بين القبائل أستثيرهم وأدعوهم لحرب محمد.. وسأجلب عليه العار والشنار،

وأشبب بنسائه، وأختلق الأكاذيب والقصص، وألوث ثوبه الأبيض. . لن أهادنه ما دام فى أحشائى قلب ينبض. . ».

وابتلع ريقه ثم عاد يقول : «إذا دخل المدينة موكب المنتصرين فاحثوا فى وجوههم التراب، ثم استديروا وابصقوا على وجه حيى بن أخطب، ذلك المأفون الذى أبى أن ينقض على المدينة فى غفلة من أهلها وفى غياب الرسول. . ».

□□□

الفصل [٩]

امتطى كعب صهوة جواده، وطار صوب مكة وهو يقول بعد أن سمع بمقتل سادات قريش وكبرائها: «هؤلاء أشراف العرب، وملوك الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظاهرها».

ولم ير موكب المنتصرين يدخل المدينة، ولم يسمع هدير التكبير يشق عنانا السماء، ولم تكتحل عيناه بالأعداد الغفيرة من المشركين الذين توافدوا على الرسول، يعلنون إسلامهم ويبايعونه على المنشط والمكره، وعاد اليهود إلى جحورهم يلوكون الحقد، ويجترون الأسى والجزع، وعاد عمر إلى بيته، وشفتاه لا تكفان عن التمتمة تسبيحًا لله وشكرًا له، وتلفت حواليه قائلاً: «أين حفصة؟؟».

قالت زوجه: «ماذا جرى لك؟؟ إنها عند زوجها.. عند رسول الله».

لقد تزوجت حفصة من الرسول، لشد ما ازداد عمر تعلقًا بابنته، ورفقًا بها، ولشد ما يتشوق إليها وإلى حديثها العذب، لكن لا بأس من ذلك كله، فإن زواجها من الرسول قد صادف فى نفسه هوى، وأثلج قلبه، وجعله يشعر بالفخر والسعادة الكبرى.

وجلس عمر يتذكر ما كان من شأن المسلمين وجهادهم الشاق ضد قوى قريش وعنجهيتها، يتذكر المعركة الخالدة التى لا تنسى، ويتذكر الصبيين المسلمين اللذين قتلا أبا جهل إبان احتدام المعركة، ويتذكر كيف كان الرسول ينظم الصفوف، ويرسم الخطة، ويشرح لكل واحد دوره..

وغمغم عمر: «آه.. كان يومًا مشهوداً.. رايتان سوداوان تخفقان فى سماء بدر، وكانت الراية البيضاء.. الرئيسية.. تتماوج مع الهواء فى إباء وشمم.. والحرب محتدمة الأوار، يا زوجتى.. والرسول.. يا له من مشهد.. يرفع يده إلى السماء، حتى تسقط عباءته، ويهتف من أعماقه.. اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض.. إنه نبى يا امرأة.. لكنه يؤدى دوره الإنسانى على أكمل وجه.. دون انتظار للخوارق.. إن الله يقدم عونه للمؤمنين، الذين يصدقون فى جهادهم وإخلاصهم لله.. ثلاثمائة وبضعة نفر.. فرسان فقط لا ثالث لهما.. لكن المؤمنين يقدمون ويتحركون حتى لكأنهم

آلاف مؤلفة . . ورأى الكفار ذلك فخيل إليهم أن مددًا قد قدم إلى الرسول . . لكن لله جنودًا لا نراها . . وهذه الجنود الإلهية لا تؤازر إلا المؤمنين الصادقين . . كانت أوقاتًا حرجة يا زوجتى . . إن الرسول يقود القوة الرئيسية التى تدافع عن دعوة الحق . . كنت أحمل سيفى وأضرب ذات اليمين وذات اليسار، وكنت أرى أئمة الكفر يفرون إلى الوراء . . أهؤلاء هم الذين كانوا يذيقون المسلمين الذل والهوان؟؟ لقد جاءوا إلى «بدر» وكأنهم فى نزهة قصيرة، سرعان ما يسحقون فيها المسلمين، ويتخلصون من النبى المرسل، ويعودون يشربون الخمر، وينحرون الجزر، ويعزفون ويغنون . . لكن إرادة الله فوق كل إرادة يا امرأة، لقد انتصرنا . . ووضع ابن مسعود قدمه على صدر رأس من رءوس الكفر وقد كان الكافر فى النزع الأخير . . وتساءل المحتضر عن النصر لمن يكون . . يا لها من لحظة . . إن الله ينتقم من الطغاة . . النصر لله الواحد القهار . . النصر للمؤمنين .

قالت زوجه فى سعادة : «المدينة كلها سعيدة بهذا النصر المؤزر الذى حباكم الله به . . » .

- «إن هذه المعركة أروع بداية لمجد الإسلام . . » .

وكور عمر قبضته، وأخذ يلوح بها فى غير قليل من الضيق : «لست أدرى لماذا يصر الرسول على ذلك؟؟» .

- «ماذا تعنى يا عمر؟؟».

- «أولئك الأسرى.. إنهم سبعون من أئمة الكفر، وأساطين قريش، الرسول يريد أن يطلق سراحهم، ويقبل منهم الفداء..».

قالت زوجه فى دهشة: «أو تعترضون على الرسول يا عمر؟؟».

- «إنهم أئمة الكفر، كم قدموا من إساءات بالغة للإسلام والمسلمين.. إنهم ليسوا مجرد أسرى، بل مجرمون، ارتكبوا من الجرائم والموبقات فى الأمس القريب، ما تقشعر له الأبدان.. إن هؤلاء ليس لهم عقوبة سوى القتل.. هؤلاء الأسرى استطاعوا أن يستدروا عطف أبى بكر، وأن يذرفوا الدموع، ويرفعوا التوسلات راجين العفو والفداء.. وعندما استشارنا الرسول أجمع عدد كبير منا على قبول الفداء وإطلاق سراحهم.. أما أنا فقد صحت بأعلى صوتى قائلاً: «يا رسول الله!! هم أعداء الله، كذبوك، وقاتلوك وأخرجوك، اضرب رقابهم. هم رءوس الكفر، وأئمة الضلالة، يوطئ الله بهم الإسلام، ويذل بهم أهل الشرك، لكن الرسول قال: «استوصوا بالأسارى خيراً..» حتى أولئك الأسرى الفقراء الذين لا يملكون الفداء.. أطلق سراحهم دون مال.. إن قلبى

يحدثنى يا امرأة أن القضاء على هؤلاء المجرمين كان واجبًا وعدلاً . . لكن كيف أعترض على رسول الله، وإجماع أصحابه؟؟» .

قالت زوجه: «لعلك على حق، لكن النبى أرق حاشية وألين قلبًا منك يا عمر . . إنه نبى مرسل من عند الله . وأنت تتصرف كرجل حرب وسياسة . . والرسول يتصرف كنبى لا تفارقه الرحمة حتى فى لهيب الحرب، واحتدام السياسة . . » .

وقضى عمر معظم الليل عابدًا لله ساجدًا، أكان من السهل أن يجدع أنف قريش، ويرغمها على الفرار؟؟ أيستطيع المستضعفون المستذلون أن يمرغوا كبرياء قريش فى الرغام ويذيقوهم هوانًا بهوان؟؟

كان عمر يغذ السير فى الطريق العام، وهرولت من خلفه امرأة تستتر فى الظلام، وسمعها تقول : «على رسلك يا عمر» .

- «من؟؟» .

- «ألا تعرفنى؟؟» .

- «اليهودية؟؟» .

- «إنها هى» .

- «ورائى ورائى دائمًا».

- «ولن أتركك يا عمر..».

- «العلها قضية جديدة؟؟».

اقتربت منه وقالت: «لقد هرب كعب بن الأشرف!!».

- «إلى أين؟؟».

- «إلى قريش..».

- «ألهذا جئت؟؟».

- «كان لابد أن أخبرك، أنت تعرف ما أشعر به نحوك ونحو المسلمين قاطبة من عطف وحب».

قال عمر: «لو صدقت لآمنت بالله ربًا وبمحمد نبيًا».

- «إننى أومن بالله يا عمر..».

- «الإيمان المشوه المحرف..».

قالت وهى تجره إلى جانب الطريق: «إنه أمر خطير، لقد قرر كعب بن الأشرف أن يتحلل من عهد اليهود مع محمد، وأن يجاهركم بالعداء، وأن يستثير قريشًا والقبائل ضدكم، ولسوف يبعثر شعره الداعر، وأحقاده القذرة فى كل مكان يأوى إليه.. ويستعدى عليكم العرب قاطبة.. إن الحقد قد أعماه عن كل ما يجب الاتصاف به من تعقل وروية..».

دهش عمر لكلماتها، لماذا جاءت تشى بكعب بن الأشرف وهو يهودى مثلها؟؟ هل دب بينه وبينها خلاف شخصى آخر، أم أن هناك مؤامرة يهودية؟؟

- «كيف تغدرين برجل يهودى مثلك؟؟».

- «ليس بى نازع من عصبية، بل أحترم العهود والمواثيق التى أبرمت بيننا وبينكم، ولقد رأيت كعبًا المأفون يدوس هذه المواثيق، ويثير حولنا الشكوك والريب، ويجر على اليهود الوبال والعار، لذا سارعت ببسط أمره أمامك حتى تكون على بينة.. إننى أبحث عن الأمن والدعة والسلام، ولذا لا يصح أن أتستر على خائن مثل كعب.. إننا معشر اليهود نعيش هنا فى المدينة إلى جوار المسلمين كإخوة متحابين، ولا يصح أن يكون بيننا خلاف أو سوء نية.. ولعل ذلك يفسر لك وشايتى بكعب إن صح أن تسمى وشاية.. وليكن معلومًا لديك.. أننا معشر اليهود ننكر على كعب تصرفه، ولذا قررنا عدم إيوائه، والتنصل من تبعيته لنا..».

ابتسم عمر؛ ثم هز رأسه فى حيرة وقال: «تتكلمين وكأنك سفيرة لليهود.. أو كأنك «رأس كبير» من رءوسهم المفكرة..».

ارتجف جسدها، وتلعثمت كلماتها، وقالت فى خوف:

- «عمر..».

- «عمر يفهم ما تريدين أيتها اليهودية الماكرة».

- «أهذا جزاء من يسدى إلى المسلمين معروفًا؟؟».

- «لم يأثم كعب وحده يا امرأة..».

دقت على صدرها فى رعب وقالت: «ماذا تقصد؟».

- «أقصد أن وراء الظلمات مخالب تعبث، وسيوفًا تسل، وأن أكثر المنافقين والجاحدين سذاجة هو كعب بن الأشرف..».

- «إنك تتكلم يا عمر، وكأن فى الأمر جريمة خفية، أو مؤامرة تدبر بليل، أليس كذلك؟».

وضحك عمر ضحكة خافتة: «لماذا تضحك يا عمر؟؟».

- «تذكرتك فى تلك الليلة.. لا شك تعرفين.. كيف كانت ملابسك، ودموعك، وخطواتك.. كنت تبدين كعاشقة من الطراز الأول.. واليوم.. إننى أنظر إلى ملابسك الضافية.. وكلماتك التى تنطقينها بدقة وحكمة.. ما أوسع الفرق بين الحالين.. بين عاشقة الأمس وسفيرة اليوم».

قالت اليهودية دون أن يزايلها التوتر والقلق: «ألم ترنى أخطأت إذ تحدثت إليك فى هذا الأمر؟؟».

- «لم أقل ذلك . . بل إنى أشكر لك هذا المعروف . . » .

وصمت برهة، ثم قال : «أعرف أنك تبرئين ساحتك، وتظهرين حسن نواياك» .

- «إنك الآن تفهم ما أريد . . » .

فليفعل كعب ما يشاء، إن كلماته المسمومة لن تطفىء نور الله . . » .

- «هذا حق يا عمر . . » .

- «وفرعون بكل ما أوتى من قوة وبطش وملك وجنود وسحرة، لم يستطع أن يقف فى وجه الطوفان . . أتذكرين؟؟» .

- «أذكر ذلك جيداً . . » .

- «وغرق فرعون . . » .

- «أجل . . غرق . . » .

- «وكلمة الله هى العليا . . » .

- «هى العليا يا عمر . . » .

وأخذ عمر يتمتم : «يا موسى إننى أنا الله . . لا إله إلا أنا فاعبدنى . . وأقم الصلاة لذكرى . . » ثم استدار عمر إلى اليهودية : «عودى آمنة . . مشكورة . . إلى بيتك . . » .

لم يخف على عمر أن اليهودية أرادت أن تعتصم بالدهاء، وتحمى بنى قومها إذا ما ظهرت خيانات كعب بن الأشرف وأمثاله، وإذا ما اتضح أن بعض اليهود يخالفون العهود والمواثيق المبرمة بين الرسول واليهود، وأدرك عمر أن معنى تصرفات المرأة وكلماتها تنطق بغدر اليهود وتدبيراتهم وتآمرهم، بل استقر فى قلبه يقين أن المرأة مبعوثة من قبل كبراء اليهود، ومكلفة بهذا العمل. .

لكأنما كان عمر يقرأ ما يدور خلف الستار. .

لقد عادت اليهودية إلى مكان خفى، اجتمع فيه عدد من كبراء اليهود، أغلبهم من بنى القينقاع وخيبر، وسدد الجالسون إليها نظراتهم المتلهفة وهى تلقى بجسدها المنهوك فوق خشبة صغيرة، وعندما رفعت حجابها، رأوا احتقان عينيها، وقليل من الدموع تبلل أهدابها، وقالت المرأة فى انفعال: «أيها اليهود الأحباب. . لم أعد أصلح لشىء. .».

قال حيى بن أخطب: «يبدو أنك فشلت فى أداء المهمة الموكولة إليك».

- «إننا نعادى قومًا يتمتعون بطاقة هائلة من الذكاء والإلهام. . وإذا كنا نحن أذكياء فلن نجاريهم فيما يفيض الله به عليهم من الإلهام. . الإلهام طاقة روحية. .».

قال «حيى» فى شىء من الضيق: «دعى الفلسفة جانبًا..».

نظرت إليه المرأة فى مرارة: «انفذت كل شىء بدقة..».

- «والنتيجة!!» هكذا صاح حيى بن أخطب فى صبر نافذ.

فرددت المرأة قائلة: «قال عمر بالأمس رأيتك عاشقة واليوم تبدين كسفيرة..».

وران على الجميع صمت عميق، وقال حيى وقد تقاطر عرقه: «لقد استطاع عمر أن ينفذ بثاقب بصره إلى أعماقنا ونحن هنا.. فى مكاننا السرى المغطى بالصمت والظلام..».

وعادت المرأة تقول: «لم يكترث كثيراً بفرار كعب».

قال حيى: «لقد استفاد منا من حيث أردنا أن نعمى عليه أمورنا..».

وقالت المرأة: «ومع ذلك فقد أكدت له تبرؤنا من كعب، وحنقنا عليه، ورغبتنا الأكيدة فى السلام، والحفاظ على العهود المقطوعة بيننا وبين المسلمين بذلك وشكره..».

وساد الصمت مرة أخرى، ثم عاد «حيى بن أخطب» يقول: «أيها الرجال يجب أن نزداد حذراً وحيطة، إن سقطة صغيرة بنا قد تكلفنا مستقبلنا وحياتنا، ومحمد يحصى علينا

سكناتنا وحركاتنا، ويجمع أخطاءنا، وخرقنا لمواثيقنا، وسيرفع فى وجهنا ذات يوم صحيفة مليئة بالعديد من أخطائنا وخياناتنا ثم يحكم فينا سيفه، ولن يلومه العرب، بل سيقولون: هذا جزاء الخيانة.. اليهود يستحقون.. لهذا يجب أن نكف عن التصريح بما فى ضمائرنا، وأن نمتنع عن مهاجمة محمد والتنديد برسالته، واستمسكوا بعلاقاتكم القديمة الوطيدة التى عقدتموها من قديم مع الأوس والخزرج وأهل المدينة.. إنهم اليوم أنصار محمد وجنوده، ولن يدوسوا مقدسات الود القديم.

- «الحذر.. الحذر.. يا معشر اليهود».

وأنا معكم إننا لن نستطيع القضاء على محمد وحدنا، إن أملنا الوحيد هو فى الحشود التى ستعدها قريش ليوم الثأر.. لن تنام قريش على عار الهزيمة، ولن تترك دم كبرائها هدراً، ولن ترى طريق التجارة بين مكة والشام واقعًا تحت سيطرة محمد وتسكت.. إنها بذلك تحكم على نفسها بالفناء والفقر والعار.. المعركة آتية يا معشر اليهود.. وهى أقرب مما تتصورون.. فالحذر.. الحذر..».

وانبعث نشيج عال، فتركزت الأبصار حول مصدره، كانت المرأة اليهودية تبكّى وتنتحب، وتقول: «لقد مللت هذه

الأدوار المقيتة . . لقد تعبت أعصابي . . كل يوم أتشكل بشكل جديد، أتعرفون الملل، لقد تعبت، أريد أن آوى إلى بيتى . . وأنام هادئة سعيدة . . دعونى . . فقد سئمت كل شيء . . » .

ربت «حيى» على كتفها في حنان : «لا تحزنى . . فغداً يرى أبناء اليهود الدور العظيم المقدس الذى تقومين به، ثم ينحنون أمامك فى إعجاب، حتى تلمس جباههم التراب . . إن الأحداث قوية عارمة، تثير الحفائظ، وتهز الأعصاب فلتطيبى نفسًا، وليهنأ بالك، فلكل شقاء نهاية .

□□□

الفصل [١٠]

سوق الذهب فى المدينة ، حيث يعيش بنو قينقاع وهم يهود متطرفون ، وفى هذا السوق يجلس عديد من التجار اليهود وأمامهم الموازين الحساسة ، وبريق الذهب يكاد يخطف الأبصار ، وأكياس النقود تبدو وتختفى ، وأصوات المساومات ترتفع وتنخفض ، هنا يهودى يحاول أن يختلس قدراً من الميزان وهو يحصره ، وآخر يضيف قدراً وهمياً إلى ميزانه ، وفى حالتى البيع والشراء لا يكتفى الصائغ بالربح الحلال ، بل لابد أن يسرق ، وأمام صائغ معروف جلست امرأة مسلمة تبيع حليها ، كانت تبدو جادة يقظة ، مما حير الصائغ ، وجعله لا يستطيع أن ينال بغيته من السرقة أثناء الوزن والحساب ، وبالقرب منها جلس شابان يهوديان يتجاذبان أطراف الأحاديث . .

قال أحدهما : «لقد رفع المسلمون رءوسهم منذ غزوة بدر ، لقد غرهم النصر الذى حققوه على قريش فمضوا فى الطرق والأسواق يتعالون ويتباهون . . » .

قال الثاني: «أجل. . انظر إلى تلك المرأة المسلمة، إنها تتصرف بكبرياء وثقة وهذا ما يحنقني. .».

قال الأول: «وعلى الرغم من حنقي الشديد عليها إلا أنها فاتنة. .».

- «ليست صيداً سهلاً. .».

- «ولكن ألا ترى فيَّ ما يسبي النساء؟ لكم يلذ لي أن تسقط هذه المتأبية في شباكي. .».

- «احذر. . إن تعصبهم للدين الجديد، قد ربى فيهم مناعة قوية. .».

- «والمرأة هي المرأة أيها المغفل. .».

- «ألا ترى أن هذه المرأة خلق جديد. .».

- «مجرد مظاهر جوفاء. .».

- «لتجرب حظك. .».

وانطلق الرجل الأول نحوها، وأدار وجهه إليها وقال: «لماذا تبيعين هذه الحلي؟؟ ما أروع تألقها على نحرك، وتناسقها حول معصمك».

سددت إليه نظرات زاجرة، ولم تنطق بكلمة. .

فعاد يقول: «يبدو أنك فى ضائقة، فمن الصعب على امرأة أن تبيع حليها إلا بسبب قهرى . . » فرمقته بنظرة احتقار، وكأنها تقول له، لا تدس أنفك فيما لا يعنيك، وعلى الرغم من تفهمه لنظراتها الزاجرة، إلا أنه تمادى فى غيه، إن دافعًا خبيثًا يدفعه إلى ملاحقتها، ومحاولة الإيقاع بها، لكم يلذ لهذا اليهودى أن يلوث شرف امرأة مسلمة بالأوحال، أو أن يحطم من كبريائها، ويهون من تشبثها بأخلاقها، ووصايا الأحبار القديمة تحسن له العدوان على أصحاب الأديان الأخرى، وتبارك عدوانه عليهم، لقد خيل إليه أنه يؤدى واجبًا دينيًا، إنه يتعبد بإيذاء البشر، وجرهم إلى هاوية الخطيئة والفساد.

ابتسم فى وجهها، وحنى رأسه أمامها وقال: «على الرغم من غطرستك فإننى أعشق هذا الجمال الفائق بل أعبده . . ».

هدرت فى غيظ: «أيها اليهودى النجس . . ».

– «يا لحلاوة كلماتك اللاذعة».

– «إن بنات جنسك اليهوديات يملأن المدينة دعارة وعربدة . . فاذهب إلى واحدة منهن».

قال الشاب فى برود: «إن جمالك الفذ يغفر لك هذه الهنات . . ».

تمتمت فى غيظ : «يا عديم الكرامة . . ».

- «إننى على استعداد أن أدفع لك ثمن هذه الحلى ثم أهبها لك، حرام أن يحرم هذا الجمال من حليه . . ».

هبت واقفة، ونظراتها نظرات نمرة متحفزة . وقد استطاع واحد من اليهود أن يعريها من الخلف بحيلة خبيثة . . وصاحت : «اذهب وإلا بصقت فى وجهك . . ».

وفوجئت المرأة بأن الصائغ اليهودى، يثور فى وجهها، ويواجهها بأقذع السباب، ثم ينتزع منها الحلى، ويبدأ فى صفعها، وهو يقول : «لقد تركناك تتكلمين بكلمات سمجة، وتسبين اليهود، ولا ترعوين . . أتظنين أن محمداً سوف يرهبنا؟؟؟».

وأقبل صبية الصائغ، وذلك الشاب اليهودى، وحاولوا الفتك بالمرأة، فاستغاثت برجل مسلم تصادف مروره فى هذا الوقت، ورأى ما عليه المسلمة المسكينة من هوان، وما تعانيه من اعتداء يكاد يقضى عليها، فحاول استخلاصها من بين أيديهم، فمالوا نحوه يشبعونه ركلاً وسبًا، وبينما كان المسلم يدافع عن نفسه، ويتلقى ضرباتهم ويتقيها إذ ضرب اليهودى الصائغ ضربة أردته قتيلاً، فأقبل اليهود من بنى القينقاع من كل صوب، وانقضوا على المسلم، ولم يتركوه إلا جثة هامدة . .

وساد الصمت . .

وقال شيخ من شيوخ يهود بنى قينقاع : «أيها الحمقى . . لقد تصرفتم تصرفًا شائنًا . . أو تظنون أن محمداً تارككم وقد بدأتم بالعدوان على المرأة . . وأرقتم دم مسلم يدافع عن نفسه؟؟ أين حكمتكم ورويتكم يا معشر اليهود؟؟

لقد اتسع الخرق على الراقع . . وما أرانا إلا على أبواب فتنة لا يعلم إلا الله مداها . . عودوا إلى حصونكم يا بنى القينقاع ، واحتموا بها ، فلن يمر وقت طويل قبل أن يداهمكم المسلمون من كل مكان . . » .

سرى النبأ فى كل مكان بالمدينة مسرى النار فى الهشيم ، وهرع المسلمون من كل صوب يتساءلون عن حقيقة الأمر ، واستدعى الرسول عدداً من شهود الحادث يسألهم عن حقيقة ما جرى . .

وفى مكان آخر وقف عمر بن الخطاب بين جمع من الصحابة ، وقد امتلأت نفسه ألمًا وثورة قال لمن حوله من المسلمين : «لقد نقض اليهود العهد ، وبدءوا العدوان ، وحق العقاب . . » .

فشق الصفوف إليه رأس المنافقين فى المدينة ، وهو عبد الله ابن أبى ، وقال : «لماذا تهول فى الأمر يا عمر؟؟» .

ضاق صدر عمر، فهو يعلم عن نفاق عبد الله بن أبى الكثير، ويعرف أن الرجل يظهر إسلامه، مع أنه يحمل فى قلبه أثقالاً وأثقالاً من الحقد الرهيب على الإسلام والمسلمين، ويعلم أن الرسول قد سامح هذا المنافق أكثر من مرة، وجاوب على نفاقه بالمغفرة، وعلى غدره بالصفح، وعلى مكائده بالتسامح، كيف لا وابنه مسلم حق الإسلام؟؟ ثم إن الرسول يفسح له الطريق كى يتوب إلى رشده، ويرجع عن غيه، لكن عمر لا يطيق صبراً، ويتمنى لو وافق الرسول فاستل عمر سيفه وقطع بها رقبة عبد الله بن أبى، لكن الرسول يرفض ذلك، ماذا يقول الناس؟ وماذا يقول العرب؟؟ سيقولون إن محمداً يقتل أصحابه ويغدر بهم، وسيجد دعاة السوء والفتنة الفرصة مواتية كى يبثوا سمومهم، ويثيروا ضغائنهم.

لذلك صاح عمر قائلاً: «ماذا تقول يا ابن أبى؟؟».

- «أقول إن الأمر أبسط مما تتصور.. دم بدم.. قُتِلَ يهودىّ وقُتِل مُسْلم.. دم بدم انتهى الأمر..».

ابتسم عمر فى مرارة وقال: «أو تنكر يا رجل أنهم بدءوا بالعدوان؟؟».

صمت عبد الله بن أبى، ومضى عمر يقول: «أو تنكر أن

المسلم الشهيد كان فى حالة دفاع عن نفسه وعن المرأة المسلمة التى لم تسئ إليهم؟؟».

ولم ينطق عبد الله فاستطرد عمر: «من منكم تخفى عليه نوايا اليهود وألا عيبهم؟؟ لقد خانوا العهود، وأطلعوا الأعداء على عوراتنا، ونقلوا أخبارنا وأسرارنا إلى قريش وحلفائها، وهددوا أمن المدينة واستقرارها وهى قاعدتنا الأمينة . . هل سمعتم عن حاكم فى الدنيا يترك الخونة والمتآمرين والأعداء يمرحون فى قلب قاعدته الأمينة؟؟ إن الأمر لا يحتاج إلى مزيد من الصبر . . الصبر فى مثل هذا المجال استهتار» . . ثم التفت إلى عبد الله بن أبى وقال: «عد إلى بيتك . . ».

- «وكيف وهم حلفائى فى الجاهلية؟؟ إن محالفة يهود بنى قينقاع للخزرج يعرفه العرب جميعًا، وإن القضاء عليهم أمر يمس كرامتنا، ويثير ثائرة الخزرج قاطبة . . إنك يا عمر تضخم الأمور الصغيرة، ولا تنظر فى العواقب نظر حكيم . . ».

هز عمر رأسه وقال: «عد إلى بيتك . . إننى أدرى بالعواقب منك . . ».

أرسل الرسول إلى بنى قينقاع من يذكرهم بعهودهم، ويدعوهم إلى الاستمساك بأسس تحالفهم مع المسلمين، فيكفوا أذاهم عن المسلمين، ويتركوا ما يشغبون به من دعاوى

باطلة، وشائعات مغرضة، وإلا أنزل بهم ما أنزله بقريش، فما كان من بنى قينقاع إلا أن ركبوا رءوسهم، ورضخوا لغرورهم، وقال قائلهم: «لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس. .».

عمر يستمع إلى هذه الكلمات المثيرة، ويدق الأرض بقدمه، ويتحسس سيفه فى صبر نافذ، ويهمس فى أذن أبى بكر الصديق: «ماذا ينتظر الرسول بعد هذا التحدى؟؟ هؤلاء الأنذال تقطر كلماتهم حقداً، وتسيل نظراتهم سمًا زعافًا. .».

- «صبرًا يا عمر، إن الرسول سيعالج الموقف بما يقتضيه من الحكمة والحزم. .».

- «يا أبا بكر. . إننا نعيش فى المدينة مهددين. . لقد طفح الكيل، لم يعد لنا مكان نلوذ به غير هذه المدينة، فإذا ما هدد اليهود وجودنا، وباعوا أسرارنا لقريش وغيرها من الأعداء، فقدنا المرتكز الآمن الذى نأوى إليه، وننطلق منه. .».

أسرع اليهود إلى حصونهم، لابسين عدة الحرب، وأطلت رءوسهم وسيوفهم تحت وهج الشمس تعلن التحدى، وتعلن أنها ستلقن المسلمين درسًا لن ينسوه فهم أساتذة الحرب وصناع السلاح، وعندما تسمع قريش بتصديهم لمحمد، فستتقاطر

جنودهم للانقضاض على محمد وأتباعه. وفى داخل الحصن أقبل رجل يهودى عجوز، وقال بصوت راجف: «يا معشر اليهود.. ثوبوا إلى رشدكم، واعترفوا بخطئكم، أو تظنون أنكم قادرون على هزيمة محمد ورجاله؟؟ لم يحن الحين بعد لكى تنهضوا لهذه المواجهة مع المسلمين.. فانتظروا الوقت المناسب، ولا تتعجلوا وإلا أصابكم ما أصاب قريشًا فى بدر.. يجب أن تقدموا المعاذير لمحمد، وأن تجددوا عهدكم معه وإلا حلت بنا الكوارث..».

وصاح فى وجهه الشاب المتحمس، ورفض دعوته، واعتبره شيخًا مخرفًا هرمًا، قد جانب الصواب، لقد أطلقوا كلمتهم أمام محمد، وأعلنوا أنهم أهل حرب وفن، وانطلى عليهم هذا الظن، واستقر هذا الوهم فى عقولهم، وتمتم الشيخ العجوز: «أنا لا أقل عنكم كراهية وحقدًا على المسلمين».

وصاحوا فى وجهه ثانية: «اذهب، ووفر نصائحك..».

وهز رأسه فى أسى: «لو كان يطاع لقصير أمر..».

واتجهت جموع المسلمين بأمر الرسول وتحت قيادته، نحو حصون بنى قينقاع، وحاصروهم فى قلاعهم خمسة عشر يومًا، وتطلع اليهود من نوافذ حصونهم، فرأوا الحشد الهائل، والسلاح الذى يتوهج تحت الشمس، ونظروا إلى بعيد فلم

يجدوا أثراً لقريش، ولم يروا حليفًا يقبل نحوهم، كي يفك الحصار عنهم، ويزودهم بما يحتاجون إليه من ماء وزاد وقال رجل منهم: «سنموت جوعًا..».

وقال ثانٍ: «سنفنى ظمأ..».

وقال ثالث: «إننا نخوض معركة يائسة، وهذا عين الخيال..».

وقهقه الشيخ العجوز: «أين هى المعركة أيتها الجرذان الضالة؟؟ إن محمداً لم يضرب بسيفه ضربة واحدة.. ومع ذلك ها أنتم تسقطون إعياء.. ويفتر حماسكم، وتبحثون عن مخرج..».

- «وماذا ترى أيها الشيخ العجوز؟؟».

- «الاستسلام..».

صاحوا فى صوت صاخب: «الاستسلام؟؟».

قال الشيخ: «أجل.. نقضتم العهد، وبدأتم العدوان، ورفضتم التفاهم، وأبيتم الاعتذار، وصممتم على المواجهة.. والعدو يحيط بكم من كل مكان، فإذا حاربتم فنيتم عن آخركم، وإذا سكتم متم جوعًا وظمأ.. وأراكم تحرصون على الحياة.. ولا سبيل إلى الحياة إلا بالاستسلام..».

قال قائل: «أترضى الذل والهوان؟؟».

- «الكى تعيشوا!! أرسلوا نفراً منكم إلى عبد الله بن أبى صديقكم وحليفكم فى الجاهلية لعله يشفع لكم عند محمد.. وابعثوا إلى محمد وقولوا له: إننا نسلم لك دون قيد أو شرط ونرضى بما تصنعه فى رقابنا ونسائنا وذرياتنا وأموالنا..».

وساد الصمت جموع المحتشدين فى الحصن، لقد ضاقت الدنيا فى وجوههم، وتبخر غرورهم، وتبددت آمالهم، وانكشف الأمر وأصبح واضحًا لكل ذى عينين، إما الحرب حتى الموت، وإما قبول الذل والهزيمة كى ينالوا الحياة.

وانطلق صوت ساخر يقول: «لماذا لا ترسلون رسالة عاجلة إلى «حيى بن أخطب» لعله يحضر ومعه يهود خيبر أو بنو قريظة، فيمنعوننا من سيوف محمد وقضائه علينا؟؟».

وقهقهت امرأة.. ونظروا إليها فإذا بها «اليهودية اللعوب» التى حاولت الإيقاع بعمر بن الخطاب فى يوم من الأيام، وهى معروفة لديهم تمام المعرفة، وقالت اليهودية: «إننا نتخبط كالمجانين.. ماذا يفعل حيى بن أخطب؟؟ وماذا يفعل بنو قريظة؟؟ أهم فى حاجة إلى رسالة عاجلة؟؟ لقد سمع العرب بما حدث ويحدث لنا، أيها اليهود.. انزلوا على حكم محمد وإلا فنينا عن آخرنا».

قال الشيخ الهرم معلقًا: «لقد نطقت امرأة يهودية بالحكمة».

وانطلقت اليهودية تقول: «إننا مثل سيئ في عهودنا ووعودنا، نسلك الطرق القذرة، ونطأ كل شيء في النهاية، شرفنا.. وحياتنا.. أجل، لقد فقدنا شرفنا، وأمامنا احتمال الاحتفاظ بحياتنا.. فلا مناص من الاستسلام.. وأنا شخصيًا مطمئنة.. أن محمدًا لن يقتل الشيوخ ولا النساء ولا الأطفال..».

وسرت تمتمة واضحة: «إنها تتكلم بروح الأنانية المقيتة.. ماذا لو سبى محمد الذراري والأطفال.. وصادر الأموال؟؟ أيكون لنا حياة حقيقية نستمتع بها؟؟».

وهدر الشيخ الهرم مرة أخرى قائلاً: «الاستسلام..».

وصاحت اليهودية: «لا شيء غير الاستسلام، ولعلنا نأخذ من ذلك درسًا لا ننساه..».

وأرسل اليهود رسالتهم الأخيرة إلى محمد ﷺ، يعتذرون فيها عما بدر منهم، ويعلنون التسليم، ويحكمون النبي شخصيًا في رقابهم ونسائهم وذرياتهم وأموالهم..

وجاء عبد الله بن أبي إلى الرسول قائلاً: «يا محمد أحسن في مواليّ»، فلم يتكلم النبي فعاد ابن أبي يقول: «يا محمد أحسن في مواليّ».

وثارت ثائرة عمر ، وجذب عبد الله بن أبى من ردائه وقال : «دع الرسول . . إنها قضية حرب ، وقضية مصير لا تحكم فيها عواطف ، أو علاقات ود قديمة على حساب الدعوة الإسلامية . . إن أمن الدعوة التى آمنا بها وسلامتها وسلامة موطنها وناسها فوق كل اعتبار . . » .

فخلص نفسه من عمر ، ثم عاد إلى رسول الله ، وأدخل يده فى جيب درعه ، فتغير لون النبى وقال له : «أرسلنى» .

وغضب الرسول من ابن أبى حتى رأوا لوجهه ظلاً .

وألح ابن أبى فى رجائه قائلاً : «والله لا أرسلك يا رسول الله حتى تحسن فى موالىّ ، أربعمائة وثلاثمائة دارع ، قد منعونى من الأحمر والأسود ، تحصدهم فى غداة واحدة . . إنى والله امرؤ أخشى الدوائر» .

وصاح عمر : «خانوا العهود . وبدءوا العدوان ، وأرادوا حصدنا . . » .

صمت الرسول برهة ، ثم نظر إلى عبد الله بن أبى كبير المنافقين وقال له : «هم لك ، على أن يخرجوا من المدينة ولا يجاورونا بها . . » .

أصبح الصباح ، وخرجت المدينة عن بكرة أبيها ، لترى يهود بنى قينقاع ، يحملون متاعهم ونساءهم وأطفالهم ، تاركين

المدينة، مخلفين وراءهم ما يملكون من سلاح وأدوات الذهب الذى كانوا يصوغونه . .

وتمتمت اليهودية، وهى تتوارى بين النسوة، وتخفى نفسها حتى لا يراها عمر وقالت : «ها نحن نهيم على وجوهنا فى الصحراء . . وكعب بن الأشرف ما زال يدبج القصائد فى رثاء قتلى بدر، ويثير ثائرة قريش ضد المسلمين . . وما زال حيى بن أخطب ينعم فى بنى قريظة بالحياة والنساء والمال . . اللعنة على الجميع . . لكأنى بكم جميعًا تائهين فى عرض الصحراء كأجدادنا فى التيه أيام موسى . . إن حماقاتنا هى المسئولة دائمًا عن كل كرب يصيبنا . . وهيهات أن نتعظ» ولم يعلق على حديثها أحد، فقد كان الألم يملأ النفوس، ويريق الدموع، ويبعث الأسى فى القلوب . . وكان للندم لذعات معذبة . . يا له من عذاب ! !

ومال عمر على أذن أبى بكر هامسًا : «لقد تخلصنا من عدد ضخم من الجواسيس . . انظر إلى الغبار المثار، من بعيد، لقد ابتلعتهم الصحراء القاسية . . إنهم يسيرون أذلاء خاضعين . . لكن لو أتيحت لهم الفرصة لتحولوا إلى مردة وشياطين . .

الآن نستطيع أن نعتبر المدينة حصنًا منيعًا يستعصى على كل الأعداء . . » تمتم أبو بكر : «والمنافقون . . » .

- «إنهم ألعن من اليهود.. لكنهم قلة.. ولن نتركهم سادرين فى غيهم..».

وفى ناحية أخرى كان يهود بنى قريظة وبنى النضير يشعرون بأسى بالغ لما أصاب إخوانهم «بنى قينقاع»، لكنهم كانوا يخفون غيظهم وسخطهم، ويظهرون تمسكهم بما بينهم وبين رسول الله من عهود، بل حاولوا كذبًا أن يعلنوا على الملأ استنكارهم لما أقدم عليه بنو قينقاع من خطأ جسيم.

وقال حيى بن أخطب: «الويل للمسلمين.. إن ثأر بنى قينقاع لن يموت.. اليوم انتهى كل أمل فى مصالحة المسلمين..».

قالت ابنته صفية زوج كنانة بن الربيع: «إن بنى قينقاع أخطأوا.. ومحمد لم يقتل أحدًا منهم.. والحكمة تقتضى ألا يقع أحد منا فى خطأ مشابه..».

ضحك أبوها «حيى» فى مرارة وقال: «لقد عاهدت الله على القضاء على محمد، وإضمار العداوة له.. ولو أنزل مائدة من السماء أو أحيا الموتى..».

سددت إليه نظرات قلقة، ولم تنطق بكلمة.

◻◻◻

الفصل [١١]

قال عبد الله بن أبى لزوجه: «لقد دمعت عيناى حينما رأيتهم يرحلون، كنت أنظر إلى حلفائى الأقدمين من بنى قينقاع وهم يتركون أموالهم ودورهم والحسرة تأكل قلبى.. ماذا جرى للدنيا؟؟ أأقف عاجزًا ضعيفًا لا أستطيع أن أحمى حلفائى؟؟ أنا.. أنا سيد الأوس والخزرج يا امرأة!! كيف يحدث هذا؟؟.. آه.. لقد كان قومى يعدون لى التاج، ويكسونه بالجواهر قبل مجىء محمد..».

قالت زوجه فى دهشة: «أتبكى اليهود أم تبكى مجدك القديم؟؟».

- «أتسخرين منى؟؟ ألا يكفى ما يفعله ابننا عبد الله؟؟ لقد أصبح الملعون من أشد الناس حماسًا لمحمد ولدينه.. يقول الناس عنى رأس المنافقين، ويقولون عن ابنى بطل من أبطال المسلمين..».

كان عبد الله يتخبط ويهذى، ويسكب أحزانه فى كلمات تقطر أسى، لقد مضى زمن كان فيه السيد المطاع، وكبير القوم، ليس فوق كلمته كلمة، ولا بعد رأيه رأى، منزلة عليا نالها بين قومه، فاتسع نفوذه كما اتسع ثراؤه، ولما أسلم رجالات قومه، وبايع الأوس والخزرج محمداً البيعة الشهيرة، لم يكن أمامه سوى أن يعلن إسلامه، وفى النفس ما فيها من المنغصات، ولعله ظن أن فى ظل الدعوة المحمدية مكانًا لمجده القديم وسلطانه الظاهر، لكن للدعوة الجديدة مبادئها وأخلاقياتها، وللإسلام أمجاده الخاصة، إنه ينظم فئات المسلمين على أساس من التقوى والإيمان والالتزام بدعوة الله.. ومن ثم كان لابد أن يرتفع أقوام، وأن ينخفض آخرون، وأن تظهر مع الفجر الجديد قيادات جديدة لها رصيد ضخم من الصبر على الإيذاء، والجلد فى النضال، والتمسك بالخلق الكريم.. ومن ثم أصبح عبد الله بن أبى رجلاً فى الصف الأخير.. بل رجلاً تحوم حوله شبهات الشك والغدر والخيانة.. لطالما سهر الليالى الطوال يفكر ويحترق.. يحدث ولده فلا يصيخ السمع، ويجده أشد ولاء للإسلام من ولائه لأبيه، ويحدث أصدقاءه القدامى تلميحًا فلا يجد سوى الإعراض والسخرية.. لكأنما استطاع محمد أن يحيل العقول والنفوس إلى خلق جديد قوامه الروح العقيدية الجديدة التى تحتقر كل السخافات العتيقة..

ودق عبد الله بن أبى الأرض بقدمه وصرخ: «جاء محمد إلى المدينة ومعه عدد قليل يقل عن الثمانين . . كانوا فقراء مطرودين . . بيننا . . لم يكن يملك القوة ولا المال ولا التاريخ الحربى القديم، سحرنا محمد بحديثه ونظامه . . أصبح المهاجرون أصحاب المدينة، وصار الأنصار مهاجرين . . اختلط كل شىء . . هذا أخو هذا . . معاهدات تبرم، وبيعات تعطى . . وأنا فى ذهول أيتها المرأة . . أرى ما يحدث فلا أكاد أصدق عينى . . أقول لنفسى إنها مجرد بدعة جديدة سرعان ما ينساها الناس أو لعبة ظريفة ينفض سامرها . . لكن الفقراء المهاجرين. والأنصار المطيعين . . خرجوا ذات يوم إلى ماء بدر، وضربوا كبرياء قريش فى الصميم، وحققوا نصراً مذهلاً على رجالات السياسة والحرب والمجد التليد . . وفى غمرة حيرتى وعذابى . . رأيت يهود بنى قينقاع ينزلون من حصونهم هاربين بجلودهم . . لقد اغتصب محمد مقعدى، وليته أفسح مكانًا لى جواره، بل يُجلس أبا بكر عن يمينه وعمر بن الخطاب عن يساره، لشد ما أكره عمر هذا!! هذا الفظ يسدد إلىّ نظرات حادة وكأنها أنامل تتسلل إلى عقلى وقلبى وتعبث بمحتوياتهما . . إنه يكرهنى، ويدعى أن إسلامى قائم على النفاق . . آه يا امرأتى . . لشد ما أعانى من عذاب القهر والعجز!!».

وهتفت زوجته فى انفعال : «إن محمداً لم يحارب أحداً ، بل يستعين بذوى المواهب من المؤمنين برسالته إيمانًا عميقًا ، ويركن إليهم ، لو أخذت الطريق الصحيح منذ البداية لربما كنت الآن واحداً من أقرب المقربين إليه ، لكنك يا أبا عبد الله لست بالمؤمن ولا بالكافر ، ليس لك من موقف محدد ، فلو بقيت على دينك القديم لكنت زعيمًا لخصوم محمد ، ولو اندفعت إلى الإسلام دون تردد أو وهن لصرت كبيراً من كبراء المسلمين ، فالخطأ ليس من جانب محمد . . لنكن صرحاء ونعترف بالحقيقة المرة ، أن محمداً لم يزل يعاملك فى رفق ، ويغضى النظر عن تصرفاتك الخطرة . . وما فعله فى بنى قينقاع هو أرحم مما يفعله العرب بأعدائهم المنهزمين بل مما يفعلونه بالمسلمين المخلصين ، قد زهدوا فى الدنيا ومناصبها وبريقها ، فإذا بالدنيا تقبل نحوهم وترتمى تحت أقدامهم تنشد وصالهم . . أليس كذلك ؟ ؟» .

تجهم وجه عبد الله بن أبى ، وقال فى حدة : «الشىء ما أكره هذه الكلمات» .

– «إننى أقول الحقيقة» .

– «أعلم ذلك يا امرأة . . » .

– «الموتورون والمنهزمون لا ينظرون سوى حقيقة واحدة

تملأ عليهم أقطار نفوسهم، ويداعبهم خيالها فى الليل والنهار».

- «ما هى هذه الحقيقة؟؟».

- «الحقيقة أنهم فقدوا أشياء عزيزة لديهم، لكنهم يحلمون باستردادها..».

- «أهم على حق فى ذلك؟؟».

- «هذا لا يهم.. ومع ذلك فأنت تعرفين أننى صاحب الحق فى التاج..».

- «أنت لم تحدد موقفك من الإسلام تمامًا..».

- «أنا لا أتحدث عن الإسلام، ولكن أتحدث عن مجدى الذى ضاع..».

- «ليست هذه هى القضية.. القضية هى الإيمان والكفر..».

- «والقضية فى نظرى هل سلبتنى هذه الدعوة سلطاتى أم لا؟؟».

- «ولهذا ستبقى يا زوجى قلقًا مهمومًا..».

- وليكن.. إن ذلك القلق سوف يشعل فى قلبى نارًا لا يخبو وهجها..».

- «أخاف أن تحرق هذه النار أناملك وآمالك. .».

- «إنى أعرف كيف أمخر عباب الأحداث. .».

- «لكن الله يكشف لمحمد عن نواياكم. .».

فصرخ فى حدة: «دعى هذا الأمر فقد سئمت الحديث عنه. .».

- «وكيف أصمت وأنت زوجى؟؟ أراك تفضل أعراض الدنيا الفانية، على كنوز الآخرة الخالدة. . ومصيرنا يا زوجى إلى الموت، وعند الله لن يشفع لنا مركزنا أو سلطاتنا الدنيوية والعامل الحاسم هو الإخلاص. . فلرب عبد أسود السحنة، مجهول النسب أقرب إلى الله من ملك على رأسه تاج.

زمجر معترضًا: «وهذه كلمات لا يقولها إلا الضعفاء والأذلاء. . إنها مجرد معاذير فارغة يدافعون بها عن جبنهم وخورهم وعبوديتهم. . إننى أؤمن بالله، ولكننى أرفض أية تنازلات عن سلطاتى القديمة، وإمرتى على الأوس والخزرج. .».

قالت فى ضيق: «زوجى. .».

- «ماذا؟؟».

- «أنت تحسد محمداً على ما حباه الله من نجاح. .».

- «هذا دأب ذوى الشأن والطموح من بنى البشر . . » .

- «لكنك وأنت تسير فى هذا الطريق الوعر، تستبيح أشياء فى غاية الخطورة . . » .

- «ماذا تعنين؟؟» .

- «تحرض على محمد، وتستعدى عليه الناس، وتؤلب عليه الأعداء، لأنك تبش فى وجهه وتظهر له غير ما تبطن . . » .

قال وهو يبتسم فى مرارة شديدة : «تعنين أنى منافق . . » .

ولما لم تجب، قال : «أنا أسميه سياسة ودراية بوسائل البلوغ لآمالى . . » .

- «قل ما شئت، فليس فى إمكانك أن تقنعنى بأن ما تفعله لا يتناقض مع إسلامك . . » .

ودق الباب، وخرج عبد الله بن أبى ليرى من الطارق، وقال فى تحفظ : «من الطارق؟؟» .

- «إنه أنا . . » .

- «كعب بن الأشرف؟؟ مرحبًا . . مرحبًا . . لكن ما الذى أتى بك إلى المدينة؟؟» .

- «إنك تلعب بالنار يا كعب . . » .

- «لقد عز علىّ يا أبا عبد الله أن أتركك وحدك فى الميدان . . » .

ودخل كعب ، واجتمعا معًا فى غرفة مغلقة ، كان كعب زائغ النظرات مرتبكًا ، وكان عبد الله بن أبى فى شغف بالغ لمعرفة أخبار مكة ، وما تنويه قريش إزاء استفحال خطر المسلمين ، وإزاء الهزيمة المرة التى تجرعوها على يد محمد وجنوده ، وأبدى كعب بن الأشرف أسفه فى البداية عما جرى ليهود بنى قينقاع ، وعما يحققه محمد من انتصارات متوالية وخضوع كثير من القبائل لأمره ، ودخول أغلبهم فى معاهدات سلام معه ، وأخذ عبد الله ينحى باللائمة على غفلة قريش وتهاونها ، على الرغم مما لديها من إمكانيات مادية وبشرية تستطيع أن تقضى بها على انتصارات محمد وتدابيره ، وأخيراً قال كعب : «لقد أدركت قريش أخيراً أن الهزيمة التى أصابتها على يد محمد لم تكن هزيمة عسكرية فحسب ، بل إن نمو قوته قد أفقدهم السيطرة على طريق التجارة بين الحجاز والشام . . ومن ثم فإن تجار قريش وأثرياءها يشعرون بالاختناق ، لم يعد عار الهزيمة هو الذى يلاحقهم بل إن شبح الفقر هو الآخر قد سبب لهم فزعًا كبيراً . . ثم إن دماء القتلى يوم بدر لم يزل يصرخ به شعرى فى أودية مكة ومسامرها ، وأخذ الرواة يتناقلونه فى كل مكان حتى ثارت الدماء فى

عروق الرجال، والنساء أيضًا . . الثأر والشرف والتجارة هى عماد المعركة القادمة . . ».

قال عبد الله فى لهفة: «أية معركة؟؟».

- «إن قريشًا تعد نفسها ليوم مشهود فاصل؟؟».

- «لحرب محمد؟؟».

- «أجل . . لسوف يدهمونه من كل صوب، وسيحشدون له حشدًا ضخمًا، ولسوف يهبون كالعاصفة المدمرة يحركهم الحقد والثأر للقضاء على محمد ومن معه من المسلمين المخدوعين . . إن هند «زوجة أبى سفيان -وقد قتل أباها وأخاها- تعير قريشًا، وتسخر من جبنهم . . ».

وصمت كعب بن الأشرف برهة ثم قال: «وسيثأرون لأحزان بنى قينقاع ورحيلهم الحزين إلى المجهول . . ».

وطأطأ عبد الله رأسه قائلاً: «كان بنو قينقاع حلفائى فى الجاهلية، وكانوا يقفون على أرض صلبة بالقرب من تجمعات المسلمين فى المدينة، وكان يتوقع لهم أنهم سوف يضربون ضربتهم الحاسمة فى الصميم إذا ما جاء الوقت المناسب، ويبدو أن محمداً كان يدرك ذلك، ولهذا بقى مفتوح العينين يترقب الفرصة حتى حانت، فانقض عليهم ولم يفتلهم . . إن محمداً ليس بالعدو السهل الذى يستهان به، أجل . . ذهب بنو

قينقاع، ففقدنا قاعدة مهمة من قواعدنا القوية . . لقد توجست خيفة منذ علمت أن عمر بن الخطاب يكثر من الحديث عنهم، ويحاول الكشف عن نواياهم . . . وكثيراً ما وقفت فى وجهه وهو يكيل لهم لدى الرسول، ويتصيد لهم الأخطاء، لكن حلفائى من بنى قينقاع تهوروا وتسرعوا، حتى سقطوا فريسة فى يد محمد، فارتاحت نفس عمر وابتهج قلبه، لقد بذلت جهوداً خارقة كى أنجو بهم من براثن عمر والمتشددين من المسلمين لكننى لم أستطع سوى أن أحفظ حياتهم . . ويا لها من حياة!!».

قال كعب وقد احتقن وجهه غضبًا: «السوف يعودون فى القريب العاجل إلى ديارهم . . ».

- «أتعتقد ذلك؟؟».

- «أو لديك أدنى شك؟؟ إن حشود قريش يا أبا عبد الله، تستطيع أن تكتسح المدينة بكل من فيها.

يا لها من لحظات حلوة!! عند ذلك أقف على أشلاء محمد وعمر وأبى بكر وأترنم بأروع شعر قالته العرب فى تاريخها الطويل . . سأصعد أعلى منبر وأنشد القصة من أولها . . وأتحدث عن اليتيم الذى أتى بدين جديد . . وأتحدث عن أحلامه الكبار فى الملك والسيطرة . وعن كأس النصر الأول

الذى أدار رءوس المسلمين وكان بداية لأفول نجمهم . . وأكتب المعلقات الخالدة عن عودة بنى قينقاع . . وأخيراً أتكلم عن سيد الخزرج والأوس عبد الله بن أبى . . صاحب التاج . . ».

وأشرق وجه عبد الله وقال : «وهل سيكون لى تاج كتاج كسرى وقيصر ؟؟».

- «ولِمَ لا ؟؟».

وصمت عبد الله برهة ثم قال : «هل أكثرت من الشراب الليلة يا كعب؟».

- «أجل . . لكننى أعى كل كلمة أتفوه بها . . ».

- «ومع ذلك فقد أخطأت فى القدوم إلى هنا يا كعب . . إن المدينة -أو القاعدة الأمينة كما يعتقد ابن الخطاب- قد لا تتسع لرجل مثلك فى هذه الأوقات العصيبة ، ثم أما كان من الأفضل أن تبقى فى مكة وضواحيها تحرض الأعراب ، وتشحذ الهمم ، وتشير عليهم بالرأى الصائب . . ».

قال كعب : «إن ما تتمناه هو عين الصواب ، لكنى قمت بذلك فعلاً . . ولم يبقَ إلا أن آتى إلى قاعدتهم الأمينة . . فإن هذه المدينة فى حاجة إلى من يثير فيها الفتن والاضطرابات ويروج الشائعات السوء ، ويكشف عن عورات المسلمين . . لسوف أطلق شعرى كالسهام إذا ما اقتربت المعركة . .

وسأستمر فى تشبيبى بنساء المسلمين، حتى أجرح تلك الطهارة المزعومة وأمزق ذلك الحياء الكاذب، وأعطى لهن صورة داعرة ماجنة عارية من كل قداسة وخلق..».

قال عبد الله: «قد يكلفك ذلك الكثير..».

- «أو لسنا فى معركة؟؟ إننى على أتم استعداد للتضحية بوقتى وبحياتى والنصر لنا يا عبد الله.. وثق أن محمداً لن يصل إلىّ..».

الفصل [١٢]

«سراياه تخفق فى كل مكان، وعديد من القبائل يدينون له بالولاء، وكلمة الله تعلو وتعلو، وأعداؤه يتشنجون ويثورون ويصرخون، وهو ثابت كالطود، يتحرك فى تؤدة ووقار، حوله فئة قليلة من الرجال، وأعداؤه عدد الحصى، لكنهم لا ينتصرون، فما السر فى ذلك؟؟».

وصمت عبد الله بن أبى فترة، ثم قال: «أتعتقد أن الله معه يا كعب بن الأشرف؟؟».

- «ولماذا نتحدث عن الله فى أمر من أمور الدنيا؟؟».

قهقه عبد الله وقال: «إن دعوة محمد تخص الدنيا والآخرة..».

- «دع الآخرة يا عبد الله لما بعد الموت..».

- «أنت رجل دين.. تؤمن باليهودية، فما رأى اليهودية فى هذا الأمر؟؟».

- «إنني أؤمن بموسى وكتابه، وأرى الحق مع ذلك الإيمان..».

- «وهل اليهودية يا كعب تنظم شئون الدنيا والآخرة؟؟».

- «إنها تتحدث عن الله والشيطان والأنبياء والملائكة، والجنة والنار. أعني تتحدث عن كثير من أمور الدنيا والآخرة..».

- «ها أنت تقترب من محمد..».

- «بل لعله يأخذ شيئًا عنا، وهذا سبب عدم إيماني به..».

- «نظام الحياة.. هل هو شيء يتلقى من الدين؟؟ هذا هو السؤال يا كعب؟؟».

تململ كعب في مكانه وقال: «لقد تعودنا أن نحصر الشعائر في الهياكل، أما شئون الدنيا من تجارة وسلوك وحرب وسلم، فهذه أمور تقررها عقول البشر..».

قال عبد الله: «إني أشك فيما تقول. إذ إن أحباركم قد كتبوا الكثير من التلمود عن نظرتكم إلى الأخلاق، ومعاملة غير اليهود، ونسق علاقاتكم المالية والحربية معهم، وأرى أنه من الخير لكم أن تعلنوا ذلك على الملأ، وإلا كانت اليهودية

قاصرة بالنسبة للإسلام، فالرجل المنصف يختار الدين الشامل المنظم لكل شئون الحياة. . أما إذا كان الدين محصوراً في مجموعة من المشاعر المنعزلة عن معترك الحياة فإني أعتقد أن أثر هذا الدين وانتشاره سيكونان ضعيفين. . ».

قال كعب في شيء من الارتباك: «نحن لا نعادي غير اليهود من البشر».

- «ألم أقل ذلك؟».

- «لكني أشم رائحة ذلك من كلماتك. . لنكن صرحاء يا عبد الله، لقد ميزنا الله على سائر البشر، وجعلنا أصفى عنصراً، وأكرم محتداً، وأسلم عقيدة. . ولا ذنب لنا في ذلك. . هذا ما قرره الله. . وعلينا السمع والطاعة. . ».

قال عبد الله وهو يحدجه بنظرات حائرة: «ألا تشك في كلمات التلمود؟؟».

- «ليس لي أن أشك فيها. . ».

- «لكن محمداً يقول إنها من وضع أحباركم، وليس من صنع الله. . ».

قهقه كعب وقال: «إذن فلنا أن نقول إن قرآنه من اختراعه، وليس من عند الله. . ».

- «لكن كلماته معجزة، وتتفق مع العقل يا كعب . . ومحمد يؤمن برسالة موسى وعيسى والأنبياء والرسل من قبل، ويعتبر رسالة الأنبياء واحدة أو سلسلة ذات حلقات تمتد من قديم الأزل إلى يومنا هذا . . إن رسالته أبعد عن التعصب وأقرب إلى منطق العقل» .

ارتسمت علامات الجد على وجه كعب بن الأشرف وقال : «هل جئت إليك لتدعونى إلى الإيمان بدين محمد؟؟» .

- «لم أقصد ذلك . . لكن الأمر يؤرقنى . . » .

- «فهمت . . تخاف أن يكون محمد على حق، ومن ثم فإن صراعك ضده قد يكون كالسير فى الطريق المسدود . . » .

قال عبد الله فى شرود: «إننى أتساءل : هل الله معه؟؟» .

- «هذه القضية يا عبد الله لا يفصل فيها القول . . » .

- «كيف؟؟» .

- «لا يفصل فيها غير السيف . . وبالطبع سيكون الله مع المنتصر . . » .

- «لكن كثيراً من الظالمين ينتصرون، ولا يمكن أن يكون الله معهم . . إذ ليس من الضرورى أن يكون الله مع الأقوياء . . » .

قال كعب فى ضيق: «أرانا نضيع وقتنا فى فلسفات لا طائل تحتها، وخير لنا أن نفكر فيما سنفعله إذا ما أقبلت قريش بقضها وقضيضها . . ألا فاعلم أننا جميعًا خلق الله، ولو أراد الله لنا الهداية لقادنا إليها، فلنعرف طريق الحق من خلال الصراع الدائب . . وأراد كعب أن يثير الحمية فى دماء عبد الله فقال: «ومحمد يزعم ألا فرق بين السادة والعبيد أمام الله، ويقول: كلكم لآدم وآدم من تراب. ومحمد يفعل أكثر من ذلك . . يقرب منه بلال الحبشى، ويَزْوَرّ عن عبد الله بن أبى، والأول عبد يباع ويشترى، وأنت كنت سيد الأوس والخزرج . . ترى هل جاء محمد ليحدث انقلابًا فوضويًا، فيجعل من العبيد سادة ومن السادة عبيدًا، ومحمد استطاع بسحر بيانه أن يجعل الابن يحارب أباه، والأب يحارب ابنه، هل تراه يمزق روابط الأسرة، ومشاعر الأبوة باسم الدين؟؟ ومحمد يقول: إن أكرمكم عند الله أتقاكم، فأين الشرف والحسب والنسب . . هذه ابتداعات أتى بها محمد . . ومحمد يرى أن اليهودية والمسيحية تناولتهما يد التحريف، وأنه جاء ليحمل إلى البشر كلمة الله الأخيرة دون زيف أو تحريف . . كلمات غامضة يقولها صاحب كل مبدأ جديد ليجر الناس وراءه إلى الهاوية . . ».

ورفع عبد الله إلى كعب عينين محتقنتين وقال: «ومتى تهجم قريش؟؟».

- «فى وقت قريب . . » .

- «وما ينتوون؟؟» .

- «تمزيق محمد وصحبه شر ممزق . . » .

- «ثم ماذا؟؟» .

- «وعودة الأوضاع إلى سابق عهدها» .

وتمتم عبد الله فى شرود: «إلى سابق عهدها؟؟» .

- «أجل . . وتعود أنت سيداً للخزرج والأوس، وتصبح الكلمة كلمتك، ويعود إليك حلفاؤك من بنى قينقاع، ويتشتت المهاجرون فى البرارى، أو تختلط دماؤهم بالرمال، ويصير بلال عبداً ذليلاً كما كان، ويذهب ابن الخطاب إلى حمار أبيه ويحرس الغنم، ويرعى الإبل، ويحتطب فى الخلاء . . ويعود إليك ابنك عبد الله يا عبد الله . . وتمضى قوافل التجارة من جديد بين مكة والشام آمنة . . وتستقيم الأمور . . » .

وهز عبد الله رأسه قائلاً: «أجل، وتستقيم الأمور . . » .

- «ويجب أن تؤمن يا عبد الله أنه عندما تصطدم قوى البشر، فإن الله يقف على الحياد . . » .

قال عبد الله فى توتر: «دع هذا الأمر، فإنى أشك فيه . . » .

- «كيف؟؟».

- «مأساة بدر..».

- «إنها شيء لا دلالة له، إنها مجرد توفيق في الخطة والتنفيذ..».

- «لكن عباقرة الحرب كانوا يحاربون محمداً..».

- «أصابهم الغرور، واستخفوا بمحمد، والحرب لا ينظر إليها نظرة المستخف المستهتر».

- «هذا حق..».

وران عليهما صمت عميق، قال عبد الله بن أبي بعدها: «إن منطق محمد وقوة إقناعه هما الخطر الداهم.. وليست قوته العسكرية..».

- «السيف أقوى من منطقه وبرهانه يا عبد الله..».

- «أريد أن أؤكد أهمية التشويش والنيل من أفكار محمد ومبادئه.. إنها تهز التكتل البشري والعقائدي الذي يمضي خلفه يا كعب..».

- «أوافقك على ذلك..».

- وانطلقت ألسنة السوء في المدينة وفي ضواحيها والقبائل المتحالفة مع المسلمين، وأخذت تنشر في كل مكان، أن

محمداً يغدر بحلفائه، وينتقم منهم، فقد طرد يهود بني قينقاع، وهو داعية حرب، يريق الدماء، ويترصد قوافل التجارة كما حدث في بدر، ومحمد من طلاب السلطة، وعشاق الحكم، فقد استطاع بذكائه أن يجذب إليه الدهماء والعبيد، ويقضي على سلطات الكبار أصحاب الحسب والنسب، ومحمد يسفه أحلام البشر وعقائدهم، ويهاجم الأديان والكتب السماوية السابقة، ومحمد قلب أمن العرب إلى حرب واضطراب، ومزق الروابط الأسرية، وأتى بمبتدعات لا عهد للعرب بها.

كما انطلقت قصائد كعب بن الأشرف تشبب بنساء المسلمين، وتنال من حصانتهن ونظافتهن، وتلقي الشبهات على تصرفات محمد وصحبه كذبًا وافتراءً، وتنال من الدعوة الإسلامية وتلصق بها ما لا صلة لها به، وتحرض القبائل، وتكشف عن عورات المسلمين.. وثارت ثائرة عمر بن الخطاب وقال: «إنها حرب خسيسة، فهم يدسون السم، ويختلقون الأقاويل الكاذبة، ويلصقون بدعوة الله الشبهات. وينقضون العهد والميثاق.. لو كنت مكان الرسول لضربت أعناقهم.. كان عمر ينطق بهذه الكلمات وحوله جمع من المسلمين، فرد عليه عبد الله بن أبي: «تقصد أعناق من يا ابن الخطاب؟؟».

- «أولئك المنافقون واليهود هم المسئولون . . » .

قال عبد الله بن أبى ثائراً : «إنك تضر أكثر مما تنفع يا عمر . . » .

قال عمر وهو يرتجف : «هذه إهانة لا أقبلها . . » .

- «إننى مسلم مثلك . . » .

ضغط على أسنانه ، وهدر : «يا ابن أبى . . ليس الإسلام كلمات تقال ، ولكنه قول وعمل . . » .

- قال عبد الله : «إننى أعترض على سياسة ضرب الأعناق يا عمر . . فافعل ما بدا لك . . » .

قال عمر فى شىء من الدهشة : «لكأنى بك تظننى مغرمًا بسفك الدماء . . هذا هو التجنى بعينه . . إننى أقصد أولئك الخونة الذين باعوا أنفسهم للشيطان ، وتعاونوا مع الأعداء ، وشوهوا شرف المسلمين ولوثوا الحرمات ، وعرضوا أمن البلاد للخطر . . ماذا كنت تفعل يا عبد الله بن أبى فيما لو تشبب بنسائك وبناتك؟؟ وماذا كنت تفعل لو غدر بك حليفك وطعنك فى ظهرك؟؟ وماذا كنت تفعل لو استولت قريش على أموالك وحاربتك فى رزقك ، وأرغمتك على مغادرة موطنك ، وساقت جنودها لحربك؟؟» .

وأدرك عبد الله ما تورط فيه من حديث، فعاد يقول: «إن غيرتى على الإسلام، وحرصى على سمعة رسول الله وأصحابه من حوله، كل ذلك يجعلنى أحاول جاهداً أن أنفى الشبهات، وأن أعترض على التصرفات التى قد تسىء إلى دعوتنا السامية..».

تمتم عمر وهو يرمق عبد الله بنظرات قاسية: «لا عقاب للخيانة غير الموت، ولا مصير للجواسيس والمرتدين سوى الفناء، وعلى الباغى تدور الدوائر..».

هز عبد الله رأسه قائلاً: «هذا حق..».

فاقترب عمر بن الخطاب منه وقال: «أين كعب بن الأشرف؟؟».

ساد الشحوب وجه عبد الله، وارتجفت مفاصله، ورد فى لعثمة: «وما شأنى به؟؟».

قال عمر وهو يصر على أسنانه: «لقد أهدرنا دمه».

- «لماذا؟؟».

- «ما حكم الذى يخون العهد، ويتعاون مع الأعداء، ويحرضهم على قتال المسلمين، ويشبب بنساء الرسول ونساء المسلمين، ويقوم بأعمال التجسس؟؟».

قال عبد الله مطأطئ الرأس: «عقوبته القتل..».

- «لهذا أهدرنا دمه..».

وهم عبد الله بالكلام، لكن عمر صاح بأعلى صوته وهو يدور على عقبيه: «من منكم يأتى الرسول برأس كعب بن الأشرف؟؟».

ثم التفت إلى عبد الله قائلاً: «إن اختفاءه لن ينجيه..».

ثم عاد يوجه حديثه إلى الموجودين: «يجب ألا تأخذنا فى الله لومة لائم، مهما أرجف المرجفون، وكذب المنافقون، وتآمر اليهود، وملئوا الآفاق بالافتراءات والأكاذيب..».

ونامت العيون، وأطل على المدينة ليل ساكن وديع، ويقى عبد الله بن أبى يقظًا يفكر، يستعيد الماضى البعيد بما فيه من أمجاد وذكريات، ويستعرض الحاضر المرير بما يضطرم فيه من قلق وعذاب وحيرة، ويفكر فيما قاله عمر، إن كلمة «منافقين» تطرق أذنيه كالصيحة القاتلة المزعجة، وتنغرس فى قلبه كالخنجر المسموم، ومصير كعب بن الأشرف يؤرقه ويحزنه.. لسوف يحاول الاتصال بكعب بن الأشرف سراً، وسيدبر له وسيلة للهرب إلى مكة، كى ينضم إلى جيش قريش، ويأتى غازيًا. هذا أفضل حل، وما إن سمع المؤذن يؤذن لصلاة الفجر حتى راح فى سبات مضطرب ملىء بالرؤى المزعجة، والخيالات المخيفة..

أفاق من نومه وقد غمر ضوء الشمس جنبات الدار، ورأى زوجه تدخل فى هرولة، وتقول: «لعنة الله عليه..».

- «ماذا تقولين؟؟».

- «هذا المأفون المقيت الذى كنت تجتمع به فى بيتك..».

- «ماذا تقصدين؟؟».

- «كعب بن الأشرف..».

- «ما الذى يجعلك تتحدثين عنه هذا الحديث يا امرأة..».

- «المدينة كلها تتحدث عن مصرعه..».

وثب عبد الله من فراشه مذعوراً وصاح: «مصرعه؟؟».

- «أجل.. لقد قتل.. إلى الجحيم.. هل نسيت أنه مهدور الدم؟؟».

ودارت الأرض، وأظلمت الدنيا فى عينيه، ودق قلبه دقات متلاحقة سريعة، وشعر بضيق فى صدره يكاد يخنقه، وتمتم وفى عينيه دموع: «إن أصدقائى يسقطون واحداً إثر آخر، وكلما سقط واحد انهدم ركن من أركان آمالى العريضة، كنت دائمًا أحترمه.. فأنا أحترم الرجل الذى يكافح عن سلطانه ومجده ومكاسبه..».

قالت زوجه فى شىء من الأسف : «أتحترم رجلاً يشبب بالنساء، ويفضح سترهم كذبًا وبهتانًا، ويتنكر للعهود، ويبيع نفسه للأعداء . . » .

صرخ فى وجهها كمجنون : «إن كرامتى فوق كل اعتبار . . فوق الدين والدنيا . . فوق محمد . . فوق كل مقدسات الحياة . . أتفهمين أيتها الملعونة؟؟» .

قالت وهى ترتجف : «أنا أتكلم عن كعب ولا أتكلم عنك . . » .

– «هذا خبث لا يخفى علىّ . . أنت تعرفين رأيى فى الأمور، فيجب أن تحترمى مشاعر الود والصداقة التى أكنها لكعب، لست على دينه، لكننا كنا نسير فى طريق واحد، قولى ما شئت، فلن أتنازل عن آرائى، ولن أسلم بالهزيمة، ولن أقر محمدًا على سلب امتيازاتى . . أتفهمين؟؟» .

قالت وهى تهرول خارجة : «أفهم ذلك من قديم، ولا أحاول التدخل فى شئونك إلا إذا اضطررتنى للحديث معك . . لقد سلمت أمرى لله على أمل أن تناول الاستقرار والأمن فى يوم من الأيام، ولكنك تجرنا معك إلى هاوية لا يعلم إلا الله مداها . . » .

قال ثائرًا : «دعى الحديث عن الله فأنا أعرف عنه أكثر مما تعرفين . . » .

قالت وهى لدى عتبة الباب: «أنت تعرف، لكنك تشقى بمعرفتك، لو كنت تعرف الله حق المعرفة لخلص إيمانك من كل الشوائب والمنغصات، ولبِتّ آمنًا مستريح البال..».

صاح مرة أخرى «قفى مكانك..».

- «ماذا تريد؟؟».

اقترب منها، ثم أمسك بيدها اليسرى قائلاً: «هل نسيت أنك امرأتى؟؟».

- «لم أنسَ..».

- «فلم هذا التبجح؟؟».

- «إننى أعبر عما أعتقد..».

قهقه فى مرارة: «لقد أتلف محمد العبيد والنساء والرعاع.. لقد فسد كل شىء.. ابنى يعادينى، زوجتى تعارضنى وتحنق علىّ.. ما هذا الذى يجرى؟؟ لقد أصيب الناس بلوثة..».

وأخذ يجفف عرقه، وهو يقول: «صبراً.. لكل شىء نهاية.. عند ذلك ستقولين.. كان زوجى على حق..» وبقى عبد الله بن أبى وحده.. وعادت إلى ذهنه صورة كعب بن الأشرف.. لقد كان جاداً فى عدائه، فاضحًا فى شعره،

مندفعًا فى حقده . . كان أنموذجًا حيًا للرجل الذى لا يحنى رأسه، ولا يستسلم حتى أمام الأنبياء . . لكن هاجسًا غريبًا أوحى إليه بالسؤال المحير الذى سأله لكعب بالأمس القريب، ودار حوله جدل طويل : «أتعتقد أن الله معه يا كعب؟؟» .

لكن الإجابة عن مثل هذا السؤال الخطير، لم تعد ذات بال بالنسبة لرجل كعبد الله يطفح قلبه بالحقد الأسود . . » .

□□□

الفصل [١٣]

تلقى رسول الله رسالة خطيرة ، فأمر حاملها بإخفاء أمرها ، وأدرك الرسول أن الأمر جد خطير ، وكيف لا يكون خطيراً ، وقد أقبلت قريش فى ثلاثة آلاف محارب مجهزين بالأسلحة والمؤن والجياد ، بل والنساء أيضًا حتى يثرن الحمية والحماس فى قلوب المحاربين . . إنه يوم الثأر لمن قتلوا من قريش فى معركة بدر ، ويوم الانتقام من الدعوة الإسلامية وبناتها بل يوم المصير الذى تتوقف عليه تجارة قريش من مكة إلى الشام ، بعد أن سيطر محمد ﷺ والقبائل الموالون له على هذا الطريق الحيوى المهم ، تلك هى المعركة المنتظرة التى روج لها الصريع كعب بن الأشرف ، والتى عمل لها شيخ المنافقين عبد الله بن أبى ، إنها معركة يحشد فيها الأعداء أحقادهم ، ويعلقون عليها آمالهم ، وينشدون من ورائها الخير الكثير . . ولما تأكدت للنبى ﷺ حقيقة المعركة التى تنتويها قريش ، جمع أصحابه ، وأمرهم بالاستعداد التام لها ، وأن يكونوا على أهبة المسير لاستقبال الأعداء .

صفق قلب عبد الله بن أبى فرحًا بين جوانحه وقال: «يرحمك الله يا كعب بن الأشرف، فقد أثمرت جهودك، ونجحت خطتك، وها هى قريش تقبل بقضها وقضيضها لتثأر من محمد وصحبه، وتعيد الأمور إلى نصابها. . آه لو كنت حيًا الآن!! إذن لكنت فارسها المعلم، ولسانها المعبر. . لكن طب نفسًا يا كعب. . فإن وراءك رجالاً يستطيعون أن يضربوا محمدًا وصحبه فى الصميم».

ودخلت زوجه وهو يحدث نفسه، وعلى الرغم من أنها لم تستطع أن تميز عباراته، إلا أنها قالت فى شك: «ماذا تقول؟؟؟».

قال دونما اهتمام: «الحرب تدق أبواب المدينة. . أتت قريش ليوم الثأر. .».

- «أو سعيد أنت بذلك؟؟».

قال فى دهشة: «كيف؟؟ إن المدينة موطنى، وفيها أهلى وقومى. .».

سددت إليه نظرات ذاهلة وقالت: «لكنك تمنيت سحق محمد وأتباعه. .».

ضحك فى سخرية وقال: «ما قصدت ذلك إطلاقًا. .».

- «أمرك غريب يا عبد الله، إن كلماتك الثائرة بالأمس لم تزل تطن فى أذنى».

قال: «قد يخرج الإنسان عن دائرة الواجب والمعقول إبان انفعاله وغضبه، وقد كنت آخذاً عل المسلمين عنفهم وطردهم لبنى قينقاع، ورفعهم السفلة من الناس إلى مصاف الكبار أولى الرأى والكلمة المسموعة.. أما وقد جد الجد، وتعرض أمن المدينة فعلاً للخطر، فلا يمكن أن أفتح أبوابها لقريش، إن قريشًا لو انتصرت فسوف تفرض علينا نوعًا من الحكم لا ينبض بالرحمة، وستتصرف تصرف الغازى المنتصر، وستسبى النساء والذرارى، وتأتى بالأعاجيب.. لقد صحوت الآن على هذه الحقيقة المرة.. ولا تنسنى أننى ابن هذه الأرض الطيبة، وأننى سيد من ساداتها، ولا أوافق مطلقًا على أن يلطخ عار الهزيمة اسم مدينتنا الخالدة..».

قالت زوجه وهى مستبشرة: «هذا أسعد يوم فى حياتى يا عبد الله.. لقد هداك الله أخيراً على الطريق السليم، ما أسعدنى بك زوجًا، وما أسعد ابنك بك الآن!!».

رمقها بنظرات فاحصة ماكرة، ثم قال: «وليس هذا شأنى وحدى، بل إن اليهود الذين يسكنون ضواحى المدينة قد أبدوا حماسًا جارفًا للمشاركة فى عبء الدفاع عن المدينة، ورد الأعداء عنها..».

قالت فى دهشة: «اليهود؟؟».

- «أجل اليـهـود. . هل نسـيت أن بينهم وبين رسـول الله عهداً؟؟».

- «أعـرف ذلك، لكن سـيـرتهم وسلوكـهم يشككان فى وفائهم بهذا العهد. .».

- «أوه. . يا زوجتى. . إن الخلافات كثيراً ما تنشب بين القرناء لكنهـا لا تعنى القطيعة التامة، والخيانة الموبوءة. . أتفهمين؟؟».

قالت ورائحة الشك تفوح من عباراتها: «أو تظن أن اليهود ينسون ما جرى ليهود بنى قينقاع؟؟».

- «إن مـا جـرى لهم شىء يؤلم النفـوس، لكن العـلاقـات الإنسانية والسياسية الكبرى أسمى من الأحداث البسيطة. . لقد أخطأ فعـلاً بنو قينقاع، وقد دفعوا ثمن أخطائهم. . هذا كل ما فى الأمر. .».

- «بدون شك. .».

ثم أخذ عبد الله يشرح لزوجه ما ينتويه من مشاركة فعلية فى المعركة، فقد قرر أن يجمع إليه عدداً من المسلمين يقودهم بنفسه، وخاصة أولئك الذين يثقون به، ولم يفقدوا بعد الأمل

فيه، ومن ناحية أخرى سوف يتفاهم مع اليهود الساكنين فى ضواحى المدينة ليجهزوا بضع مئات من رجالهم كى يخوضوا المعركة إلى جوار الرسول، دفاعًا عن أرضهم ومدينتهم، وتأكيدًا للعهد القائم بينهم وبين محمد، وإعادة للثقة المفقودة بينهما، وأكد لها أنه سوف يستقبل زعيمًا من زعمائهم الليلة، وهو يرغب أن تكون المحادثات سرية، حتى لا يعلم بها أحد، وحتى تكون الحشود اليهودية مفاجأة سارة للرسول والمسلمين من ورائه.

قالت زوجه فى شك: «محادثات سرية أخرى؟؟».

- «وماذا فى ذلك؟؟».

- «لقد حسبت أن عهد المحادثات السرية قد انتهى منذ مقتل كعب بن الأشرف..».

قال فى رقة ودهاء: «أى عزيزتى.. إننى رجل مسلم من كبراء القوم برغم سلب سلطاتى القديمة على يد محمد، وأن رجلاً كبيرًا مثلى على عاتقه واجب ضخم يجب أن يقوم به، حتى ولو لم يكلفه به أحد.. إن صمود هذه المدينة والحفاظ عليها.. أمر يخصنى أكثر مما يخص محمدًا.. إننى صاحب الأرض والوطن، ومهما حدث فلن أتخلى عن مسئولياتى العظام..».

قالت: «ولماذا لا تطلع محمداً على الأمر؟؟».

- «قلت لك أريدها مفاجأة سارة له».

وصمت برهة، ثم قال: «ثم إن محمداً حوله طائفة من المتشككين المتعصبين أمثال عمر وأبى بكر، فقد يثورون فى وجهى، ويثيرون الشحناء والأحقاد فى وقت عصيب كهذا، وقد يؤدى ذلك إلى فشل ذريع لن يؤذى غير مدينتنا الخالدة وتاريخها، أما إذا أوشكت المعركة على البدء، ووجد المسلمون أنفسهم فى المعركة، ووجدوا مفرزة من الجند تأوى إليهم وتعضدهم، وتشد أزرهم، فلن يكون هناك مجال للشحناء والتردد والخلاف.. أتفهمين؟؟».

قالت الزوجة بصوت خفيض: «قد تكون هذه فكرة لا بأس بها».

أقبل حيى بن أخطب تحت ستر الليل، وقصد لتوه دار عبد الله بن أبى، وكان لقاء حاراً فياضًا بألوان المشاعر والانفعالات المتبادلة، وانصرفا إلى مكان أمين لا يعكر وحدتهما فيه أحد، وجلسا وجهًا لوجه، وقال عبد الله بن أبى بعد فترة صمت: «لقد مات كعب ونحن أحوج ما نكون إليه..».

قال حيى فى تأثر: «يكفيه أنه أدى واجبه، وضحى بنفسه، لم يكن ينقصه غير قليل من الدهاء والمكر، لكنه كان شاعراً،

والشعراء لا يستطيعون كتمان انفعالاتهم، أو إخفاء نواياهم. . إنهم أصرح الناس قولاً، وأشدهم حماسة. . إن الواحد منهم يا عبد الله قد يضحى بحياته من أجل بيت شعر بقوله، ولو كتمه لنجا، لكنه يدفع رقبته ثمنًا لكلمته. . ».

وتندت عيونهما بالدموع، وتمتم عبد الله.

- «لقد أقبلت قريش لتثأر لعذابنا الطويل. . ».

وأردف حيى بن أخطب: «ولعذابها وأحزانها وشرفها المثلوم أيضًا. . ».

- «هذا حق يا ابن أخطب. . إن دعوة محمد ترمى بسهامها فى قلب أعظم مقدسات العرب، وتواجه أضخم تجمعاتها فى سذاجة وغرور، ماذا يظن محمد؟؟ هل يعتقد أنه قادر على ضرب العرب جميعًا وتغيير معتقداتهم؟؟ أيحسب أنه بعدد من الأفكار والبيان الساحر قادر على تحويل العقول والمعتقدات الراسخة. . والله لو أخذ العرب الخطر الإسلامى مأخذ الجد لسحقوه بين يوم وليلة. . لا أكتمك الحديث أن محمداً قد جانبه الصواب، حينما تصور أنه قادر على نشر دعوته، وحملها إلى العالمين. . تصور. . العالمين. . الفرس والرومان وما وراءهما. . أرأيت غروراً أعجب من ذلك؟؟؟».

هز حيى بن أخطب رأسه، وعديد من الأفكار يموج فى عقله، ثم قال: «ليس الأمر بهذه البساطة يا عبد الله . . ».

- «ماذا تعنى؟؟».

- «كان بنو إسرائيل قلة، وكان فرعون يذبح أبناءهم، ويستحيى نساءهم، وكان لفرعون من القوة والسلطان والجنود ما لا يمكن دحره . . كان فرعون إلهًا يعبد فى الأرض. لكن موسى وبنى إسرائيل برغم قلة عددهم، ودار الذل والهوان التى يعيشون فيها، والرعب المسيطر عليهم . . برغم كل ذلك . . هزموا فرعون، وانتصر المستضعفون . . ».

قال عبد الله فى شىء من الضيق: «أتتكرر القصة فى هذا الزمان؟؟ أينتصر محمد كما انتصر موسى؟؟».

- «أو تعتقد أنه نبى مثل موسى؟؟».

قال حيى بن أخطب: «هذا هو فصل الخطاب، هل محمد نبى؟؟ إننى أشك فى ذلك شكًا كبيراً، إن موسى أحال العصى إلى ثعابين، وضرب البحر بعصاه فانشق وغرق فرعون . . هذه معجزات وغيرها كثير، وقد اعترف محمد بذلك فى قرآنه . . موسى انتصر لأنه نبى، وهو نبى لأنه أتى بمعجزات خارقة فأين معجزات محمد؟؟».

قال عبد الله : «يزعمون أن القرآن معجزته الخالدة».

- «ذلك هو بيت القصيد يا عبد الله.. هذا لا يكفى.. إن بلاغة محمد لا أعتبرها معجزة.. إن فى كل جيل شاعراً عظيمًا، أو فيلسوفًا عبقريًا، ولم يقل أحد أن أحدهما يمكن أن يكون نبيًا..».

هتف عبد الله فى ضيق: «إن فكرة صائبة، أو مبدأ مهمًا نافعًا، قد يكون أجدى على البشر من إحالة العصى إلى ثعابين..».

قال حيى بن أخطب: «آه.. وكيف نقرر صلاحية الفكرة أو خطأها؟؟ وكيف نحقق صدق المبدأ أو نفعه؟؟ هذه قضية لا يمكن الفصل فيها بسهولة من الناحية العقلية المجردة..».

قال عبد الله: «وكيف نحكم فيها؟؟».

- «التجربة.. الزمن.. المعارك التى تحتدم ساخنة وباردة من حولها..».

ومضى حيى بن أخطب فى حديثه قائلاً: «فإذا ما استعرضت مبادئ محمد وبنود دعوته، وجدت فيها ما يضرك أنت شخصيًا وما يؤثر على قيم الجماعة العربية، ويقلب موازينها قلبًا.. ذلك ما تراه اليوم رأى العين، ما دام محمد لم يقدم المعجزات الحسية التى قدمها غيره من الأنبياء، وواجبنا فى هذا الوقت أن نحمى قيم الآباء والأجداد، وتراث السلف

من قديم الزمان ومن خلال التجربة يا عبد الله . . ومع مرور الزمن، ومن خلال لهيب المعارك المحتدمة ستتضح الحقيقة . . أما السكوت على ما يجرى، وفتح الطريق أمام الهرطقات التى يذيعها محمد، فإنما هو عين الخطأ، إذ إن ذلك سيمكن له، ويفتح الطريق أمام حتى يجمع إليه مزيداً من السذج والعبيد والرعاع، فيبلغ ما يريد . . ».

قال عبد الله : «إن ما تقوله هو عين الصواب . . ».

وران عليهما صمت عميق، قال حيى بن أخطب بعده : «وكيف نتصرف إزاء المعركة القادمة؟؟».

وأخذ عبد الله يشرح له وجهة نظره، إن الاحتمال الأكبر هو أن قريشًا سوف تنتصر، ولهذا فإنه من الواجب مؤازرتها، والانضمام إليها، حتى يمكن لهما أن يشتركا مع قريش فى اجتناء ثمرة النصر، وحتى لا يتعرض أحدهما لنقمة أو انتقام بعد المعركة، أما الاحتمال الثانى وهو الأضعف هو أن ينتصر المسلمون، وهذه مسألة جديرة بالنظر والاعتبار، ولهذا يرى عبد الله أن ينضم بقواته إلى صفوف المسلمين، وكذلك يفعل رجالات اليهود المحاربين . .

فإذا ما احتدمت المعركة، انحاز عبد الله بن أبى ورجاله من اليهود وغير اليهود إلى جانب قريش، وطعنوا قوات المسلمين من الخلف طعنة نجلاء لا نجاة منها . . ».

قال حيى بن أخطب: «هذه فكرة صائبة مع ما يكتنفها من خطورة، فإن سهام قريش وأحجارهم قد لا تفرق بين رجالك ورجال محمد..».

- «ليس بهذه الدرجة من الخطورة، فما هى إلا بضع ساعات ويتم الأمر لصالحنا..».

وصمت عبد الله فترة ثم قال: «مسكين محمد، إنه يعرض نفسه لأخطار جمة، ولا يعرف أن الطريق إلى آماله الكبيرة ملىء بالشوك والموت والحيات القاتلة.. لقد غره نصره الخاطف فى بدر، فتصور أن معاركه تمضى على هذه الوتيرة، ومن ثم تمادى فى إرسال سراياه، وجذب الناس إلى دعوته، وتحكمه فى طريق التجارة المهم، وطرده لمناوئيه من بنى قينقاع..».

وتمتم حيى بن أخطب قائلاً: «مسكين.. فعلاً.. لقد قال فى أحد أحاديثه اللهم أحينى مسكينًا، وأمتنى مسكينًا، واحشرنى فى زمرة المساكين.. أترى كيف يبهر التعساء والضائعين بحلو حديثه وسحر بيانه؟؟».

- «إنه حاد الذكاء».

- «ولكن كيف يتحرك ذكاؤه وسط هذه الأخطار المدلهمة..».

قال عبد الله فى ثقة: «سيكون دهاؤنا أقوى من ذكائه».

وأردف حيى بن أخطب: «والسيف يحسم الأمور».

- «أجل.. يضع النهاية المحتومة لكل الخارجين على نظام الحياة المقدس..».

مال عمر بن الخطاب على أذن أبى بكر وقال: «أترى شيخ المنافقين.. إنه يقبل نحونا فى هذا الوقت العصيب.. أتراه كان متشفيًا أم جاسوسًا أم مؤيدًا..».

قال أبو بكر: «الرأى ما يرى الرسول.. ومع ذلك فليس لنا أن ندين الرجل المسلم إلا بأدلة لا تقبل الشك، وبأفعال واضحة للعيان..».

تمتم عمر فى ضيق: «إن قلبى يحدثنى أنه حية رقطاء..».

- «لو حكمنا على الناس بما تهجس به قلوبنا لظلمناهم يا عمر.. ليس لنا غير الوقائع والشواهد نحكم على أساسها..».

تنهد عمر وقال: «صدقت..».

ودخل عبد الله حلبة الجدال، وأبدى حماسة فائقة للقاء قريش، والتصدى لجبروتها بكل قوة وبأس، وعندما علم عبد الله بن أبى أن الرسول يرى البقاء فى المدينة، واستدراج

الأعداء إليها، حتى يمكن القضاء عليهم فى الشوارع والساحات، عندما علم عبد الله بذلك، قال: «إن ما يراه الرسول هو عين الصواب، وأنا أوافقه عليه.. لقد صدق الرسول.. فعلاً نحن أدرى بمدينتنا، وبمداخلها ومخارجها..».

وعاد عمر إلى الهمس فى أذن أبى بكر: «أليس غريبًا أن يتحمس عبد الله لرأى الرسول.. أتراه صادقًا مخلصًا فى قوله؟؟ إن أمره يحيرنى..».

قال أبو بكر: «هذا وقت عصيب، لا يتسع يا عمر للشك والريبة، فكلام الرجل حتى الآن لا يشم منه غدر..».

وعلى الرغم من موافقة أبى بكر وعمر وعبد الله وكبار الصحابة على رأى الرسول، بخصوص البقاء فى المدينة وملاقاة الأعداء فيها، إلا أن جمهرة كبيرة من الشباب، وخاصة أولئك الذين لم يشهدوا معركة بدر أصروا على الخروج من المدينة وملاقاة الأعداء فى معركة صريحة مكشوفة خارجها، وقال أحد الشبان: «لسوف يرمينا العرب بالجبن والتخاذل إذا نحن لزمنا مدينتنا، وحاربنا فى شوارعها، إننا لا نهاب الموت، ولا نفر من النضال..».

وهكذا رأى الرسول أن الغالبية العظمى من رجاله يفضلون الخروج إلى الأعداء، ويرفضون فكرة الحرب داخلها، فأراد الرسول أن يحترم نتيجة المشورة، ويستمع إلى رأى الغالبية، لكنه قال: «إنى أخاف عليكم الهزيمة..».

وهدرت أصوات الشباب: «لابد من الخروج، وليكن ما يكون..».

أمر الرسول صحابته أن يتهيئوا للخروج، ودخل داره، وتقلد سيفه، وارتدى عدة القتال، ثم خرج إلى الناس..

شعر القوم أنهم استكرهوا الرسول على رأيهم، وأظهروا الرغبة فى النزول على رأيه، وصاح عمر: «كان علينا أن نفكر فى الأمر بروية، وأن نصرف عن أنفسنا الحماسة الطارئة، والعنجهية الصارخة، إن الحرب خدعة، وبراعة وتفكير، وما كان يجب أن نقابل روية الرسول وبعد نظره بهذا الانفعال الأجوف.. المهم فى الحرب هى النتيجة.. وسيان دارت رحا الحرب فى شوارع المدينة. أو إلى جوار «أحد» فإن ما ننشده هو النصر، وتحقيق النصر يمحو كل الظنون والشبهات..

إلا أن النبى ﷺ وجد غضاضة فى الاضطراب بين شتى الآراء والتردد فى قراراته، قال: «ما ينبغى لنبى لبس لامته (درعه) أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه..».

ثم طلب منهم الصبر عند البأس . .

وشعر عبد الله بن أبى سعادة بالغة ، لهذا القرار ، لقد كان يعلم أن خطة الرسول الأولى خطة بارعة تليق بإمكانيات المسلمين إذا ما قورنت بإمكانيات أعدائهم ، وعندما اعترض الشباب والرجال الذين لم يشهدوا «بدراً» ، سر غاية السرور وتمتم بينه وبين نفسه : لقد وقع محمد فى الفخ المنصوب له . . لسوف يتمزق المسلمون بدلاً . . وستأكل الطير والوحوش من أجسادهم . . وسيصبحون قصة فريدة . . مضحكة . . مثيرة . . على مر الزمان . . » .

ثم تنهد قائلاً : «وستعود المياه إلى مجاريها . . ويحلو السمر . . وتعود الذكريات . . » .

الفصل [١٤]

على بعد خمسة أميال من المدينة احتشد ألف من المسلمين حول الرسول، إلى جوار جبل «أحد» وأجال الرسول بصره فى الحشود من حوله، فوجد تجمعًا كبيرًا -غير الألف جندى- يقف على مقربة منه، وأخذ يتصفح الوجوه، لم يعرف أحدًا منهم، فسأل عمن يكونون، فأجاب عبد الله بن أبى: «هؤلاء حلفائى من اليهود جاءوا لنصرتنا..».

وفكر الرسول برهة، ثم قال: «إما أن يسلموا أو يعودوا».

وحاول عبد الله بن أبى أن يقنع الرسول بضرورة بقائهم دون جدوى، وكيف يثق فى اليهود وقصة بنى قينقاع لم تزل قريبة العهد، وكثير من الشكوك تحوم حولهم، وسلوكهم المريب يعرفه الجميع، والمعركة تريد رجالاً أصحاء النفوس، أقوياء العقيدة، يعرفون الهدف النبيل الذى يحاربون من أجله..».

قال عمر بن الخطاب: «يا ابن أبى إن قرار الرسول لا رجعة فيه..».

- «إن حدة طبعك يا ابن الخطاب ستجر علينا المصائب..».

- «لا أريد أن أدخل معك فى جدل لا طائل تحته، ونحن على أبواب المعركة..».

زمجر عبد الله بن أبى قائلاً: «إن قريشًا جمعت ثلاثة آلاف رجل، وهذا التفوق العددى يجعلنا فى مسيس الحاجة إلى حلفائى من اليهود.. لكنك يا ابن الخطاب تأبى إلا أن تفرق الناس فى هذا اليوم العصيب.. لقد أطاع محمد الصبية وعصانى..».

- «إن جنديًا مؤمنًا واحداً صادق الإيمان يا ابن أبى يهزم عشرة من المشركين..».

- «مع كل يوم تتكرر معجزة بدر..».

قال عمر: «لله الأمر من قبل ومن بعد..».

دق عبد الله بن أبى الأرض بقدمه، وقال فى إصرار: «إذا لم يبقَ اليهود، فسوف أنسحب برجالى الآخرين، وعددهم يربو على الثلاثمائة».

قال عمر فى هدوء: «ليكن..».

- «وكيف يجابه سبعمائة من المسلمين ثلاثة آلاف من المشركين الأقوياء؟؟».

- «قرار الرسول قرار لا رجعة فيه..».

فصاح ابن أبى برجاله الثلاثمائة، والمفرزة اليهودية، أن يرجعوا، ويتركوا ميدان المعركة احتجاجًا على موقف الرسول وعمر وغيره من كبار الصحابة..

وابتسم عبد الله بن أبى وهو يولى وجهه شطر المدينة، وتمتم: «لسوف يتلقى المسلمون درسًا أخيرًا يجعل من وثبتهم الكبرى مجرد ذكرى عابرة.. قد لا يعودون، ومن يعود منهم سيعود محطم النفس، كسير القلب لا يصلح لشىء..».

وقال رجل من مشاهير اليهود: «ولماذا لا ننقض على المدينة ونحتلها فى هذا الوقت العصيب؟؟».

قال ابن أبى: «بالمدينة قوة من الرجال الأشداء، وأظن أن مثل هذا التصرف قد يجر علينا وبالاً كثيراً، ويقطع علينا خط الرجعة..».

قال اليهودى: «ولم لا ننتظر حتى تحتدم المعركة، ثم ننقض على مؤخرة المسلمين؟؟».

- «المسلمون يحتمون خلف هضاب جبل أحد، وفى المؤخرة يقف خمسون من مهرة الرماة من المسلمين..».

وصمت عبد الله برهة ثم قال: «إن مجرد انسحابنا سوف يخلخل الصفوف، ويضعف من ثقة المسلمين بأنفسهم..».

أخذ الرسول ينظم صفوف جنوده، فوضع خمسين من الرماة على طريق تؤدى من الجبل إلى خلف قواته، وكان هدفه من وضع هذه القوة منع العدو من الالتفاف على قواته من الخلف، ولتكون هذه القوة قاعدة أمينة لقواته، تحمى ظهورهم، ويستندون إليها، وتستر الانسحاب عند الحاجة.

وأصدر الرسول أمره قائلاً لهذه الجماعة وقائدها: «احموا لنا ظهورنا، فإننا نخاف أن يجيئوا من ورائنا، والزموا أماكنكم لا تبرحوا منها، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل، فإن الخيل لا تقدم على النبل».

كان قائد المشركين أبا سفيان، وعلى الميمنة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل وحامل اللواء طلحة ابن أبى طلحة..

ولعبت هند بنت عتبة. زوجة أبى سفيان دوراً كبيراً فى

معركة الثأر الكبرى، لم تنسَ أباها وأقرباءها وكثيرين من كبار القوم أولئك الذين سقطوا صرعى بسيوف المسلمين يوم بدر الكبرى.

وقفت هند تذكر حمزة عم الرسول يوم أن جندل شيبة، وشارك فى قتل عتبة، ذكرته وهو يجول بسيفه قويًا ثائرًا، لا يرهب الموت، ولا يتراجع أمام المشركين، أيمكن أن تنسى ثأرها؟؟ وكيف تنساه هند، وهى ترى بعينيها حمزة نفسه يتقدم الصفوف كالمرة السابقة، ليعيد الضرب والطعان فى صدور المشركين؟؟

أترى حمزة يكون قد انتوى الهجوم هذه المرة على زوجها أبى سفيان، وصاحت بأعلى صوتها: «لك الويل يا حمزة..».

فضاعت صيحتها فى الزحام والضجيج والغبار المثار..

ثم تلفتت حولها متسائلة: «من يأتِنى برأس حمزة، وأنا أعطيه جائزة كبرى فوق ما يحلم به؟؟».

واقترب منها أحد العبيد وقال: «أنا لها إذا ضمنت لى شيئًا واحدًا..».

- «من؟؟ «وحشى».. مولى جبير؟؟».

- «أجل..».

- «أتقتل حمزة؟؟ إنه صعب المنال..».

- «لسوف أقتله..».

- «وماذا تريد ثمنًا لذلك؟؟».

- «حريتى..».

وسمع جبير كلمات عبده وحشى، وكان هو الآخر قد فجع فى عمه فى بدر: «لك ذلك يا وحشى..».

وقالت هند: «وزيادة..».

وجمعت عدداً كبيراً من النساء، وأخذت تسير بهن بين الصفوف تحرض الرجال، وتذكرهم بالثأر المقدس، وتنشد شعراً لكعب بن الأشرف يرثى فيه صرعى بدر، ثم وقفت وسط الرجال وهى تترنم دون خجل:

إن تقبلوا نعانق	ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق	فراق غير وامق

واحتدمت المعركة، وهند ترمقها بعين واجفة، وقلبها يأكله الحقد والغيظ.. ومالت على أذن إحدى النسوة: «لو هزمنا، لبعت نفسى للشيطان.. وللطخت وجه أبى

سفيان بالوحل، ولبصقت فى وجه خالد بن الوليد، ولانطلقت فى قلب الصحراء أترنم بجبن قريش وخيبتها . . أما إذا تحقق النصر، فسيكون أروع أيام عمرى . . لسوف ندق الطبول، وننحر الجزر، ونطعم الرائح والغادى، ونملأ الكئوس لينعم بالشراب كل ظامئ . . وسأقيم الأفراح فى مكة أيامًا وليالى طويلة . أتدرون ما هى أعظم أمنية فى حياتى؟؟ أن أشرب من دم حمزة بن عبد المطلب، وأتلذذ بأكل كبده . . أتظنون أن ذلك يطفئ النار التى تتلظى فى قلبى؟؟ آه من يوم بدر!! إن ذكراه تملأ روحى بالحزن والحسرة والعذاب، وتملأ ليلى بالأرق والدموع والكراهية . . لابد أن يتحطم محمد . . لتنطلق كل امرأة منكن تحرض زوجها وعشيرتها وتشعل فى قلوبهم نار الثأر . . ».

وسمعت هند وهى ترغى وتزبد أحد المشركين يقول: «لقد قتل حامل لوائنا طلحة بن أبى طلحة . . قتله على بن أبى طالب صاحب محمد وابن عمه . . ».

ودقت هند على صدرها فى غيظ: «يا للكارثة!! أيسقط حامل اللواء هكذا بسرعة؟؟».

ثم صاحت بأعلى صوتها: «فليتقدم رجل آخر . . ».

فتقدم شقيق طلحة، فسقط قتيلاً، ثم شقيقه الثانى. . فقتل. .

أخذت هند تصيح وتولول، وتستثير الهمم والعزائم، وتهدد بأنها ستتقدم لتحمل اللواء ما دام الرجال قد عجزوا عن حمله، وما داموا يتراجعون أمام هجمات المسلمين، وبينما هى فى عنفوان ثورتها وهياجها، سمعت وحشى يصيح: «لسوف أقتل حمزة. . إننى موكول به هذا اليوم برغم ما نعانيه من جهد، وما نتكبده من مشاق وخسائر أمام المسلمين. .».

تضايقت هند بعض الشىء، كانت تتمنى أن تسمع عن مصرع حمزة لا التهديد بقتله، هؤلاء الرجال يتكلمون كثيراً، ويبذلون الوعود، وهم كثيرون، ومجهزون بأقوى الأسلحة، ومع ذلك فهى تراهم يتقهقرون ويقتلون. . ما جرى؟؟ هل هناك قوة خفية تحمى محمداً ورجاله؟؟ لو كان الأمر كذلك فلن تروى ظمأها للثأر، ولن تجدى أية معركة.

وأخذ وحشى يعد حربته ليصوبها نحو حمزة، كانت يد وحشى ترتجف، إنه يشعر بخوف ظاهر، وضيق بالغ يكاد يكتم أنفاسه، الحرب محتدمة الأوار، وفى إمكانه أن يجرب حظه، لكن يده ترتجف. . إحساس بالذنب يؤرقه، إنه يحارب ومن ثم فإن قتل عدوه أمر طبيعى لا يعتبر خطيئة، لكن إرادته تكاد

تكون مشلولة، «يا إلهى» أترى يكون محمد على حق، ونحن على باطل؟؟ وأخذ يستعيد كلمات محمد، وبعض الآيات التى يتناقلها الناس، ويبحث فيها عن شىء يدين محمد، لكنها كلمات طيبة.. سلسلة.. لا غبار عليها.. لا فرق بين سيد وعبد، الله واحد أحد، إن أكرمكم عند الله أتقاكم بالعهد أوفوا بالعهد.. استوصوا باليتامى والعبيد والضعفاء خيراً.. جنة ونار. وعقاب وثواب.. وأنبياء وملائكة.. والله.. الإنسان.. الشيطان.. العدالة.. الإخاء.. لكن لماذا الحرب؟؟ ولماذا الدماء؟؟ ومن المسئول عن هذا كله؟؟

ودفعه مولاه جبير فى ظهره قائلاً: «لماذا تقف هكذا؟؟ هل عجزت عن اصطياد حمزة أيها الجبان؟؟ يبدو أنك لست أهلاً للحرية».

ورنت كلمة «الحرية» فى رأسه، فهزت جسده كله، ودق قلبه فرحًا.. الحرية.. يا لها من كلمة سحرية يضحى فى سبيلها بكل غال، لقد عاش طول حياته عبداً ذليلاً، ويؤمر فيطيع، ويسهر على راحة السادة، ويؤدى أحقر الأعمال.. هل فى الإمكان أن يتخلص من هذا الذل والعار؟؟ أهو حلم أم حقيقة؟؟ أيصير حقًا رجلاً حراً مثل باقى الناس، يأكل ويشرب وينام ويعمل حسبما يريد؟؟ إنه لأمل حلو طالما داعب حلمه فى ليالى الأسى والأرق والسهاد..

وسمع من خلفه صوت هند: «إن الحرية يضحى فى سبيلها بالحياة نفسها، فما بالك تتراخى وتتكاسل وأنت تجيد تسديد الرمية، وستنال حريتك، وقدراً كبيراً من المال والأغنام والإبل..».

أمسك «وحشى» بحربته، ورأى حمزة يضرب بسيفه يمنة ويسرة، يصرع الرجال، ويجندل حملة اللواء، والكلمة السحرية «الحرية» تطن فى رأس «وحشى»، فلا يكاد يرى أمامه إلا الحرية، وحمزة.. إن بينه وبين الحرية مسافة قصيرة، وحركة دقيقة.. ويولد من جديد.. يصبح «وحشى» العبد.. «وحشى» الحر.. يتزوج ويتناسل ويهب للوجود ذرية من الأحرار الشرفاء.. لم يكن فى ذهنه المشوش فى تلك الأوقات العصيبة وسيلة للحرية غير هذه الوسيلة السهلة وهى أن يطلق حربته..

وانطلقت الحربة..

أصابت أسفل بطن حمزة.. فسقط شهيداً..

لحظات سريعة مليئة بعديد من الانفعالات الهادرة.. هند تطلق عقيرتها بصيحات الفرح والسعادة الكبرى، وجبير يربت على كتف وحشى مهنئًا إياه بالحرية.. والنسوة يتحلقن حوله يطرين شجاعته، ويفضن عليه من الثناء العظيم.. ووحشى

صامت مفتوح العينين فى ذهول، وكلمات كثيرة تطن فى أذنيه، ويفتح وحشى فمه فى بلاهة، ويحاول أن يتكلم فلا يستطيع . . هل أصبح حرًا؟؟ وبماذا يشعر الآن؟؟ هو يعلم أن الحرية جميلة، لكنه لا يرى غير حمزة الشهيد والدم ينزف منه، وتهليل هند وصخبها، وثناء جبير وتمجيده لعمله، هل هذه هى مظاهر الحرية، إن قلبه ينزف دمًا خفيفًا، وإحساس بالذنب يلجم لسانه، ويغشى عليه عينيه، ويوشى روحه بالأحزان . . وينصرف الناس عنه فى غمرة الأحداث، وتولول هند فى تعاسة وهى تسمع أحد الأنباء، لقد سقط الرجل التاسع من حملة اللواء، ثم تتقدم امرأة لتحمل لواء المشركين .

تصدعت صفوف المشركين، وأخذت جموعهم تتراجع أمام ضربات المسلمين القاصمة وعاد وحشى أدراجه هاربًا لا يلوى على شىء، لكأنه فقد السيطرة على نفسه، ولم يعد بإمكانه أن يفكر التفكير السليم . . كان إلى الجنون أقرب، وصيحات التكبير تصم الآذان، فاندفع فارس مسلم يحمل سيف الرسول، نحو إنسان عنيد يحرض المشركين على الثبات والقتال، فحمل عليه بالسيف، فإذا هند بنت عتبة زوج أبى سفيان تولول وتستغيث : «الرحمة يا أبا دجانة . . » .

قال أبو دجانة، وهو يبتعد عنها : «ما كنت لألوث سيف

الرسول بدم امرأة . . حتى ولو كانت هند الحاقدة زوج قائد المشركين . . ».

واستطاع المسلمون أن يجلوا المشركين عن معسكرهم، وأن يحيطوا بنسائهم، أما وقد وصل المسلمون لهذا الحد، فقد توقفوا عن المطاردة، وعادوا يجمعون الغنائم ويترنمون بالنصر العظيم . .

وصاح أحد الجنود المسلمين من الرماة الذين وقفوا بأمر الرسول يحمون ظهر قواتهم ويمنعون خالد بن الوليد وفرسانه من تطويق المسلمين : «أيها الرجال . . لم تقيمون ها هنا فى غير شىء؟؟ وقد هزم الله عدوكم، وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم، لم نلحق بهم؟؟».

وصدرت عبارات ترحيب من الرماة تأييداً لكلام صاحبهم، غير أن قائد الرماة صاح : «لن أترك مكانى، وقد أمرنى رسول الله ألا أغادره لأى سبب».

قال أحد الرماة وقد هزته نشوة النصر : «نحن لا نخالف أمر الرسول . . لقد انتهت المعركة، فنحن فى حل من البقاء فى أماكننا أو تركها . . ».

وهرولوا صوب معسكر المشركين ليشاركوا فى جمع الغنائم، أما قائد الرماة فقد أبى أن يغادر مكانه، وكذلك بقى

معه نفر دون العشرة، وتمتم قائد الرماة: «إنه عصيان لرسول الله . . حاشا أن أعصيك يا سيد البشر . . ولو خلف الهاربون وراءهم قناطير من الذهب والفضة . . » .

وأخذ يردد بضع آيات عن الصبر والجهاد والاستشهاد، وبينما هو كذلك . . إذ وجد على حين غرة عدداً كبيراً من جنود المشركين يقودهم خالد بن الوليد- وكان يقود ميمنة قريش - وجدهم يقومون بحركة التفاف مباغتة حول المسلمين من الخلف، ولا يستطيع قائد الرماة والنفر الذين معه أن يصدوهم، ويصيح خالد بأعلى صوته طالبًا من فلول المشركين الهاربين أن يعودوا إلى أماكنهم، فقد حصر المسلمون بين فكى أسد . .

ويقع المسلمون فى الكمين الذى نصبه خالد، وتحتدم المعركة من جديد . .

□□□

الفصل [١٥]

تطلع عمر بن الخطاب إلى الميدان الرحب، تحت أقدام الجبل المهيب، فوجد طائفة من جنود المسلمين مازالوا منهمكين فى جمع الغنائم، ووجد حشود قريش تعود أدراجها وتحاصر المسلمين من كل جانب، وتوقع فى صفوفهم البلبلة، وتشتت تجمعهم، فلا يكادون يفتحون عيونهم حتى يجدوا أن النصر الذى حققوه فى شطر المعركة الأول قد تبدد وأن الدائرة تكاد تدور عليهم، وهجم المشركون على المسلمين فى عنف واستماتة، واختلط الحابل بالنابل، وظهر تفوق المشركين من ناحية العدد والعدة ومن ناحية الموقع الذى ارتكزوا عليه أخيراً.. وأخذ المسلمون يناضلون من أجل الخروج من الحصار المضروب حولهم.. وكان الرسول ضمن المحاصرين.. إن ترك الرماة أماكنهم، وانصراف جنود المسلمين لجمع الغنائم بعد ظنهم أن المعركة قد انتهت، هذان العاملان قد أوقعاهم فى مأزق حرج..

واستطاع أحد المشركين أن يصيب الرسول بحجر فى وجهه، واشتدت الحيرة والارتباك بالمسلمين، وظلوا يجادلون للخروج من المأزق، إن على بن أبى طالب يحرس الرسول بكل جوارحه، وأبا دجانة يتلقى النبل عنه، وسعد بن أبى وقاص يرمى دونه، حتى تلك المرأة الخزرجية نسيبة التى خرجت يوم المعركة لتسقى المسلمين، رمت بسقائها وانتضت سيفًا، وأخذت تنافح عن النبى الذى أمسك بحربة، وظل يضرب بها يمينًا ويسارًا فى شجاعة واستبسال نادرين. . لقد كان موقفًا ميئوسًا منه، لكن الإيمان القوى، والثقة بالله دفعت الرجال المحصورين، القليلى العدد يمضون فى نضالهم فى تلك الظروف السيئة. .

وسمع عمر بن الخطاب أحد المشركين يصيح بأعلى صوته: «مرحى. . مرحى. . لقد قتلت محمداً. . ».

دارت الأرض بعمر، وأظلمت الدنيا فى عينيه، يا إله السماوات والأرض!! أحقًا مات محمد نبيك وحبيبك؟؟ وكيف يحدث ذلك؟؟ أيهزم المؤمنون، وينتصر المشركون؟؟ أحقًا مات محمد؟؟ وألقى عمر بجسده المنهك المليء بالرضوض والسحجات، وظل جامداً ذاهلاً، ما معنى أن يحدث ذلك؟؟ كيف يصدق؟؟ وماذا يحدث للإسلام والمسلمين؟؟ والمستقبل؟ وكلمات الله إلى الناس تلك الكلمات الموحاة إلى نبى الله. . ونور الرسالة الإلهية التى

أخذت تفيض بالحب والهداية والعدل والحرية . . هل يتحول ذلك إلى هباء . . وذكريات . . وأحزان مرهقة . . لماذا لم ألقَ الشهادة مع من سقط فى ميدان الجهاد فأنجو من هذا العناء النفسى الذى لا مثيل له؟ . . إننى أتعس رجل فى الوجود . . يا عذاب الملايين التى كانت تنتظر الخلاصة والهداية على يديك يا محمد . . يا شقاء العبيد والمظلومين والمعدمين الذين كانوا يحلمون بفجر السعادة والإخاء . . أحقًا انتهى كل شىء؟؟ أيعلو «هبل» وتنتصر اللات والعزى؟؟ ويعود كبراء مكة وسدنة البيت يضربون القداح، ويؤدون الشعائر الميتة، ويقرعون الكئوس، وينحرون الجزر ، وتصبح الدعوة الإسلامية، مجرد خبر يجرى على ألسنة الرواة، وقصائد الشعراء فى ليالى السمر، وأعياد عكاظ؟؟ لماذا . . لماذا لا ينصر الله عباده المؤمنين؟؟ اللهم لا اعتراض على حكمك، اللهم إن نصرك لا ينزل إلا لمن يعمل وفق أوامرك ونواهيك، أتراه عقابًا أنزلته بمن انصرفوا عن الواجب الأسمى إلى غنائم الدنيا؟؟ إن الموت لأروح من هذا العناء الذى أقاسى منه . .

وسمع عمر صوتًا يهتف به وبمن يجلسون بالقرب منه : «ما يجلسكم أيها المسلمون؟؟».

قالوا فى أسى ولوعة والدموع على الأهداب: «قتل رسول الله . . ».

قال وهو ينظر إليهم واحداً واحداً، ويطيل النظر إلى عمر: «فماذا تصنعون بالحياة بعده؟؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه..».

رنت هذه الكلمات فى أذن عمر فأيقظت حواسه ومشاعره، «فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟؟» يا لها من كلمات صادقة!! لقد آمنا بك يا محمد، وتغلغل حب الله فى أعماقنا وخالط نفوسنا وفكرنا، أيمكن أن تنال الهزيمة من هذا الإيمان، أو تخرج عن دائرة الصدق والثقة؟؟ لقد كنت يا محمد على حق حيًا وميتًا.. وموتك لن يغير من عظمة الدعوة الكبرى التى حملتها لبنى الإنسان..

وانتضى عمر سيفه، ومعه أصحابه، وعادوا إلى المعركة يناضلون فى ساحة الشرف والجهاد وهم أشد ما يكونون شوقًا للموت، وطربًا له، لو لم يكن فى الموت سوى اللحاق برسول الله، والاستشهاد فى سبيل الحق، لكان حقيقًا بالبحث عنه، والارتماء فى أحضانه، ولن يستسلم المؤمنون لشرذمة الشرك مهما كان الأمر..

تطلعت هند إلى الهجوم الكاسح الذى تقوم به قريش، ثم تابعت سقوط عدد من أبطال المسلمين وهم يستميتون فى الحرب، فرقص قلبها فرحًا، وأخذت ترقص من جديد وتغنى

وترتجل الأرجاز، وتترنم بالأشعار، وتثير الهمم والعزائم، ثم أخذت تثرثر: «اضربوهم ضربة رجل واحد.. مزقوا شملهم.. اعل هبل.. احتزوا رأس أبى بكر وحطموا جمجمة عمر وأريقوا دم محمد بن عبد الله.. لا تبقوا منهم على أحد.. مثلوا بهم أشنع تمثيل.. أذيقوهم الذل والهوان حتى لا تقوم لهم بعد اليوم قائمة..».

وسمعت ذلك الصائح الذى يقول: «لقد قتل محمد» فوثبت من الفرحة، وبرقت فى عينيها ومضات الشر والشماتة، وأخذت تردد فى جنون: «قتل محمد.. قتل محمد.. مرحى.. مرحى.. قتل حمزة.. مرحى.. مرحى.. قتل عمر وأبو بكر..» ومضت تترنم من جديد:

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

أسكرت حلاوة النصر جموع المشركين، فاندفعوا مبهورين يضربون يمنة ويسرة، ويغوصون داخل صفوف المسلمين، ومع ذلك استطاع الرسول ومن معه أن يخترقوا الحصار، وأن يلوذوا إلى ربوة، وأشرق محمد بوجهه على الصحاب الذين يناضلون فى استماتة، وسمع المسلمون الصحابى كعب بن

مالك ينادى بأعلى صوته: «يا معشر المسلمين.. أبشروا.. هذا رسول الله..».

ونظر عمر فرآه.. رآه يخرج من المعمعة مرفوع الهامة، لم تستطع الدماء التى تنزف من وجهه أن تخفى الإشراقة النبوية فى قسماته، ولم يستطع غبار المعركة الدامية أن يطفئ صفاء عينيه، أو يهد من قواه.. رآه عمر فهتف فى شوق: «بنفسى أنت يا رسول الله.. أما وقد سلمت فكل شىء فى الحياة يهون.. أيها المسلمون شدوا عليهم.. والنصر مع الصبر..».

وعاد عمر يضرب بسيفه..

سمعت هند صيحة الفرح والاستبشار بنجاة الرسول، فدمدمت فى شك: «هذا كذب.. الدائرة تدور على المسلمين، وهم يحاولون إيقاظ الهمم، وإثارة العزائم بهذه المغالطة الفاحشة.. لقد قتل محمد وانتهى أمر المسلمين.. لكنهم يأبون إلا أن يشيحوا بوجوههم عن لقاء الحقيقة المرة.. ها.. ها.. إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق..».

وردت عليها امرأة: «لكنى يا هند بنت عتبة رأيت رجلاً يشبه رسول الله..».

أهوت هند على وجه المرأة بكل ثقل كفها قائلة: «اخسئى

يا ملعونة . . لقد بطل سحر محمد إلى الأبد . . لقد رآه رجالنا بأعينهم يسبح فى بركة من الدماء . . فلا تذيعى قالة السوء هذه . . إن قاتله حدثنى بذلك . . » قالت المرأة وهى تضع يدها مكان الصفعة: «صدقت يا هند . . إن غبار المعركة يرسب فى العين صوراً لا أساس لها من الصحة . . » أما وحشى، فقد لجأ إلى مكان منعزل يطوى قلقه وهمومه، ونسيته هند، ونسيه مولاه حين اشتد أوار المعركة، لقد أدى دوره، أما شخصه فلا يهمهم فى قليل أو كثير بعد ذلك . .

ونظر خالد بن الوليد من فوق جواده، إنه يرى كبار الصحابة متجمهرين لدى الربوة التى آوى إليها الرسول، ووجدهم يحشدون صفوفهم، ويستأنفون جهادهم العنيد من جديد، فانقض عليهم ومعه المجموعة الكبيرة التى رافقته . .

وانبرى عمر وأصحابه . . الزبير وعلى وأبو بكر وغيرهم لكتيبة خالد . .

كان عمر يضرب بسيفه، وفى الوقت نفسه يستغفر الله على ما بدر منه من جموع ويأس أبان انتشار نبأ مقتل الرسول . .

قال أبو سفيان لمن حوله من رجالات قريش: «لقد انتقمنا ليوم بدر انتقامًا رائعًا، وأرى جنودنا قد أرهقهم الكر المتواصل، وما أظنهم قادرين على مواصلة الحرب أكثر من ذلك . . ».

قالت زوجه هند وقد سمعته عن كثب: «ماذا تقول يا رجل؟؟ لابد من القضاء على المسلمين قضاءً مبرمًا بحيث لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك.. أتريد أن تعطيهم فرصة أخرى ليتجمعوا بعد بضعة أشهر، وينقضوا علينا للثأر؟؟».

ورد عكرمة بن أبي جهل قائلاً: «إن زوجك على حق يا أبا سفيان.. هل خرجنا لنقتل بعض المسلمين ثم نعود أدراجنا أم جئنا لنضع حداً للمتاعب التي نقاسيها من جراء سيطرة محمد؟؟».

قال أبو سفيان إصرار: «لقد قتل محمد وعمر وأبو بكر.. وأكثر من سبعين نفرًا من كبار المسلمين المهاجرين والأنصار، كما انشق عبد الله بن أبي قبل بدء المعركة، فهل تعتقدون بعد ذلك أن تقوم للمسلمين قائمة؟؟».

ورضخ المشركون لأوامر قائدهم أبي سفيان، فكفوا عن الاستمرار في القتال، وقد صادفت أوامره هوى في نفوسهم بعدما عانوه من مشاق، وهزيمة مرة في الفترة الأولى من الحرب، ألا يكفيهم ما حققوه من نصر؟؟

وعاد المسلمون إلى مكان قريب يضمدون جراحهم، ويداوون ما يشعرون به من أسف لما حاق بينهم من هزيمة في شطر المعركة الثاني.. إنهم في حاجة إلى الهدوء والراحة

وإعادة النظر فيما جرى . . بل لعلهم كانوا فى مسيس الحاجة إلى الاتجاه من جديد إلى باب الله بأرواحهم وعقولهم ، أهناك خلل ما فى بنيانهم النفسى والسلوكى؟؟ وبينما كان المسلمون يستغفرون ويتوبون إلى الله ، ويستمعون إلى كلمات الرسول ، تلك الكلمات التى تزيل ما علق بقلوبهم من كرب وهم ، بينما كان المسلمون يفعلون ذلك ، كانت هند بنت عتبة ، وزوجة القائد أبى سفيان بن حرب ، تتجول بين جثث الشهداء من المسلمين باحثة عن حمزة بن عبد المطلب ، فقد أقسمت ونذرت أن تمثل بجثته ، وتلوك كبده بين أسنانها ، وتشرب من دمه ، لعل ذلك يطفئ نار الحقد التى كانت تأكل قلبها . .

رآها زوجها أبو سفيان فى صورة وحش بشرى ، الدماء تغرق شدقيها ، ويداها تعبثان بأحشاء الشهيد ، وبعض النسوة الأخريات يفعلن مثلها : «ماذا تفعلين يا هند؟؟» .

- «أحقق الأمل الحارق الذى يضطرب فى قلبى منذ مأساة بدر . . » .

- «هذا لا يليق بالكرماء من العرب . . » .

صرخت فى حدة : «اذهب عنى . . » .

ثم دفعته بيديها الملوثتين إلى الوراء ، فمضى ساخطًا . .

وقبل أن يعود أبو سفيان على مكة ، أشرف على الجبل ،

فنادى بأعلى صوته موجهًا حديثه إلى المسلمين: «أفيكم محمد؟؟».

فلما لم يجيبوه، استطرد يقول: «أفيكم ابن أبى قحافة أبو بكر؟».

لكنه لم يسمع جوابًا لسؤاله الثانى، فقال مرة ثالثة: «أفيكم عمر بن الخطاب ؟؟».

وعندما فوجئ بالصمت، قال فى سعادة: «أما هؤلاء فقد كفيتموهم.. لقد قتلوا.. وانتهى الأمر..».

فلم يتمالك عمر بن الخطاب نفسه، لقد هب واقفًا، ونادى بأعلى صوته: «يا عدو الله..

إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله لك ما يسوؤك..

وإن محمداً يسمع كلامك الآن..».

قال رجل من قريش ممن يدركون الأمور جيداً: «إذن فالمعركة لم تنته بعد، وما حققناه من نصر لا يعتبر أمراً ذا بال..».

قهقه أبو سفيان ساخراً، ثم قال: «إنه ليس أمرًا هينًا.. لقد هزمنا رجلاً يقول: إنه نبى مرسل من عند الله.. وهذا كثير.. إن هذه الهزيمة التى منى بها المسلمون لها ما بعدها، لسوف

تزعزع الثقة فى نفوس المؤمنين برسالة محمد، ولسوف يترك الحزن طابعه على كل بيت من بيوت المدينة.

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه، نادى من جديد: «وإن موعدكم بدر العام القادم».

فقال الرسول لرجل من أصحابه: «قل نعم.. هو بيننا وبينك موعد..».

وتمتم عمر فى ثقة: «ولن نخلفه بإذن الله..».

وعلم الرسول بما جرى لعمه حمزة بن عبد المطلب، وما ارتكبته هند فى حقه من تمثيل وعبث بجثته، فتمتم الرسول، وعبرة تتسلل من بين أهدابه: «سيد الشهداء حمزة..».

وعادت قريش تنحر الجزر، وتقيم المآدب، وتدق الطبول، وتسقى الخمور، وتترنم بقصائد الفخر والمديح.. من أجل نصر تافه لم يحسم أمراً..

ولم يخف جوهر الأمر على عمر، فقد همس فى أذن أبى بكر: «لماذا تحزن يا ابن قحافة؟؟ أنا أعرف أن قريشًا انتصرت كما يبدو ظاهرها، لكن ألا تعتبر نجاتنا من الفناء الكامل، وانسحاب جنودنا دون أن نخسر سوى عُشْرهم. ألا تعتبر هذا بالنسبة لنا نصراً كبيراً؟؟ إن الرسول لم يزل بيننا، وإيماننا بالله لم يتزعزع، وجبريل ينزل بالوحى يشرح الأمر، ويستخلص

العبر والدروس، كان لابد أن يحدث شيء من هذا القبيل . . إن يمسنا شيء من الأسى والنكد والتعب حتى نتعظ ونتعلم . . لقد علمنا أن قريشًا ستعود وتكر على المدينة غداً . . وسنخرج إليهم . . ألا ترى أن خروجنا يعني أننا لم نزل قوة بحسب حسابها، وأن الهزيمة الظاهرة ليس لها تأثير يذكر على إيماننا الذي لا يتزعزع بالله وبرسوله وبكتابه؟؟».

هز أبو بكر رأسه قائلاً: «إن كلماتك مقنعة يا عمر ومريحة . . رضينا بقضاء الله وقدره . . والله مع الصابرين . . «إن ما حدث كان ابتلاء من الله وامتحانًا . . وتمحيصًا للمؤمنين.

□□□

الفصل [١٦]

فى مكان يقال له «الروحاء». بين مكة والمدينة وفد إلى أبى سفيان رجل. قال له: «إلى أين يا أبا سفيان؟؟».

- «نحن عائدون إلى مكة، وقد ضربنا المسلمين أمس ضربة ساحقة..».

قال الرجل: «إنك تهون من أمر المسلمين، وتشمخ بنصرك المزعوم..».

تغير وجه أبى سفيان، ونظر إلى الرجل مستفسراً، وقال: «ماذا تعنى؟؟».

- «ليكن معلومًا لديك يا أبا سفيان أن محمداً قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط، وكان قد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه، وكلهم أشد ما يكون عليكم حنقًا، ومنكم للثأر طلبًا..».

تمتم أبو سفيان: «فى جمع لم تر مثله قط؟؟».

- «أجل. . ».

- «وأنا الذى ظننت أنهم لن تقوم لهم قائمة قبل فترة طويلة؟؟ أفى اليوم التالى للهزيمة يحشدون الحشود، وينهضون للحرب؟ إنه لأمر خطر. . ».

وقال الرجل لأبى سفيان: «إنه لنصر أبتر، وفرحة لم تتم، ومن ينظر إلى الأمور يجد أن المسلمين لم يخسروا سوى سبعين قتيلاً. . وهذا عدد قد يقضى عليه أى وباء فى يوم واحد. . وغدًا تنقلب هزيمة محمد إلى نصر، ويخرج أصحابه من المحنة القاسية أصلب عودًا، وأقوى إيمانًا، وأكثر عددًا. . ».

فكر أبو سفيان فى الأمر مليًا، أيعود إلى الحرب من جديد الآن؟؟ وكيف؟ الرجال مجهدون وقد رضوا بما فعلوا، وثأروا لقتلى بدر، وشفوا غليلهم بتمثيلهم بالقتلى من للمسلمين، وأكلوا وشربوا وطربوا، وترنموا بالقصائد، ورفعوا رأس «هبل». فوق أعلى جبل. . إن الرجال يريدون العودة إلى مكة، واستئناف حياتهم، وليس هذا هو المهم، أخطر ما فى الأمر هو هذا السؤال: ماذا تكون النتيجة لو ابتدأنا المعركة من جديد؟؟ هل يستطيع الرجال المرهقون الثمالى بخمرة النصر أن يحافظوا على انتصارهم؟؟ وهل سيرتكب المسلمون نفس

الحماقة التى ارتكبها الرماة وجامعو الغنائم حينما تركوا أماكنهم، وأتاحوا لنا الفرصة الذهبية التى لا تتكرر؟؟ أكبر الظن أن المسلمين سيكونون هذه المرة أقوى شكيمة، وأشد حذراً، وأكثر منا إصراراً على النصر ومسح أثر الهزيمة، والانتقام لشهدائهم، ولمن مثلنا بهم.. وتمتم أبو سفيان: «ألا إن العودة إلى الحروب مغامرة قد تؤدى إلى كارثة، وتمحو النصر العظيم الذى حققناه أمس.. يجب أن نعود إلى مكة، ونترك الهزيمة تفعل فعلها فى محمد وصحبه.. يجب أن نعود إلى مكة بالنصر الذى حققناه، ونزف إلى أهلها بشرى الأمل الذى عاشوا من أجله منذ مأساة بدر..».

لكن أبا سفيان لم ينسَ أن يلعب لعبة جديدة، لقد دس إلى محمد من يذهب إليه ويخبره بأن أبا سفيان سيعود لحرب المسلمين فوراً، ومعه مدد ضخم أتت به قريش، وأبو سفيان يقصد وراء ذلك إثارة الخوف فى قلوب المسلمين، وتحطيم معنوياتهم، لعلهم يعودون إلى المدينة.. ثم انطلق عائداً إلى مكة ومعه أنباء النصر، ومقتل حمزة وغيره من عظماء المسلمين..

كان عبد الله بن أبى قابعًا فى المدينة بعد أن انسحب بجيشه، وترك المسلمين وحدهم يجابهون عدوهم بعددهم القليل، وظل عبد الله يتنسم الأخبار، ويسأل عنها الركبان، وقد فاضت نفسه

غبطة حينما علم بما حاق بالمسلمين من انكسار فى النهاية، لقد كان قلبه يرتجف حقدًا حينما علم بأنباء الانتصارات الأولى، لكن سماعه بمصرع حمزة قد أثلج صدره.. وما إن علم بالانكسار الأخير للمسلمين، حتى وثب كطفل، وأخذ يصفق بيديه فرحًا، وهتفت زوجه: «ماذا جرى لك؟؟».

- «الكبرياء الفارغة..».

- «ماذا تقول؟؟».

- «وقصر النظر..».

- «إننى لا أفهمك يا عبد الله..».

- «وغرور ابن الخطاب.. كل تلك الأسباب قادت المسلمين إلى الهاوية..».

صاحت زوجه فى خوف: «هل أصاب محمدًا مكروه؟؟».

قهقه فى شماتة: «تقول الأنباء أنه قد قتل..».

صرخت: «إنهم يكذبون..».

هتف فى دهشة: «وماذا يضيرك يا امرأة..».

- «إنه بر أمين، صادق كريم، يعطف على المساكين، ويبش فى وجوه الجميع، إنه رسول الله..».

ضحك ساخراً وقال: «ويزعمون أن ابن أبى قحافة، وابن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب، كل هؤلاء قد قضت عليهم سيوف قريش..».

ورأى الدموع تتجمع فى عينيها، فاستطرد: «لقد توهم محمد أن النصر يأتى بالدعوات والضراعة إلى الله، وحسب أن حفنة من رجاله قادرون على سحق قريش ذات العدد الوفير، والتاريخ الطويل، والمجد التليد.. والحرب هى الحرب يا امرأة.. وهى لا تخرج عن كونها عقولاً، ورجالاً، وسلاحًا وما عدا ذلك من ضراعات ومزاعم وكبرياء لا تشكل أى تأثير فعال.. أتفهمين؟؟».

وأخذ يشرح لها كيف أن اليهود قد تناسوا ما حاق بهم من أذى على يدى محمد، وأظهروا رغبة أكيدة فى رد عدوان قريش، ومع ذلك فقد أبى محمد إلا أن يسلموا أو يعودوا، فعادوا..

- «ماذا كسب محمد من وراء ذلك؟؟».

قالت زوجه: «إن للقائد أن يختار الجنود الذين يثق فيهم، ويرتاح لإيمانهم وخبرتهم..».

قال عبد الله فى ثورة: «الوقت ليس وقت اختيار يا حمقاء.. إن أمن المدينة على شفا الهاوية، والدمار الشامل

يكاد يحيق بها، والقائد الألمعى هو الذى يعرف كيف يحشد كل الطاقات لكسر شوكة العدو فى الظروف العصيبة..».

قالت زوجه: «ولم لا تقول أن القائد الألمعى هو الذى يعرف كيف يختار جنوده المؤمنين به وبرسالته؟؟».

وعاد عبد الله يقهقه فى سخرية: «هؤلاء الجنود المؤمنون قد تركوا مواقعهم فوق الجبل، وتسابقوا لجمع الغنائم، فأحاطت بهم قريش من كل جانب، وأذاقتهم مرارة الهزيمة.. أهذه هى الألمعية؟؟».

- «إنك تعرف يا عبد الله كيف تدير دفة الحديث، وكيف تحقر أفكارى ثم تسفهها.. كل ما أعرفه هو أن محمداً يتصرف بحكمة، ويخطو فى حذر، ويستلهم الله فى كل حركاته وسكناته.. والله لن يضيعه..».

وتذكرت فجأة ما قاله زوجها منذ لحظات، فهو يزعم أن محمداً قد قتل، وقتل معه غيره من أصحابه، إن هذا الخبر وحده كفيل بأن يحطمها، ويزلزل فكرها، ومع ذلك فقد مضت فى حوارها مع زوجها، إن هاتفًا داخليًا يؤكد لها أن محمداً حى يرزق، وأن رواة الأخبار يكذبون، لسوف تخرج إلى باب البيت، وتسأل عن محمد، وارتدت ملابسها،

وأسدلت قناعها على وجهها، وعزمت على الخروج، فقال زوجها: «إلى أين؟؟».

- «أسأل السائرين فى الطرقات عن أنباء محمد».

- «أنا لا أكذب . .».

- «لكن رواة الأخبار قد يكذبون يا عبد الله . .».

- «أحرى بك أن تسألى ولدك الذى يحارب إلى جوار محمد . .».

وجدت الشارع يموج بالأطفال والنساء والرجال، وسمعت من يقول إن محمداً عائد إلى المدينة ليلم الشمل ويعيد تنظيم قواته، ليستأنف المعركة من جديد . .

صاحت فى فرح: «ألم يقتل محمد؟؟».

رمقتها العيون فى عتاب، وهمس رجل: «زوجة ابن أبى تظن أن محمداً قتل . . أليس هذه هى أمنية زوجها؟؟».

وصاح رجل بأعلى صوته: «إن الرسول بخير، وأبا بكر بخير . . وعمر بخير . . وقد استشهد حمزة . .». وتبللت عيناها بدموع الفرح، وهتف: «حمداً لله على نجاتك يا رسول الله . .».

ثم عادت تسأل: «وهل يعود الرسول وجنوده لاستئناف الحرب فعلاً؟؟».

- «أجل . . ».

مرحى . . مرحى . . إن ذلك يعنى أنهم بخير ، وأنهم أقوى من الهزيمة والغدر . . » . وجرت إلى الداخل مهرولة ، فتعثرت فى ثيابها الضافية وانكفأت ، ثم نهضت ، وهى تصيح : «يا عبد الله . . يا عبد الله . . ألم أقل لك : إن محمداً بخير ؟ ؟ وكذلك عمر وابن أبى قحافة . . إنهم يستعدون لمواصلة الحرب . . ».

خرج من حجرته بوجه محتقن مكفهر ، وقال فى دهشة : «ماذا؟؟ من أين أتيت بهذا الكلام؟؟» .

- «اخرج إلى الشارع لترى العجب . . إن الرسول يحشد قواته من جديد ليعود لحرب قريش . . » .

قال فى شرود : «يعود إلى حرب قريش؟؟ هل هذا معقول؟؟ هل بقى فى المسلمين ثمالة أمل ، ونفحة رجاء ، ونبض ثقة؟؟ إن العودة إلى الحرب تعنى أنهم ما زالوا أقوياء ، وأن الهزيمة لم تؤثر فيهم . . لكن العودة للحرب فى اليوم التالى للمعركة جنون مطبق . . » .

وفعلاً أخذ المسلمون يستعدون للقاء المشركين من جديد ، كان الرسول يرى أن يستأنفوا المعركة فوراً دون إبطاء ، فقد رأى فى عيون الجند ، وعلى ملامحهم سيما الإصرار والثقة

والتضحية، ثم إن رضوخه للهزيمة، وانتظاره لقريش كى تدهمه فى عقر داره بعد أن نالت ذلك النصر الساذج، أمر لا يمكن قبوله..

وأدرك عمر ما يدور فى ذهن الرسول، فقال لمن حوله: «سوف نعود لحرب قريش بإذن الله، إننا أقوى من الهزيمة الطارئة، وإننا نستعصى على أحقادها وتدابيرها، إن ما جرى ابتلاء من الله، وسننهض من هذه الكبوة، لنواصل النصر الذى وعد الله به عباده المتقين.. لن نستسلم أو تخور عزائمنا، أو يهد من إيماننا سقوط إخوة لنا شهداء، فى ميدان الجهاد والشرف.. إن عودتنا إلى النضال سوف تدفن فرحة الأعداء قبل أن تنمو، وسوف تلقى فى روع المنافقين والمشركين واليهود أننا لم نزل أقوياء، وأن المجال لن يُفسح أمام تآمرهم ودسائسهم.. إلى المعركة من جديد..».

وسمع عمر رجلاً عليه غبار السفر يقول: «قدمت من مكان تجمع فيه قريش رجالها وحديدها.. جاءهم مدد ضخم من مكة.. لم يقنعوا بالنصر الذى حققوه، إنهم يأبون إلا القضاء المبرم على المسلمين وخاصة عندما علموا بنواياكم.. أتيت ناصحًا مخافة أن تقعوا فى كمين قاتل.. خذوا حذركم.. وتجنبوا الصدام..».

تداول المسلمون الرأى، ونظر الرسول إلى الأمر فى تبصر، وأجمعوا على أن يبرزوا لقريش وهم فى كامل استعدادهم ورفع عمر وجهه إلى السماء، وأخذ يتمتم: «إلهى.. لولا هداك ما اهتدينا.. إلهى أنت تعلم أننا لم نبدأ بعدوان، ولم نخرج لطمع، ولم ننهض لظلم، ولا نتعشق الحرب أو سفك الدماء.. إننا يا إلهى نبذل النفس والنفيس من أجل رضاك.. فلتأخذ اللهم بأيدينا إلى طريق الحق والنصر، إنك على كل شىء قدير، وبالإجابة جدير..».

ولما علم عبد الله بن أبى بنية المسلمين، واستعدادهم للخروج، عجب غاية العجب، وقال لنفسه: «إن محمداً ورجاله يذهبون إلى حتفهم بأنفسهم، ويلجون فى العناد والمكابرة، فلو برزوا لقريش لأصابهم شر مستطير فلا تقوم لهم قائمة بعد اليوم، ولو كنت مكانهم، لاعتصمت بالحذر، ولجأت إلى الحل والدهاء، وقدمت لقريش من التنازلات ما يجعلها ترجع عنى.. أما اندفاع عمر، وحماسته المفرطة فستجر المسلمين إلى الوبال..».

وخرج جنود المسلمين، وهم من حضروا أحداً فقط، ومضوا إلى «حمراء الأسد». فى الطريق بين مكة والمدينة، وهى تبعد ثمانية أميال عن المدينة.. وأخذوا يستعدون للقاء قريش..

لكن قريشًا كانت قد فرحت بنصرها المبتور الساذج، ورجعت إلى مكة لتزف البشرى وتقيم الأفراح . .

وبقى الرسول وأصحابه أيامًا ثلاثة، وعندما تيقنوا من خبر رحيل قريش، عادوا إلى المدينة، وهم أحسن حالاً وأقوى شكيمة، ولم تستطع الأحداث الجسام، ولا الهزيمة الطارئة، أن تنال من إيمانهم، أو تزعزع من ثقتهم بالله ورسوله .

❑❑❑

الفصل ١٧

استمد المسلمون من الهزيمة قوة دافعة، فأخذوا يتدارسون أخطاءهم، ويناقشونها فى وضوح وصراحة، وعادوا لتجميع قواهم، واستكمال استعداداتهم، ولم تنم عين الرسول عن مراقبة ما يجرى حوله من انتقاضات يقول بها المنافقون واليهود، ومن تحلل من العهود ترتكبها بعض القبائل المجاورة، وخاصة تلك القبائل التى علمت بما جرى يوم «أحد». ففكرت فى مداهمة المدينة، والاستيلاء على ما فيها من أسلاب، لكن الرسول أخذ يرسل السرايا والعيون إلى تلك القبائل مثل قبيلة بنى أسد، وبنى لحيان من هذيل، ويسدد إليهم الضربات القاصمة قبل أن ينقضوا عليه.

وذهل اليهود والمنافقون، وهم يرون بأعينهم أن محمداً أقوى من الاندحار، وفوق النكبات الطارئة، وأنه -هو ورجاله- أقوى مما يتصورون، وأن فناء الدعوة الإسلامية، والقضاء على رجالها حلم لن يتحقق لهم، وليس فى الإمكان

الآن -على الأقل- أن يحرضوا قريشًا على حرب جديدة، إن قريشًا ما زالت تتغنى وتنشد الأشعار لنصرها فى «أحد»، والمعركة كلفت قريشًا الكثير من المال والعتاد وبعض الرجال، فليس من المعقول أن تعود إلى الحرب بسرعة، فضلاً عن أن هزيمة المسلمين هزيمة ماحقة أمر يحتاج إلى وقت وجهد ومال كثير، لهذا عقد اجتماع حاسم فى مكان «يهود بنى النضير» -ضاحية من ضواحى المدينة- وحضر هذا الاجتماع كبير المنافقين عبد الله بن أبى، وحيى بن أخطب الزعيم اليهودى المعروف، مندوبًا عن يهود بنى قريظة، وعمرو بن جحاش، من كبار يهود بنى النضير، وفى هذا الاجتماع الحاسم، تدارس المجتمعون أمر المسلمين على ضوء الأحداث الجديدة، وما يجب عمله فى تلك الفترة الحاسمة قال حيى بن أخطب: «أرى أن معركة أحد، وما انتهت إليه، لم تحقق ما كنا نحلم به من آمال، لقد استطاع المسلمون أن يخرجوا من المأزق الحرج بخسائر لا تزيد على العشر، بل لعل انسحابهم بهذه الخسائر القليلة، يعتبر نجاحًا كبيرًا، لقد أخطأت قريش حين ظنت أن الهزيمة العسكرية البسيطة هى الهدف الأكبر، إن الوجود الإسلامى لن يخلصنا منه كسبنا لبعض المعارك، وإنما يُقضى على هذا الوجود تمامًا بهزيمة ماحقة، فكيف يكون ذلك؟؟».

قال عبد الله بن أبى: «أعتقد أنه لا يمكننا أن نعيد الكرة، ونجند الجنود، وندفع قريشًا لحرب محمد من جديد قبل عام على الأقل، وخلال هذا العام قد يستطيع محمد إعادة تجميع قواته وتدريبها، كما يستطيع أن يفكر بهدوء، وأن يتصيد القبائل الخارجة على إرادته، تلك التى نقضت العهود.. فالوقت إذن ليس فى صالحنا، وكذلك لا نستطيع التعجيل بحرب مدمرة..».

قاطعه حيى بن أخطب قائلاً: «ذلك هو الموقف، فكيف السبيل لضرب محمد؟؟».

تدخل «عمرو بن جحاش». قائلاً: «لم يزل ثأر كعب بن الأشرف يلح علينا بأخذه، ولم تزل مأساة يهود بنى قينقاع فى حاجة إلى من ينتقم لها، وإذا لم نبادر بفعل شىء حقيقى، فسوف يتمادى محمد فى الاستهانة بنا، واصطياد المناوئين له من رجالنا، ومن يدرى، فقد يصيبنا ما أصاب يهود بنى قينقاع.. أيها الأصدقاء.. ما دمنا غير قادرين على جمع جيش جديد، وإشغال محمد بمعركة أخرى ساحقة فى هذا الوقت، وما دمنا نرى أن الوقت ليس فى صالحنا، فليس هناك غير شىء واحد ممكن عمله الآن..».

قال حيى بن أخطب وعبد الله بن أبى فى صوت واحد: «ما هو؟؟».

- «هذا الشيء لن يكلفنا حشد جيوش، ولن يحتاج لوقت طويل، أترانا لو استطعنا أن نقهر الإسلام والمسلمين دون جيش لجب، وبلا وقت طويل أفلا نكون قد بلغنا ما نحلم به؟؟».

ابتسم عبد الله بن أبى فى دهاء، وكأنه يعلم ما يجرى فى رأس «عمرو بن جحاش». وقال فى هدوء من يدرك الحقائق: «نريد أن توضح لنا الأمر..».

تربع عمرو، وقال: «لابد من قتل محمد..».

هتف حيى بن أخطب: «قتل محمد؟؟.. يا لها من كلمة سهلة!! وما أخطرها عند التنفيذ..». لم يعر عمرو بن جحاش كلامه التفاتًا، ومضى يقول: «عندما يموت.. ينتهى كل شيء.. سوف يتمزق المسلمون أيدى سبأ، ولسوف يفر المهاجرون بجلودهم قبل أن يريق الأنصار دمهم، وسينسى العرب قرائنهم وأيامهم الحالكة السواد.. وسيهرب ابن الخطاب -إن نجا- إلى بادية من البوادى، متخفيًا فى زى امرأة يلوك أحزانه وخيبة أمله.. وعندئذ يعود يهود بنى قينقاع إلى ديارهم ويهدأ كعب بن الأشرف فى قبره، ويطمئن اليهود على مستقبلهم وعقيدتهم، ويعود لرجالات المدينة أمجادهم القديمة، وينشر النظام والسلام رواقهما على أراضينا

العزيزة. . أيها الأصدقاء. . عندما يموت محمد، فسينطفئ النوار الذى يشع فى قلوب المؤمنين من أتباعه، وسيبطل سحر كلماته، وينهار ذلك الرباط المقدس الذى يربط بين هؤلاء السذج والبلهاء. . أجل يموت محمد، فتموت دعوته. . وهل تكمل رسالة من الرسالات بدون نبى؟؟ ذلك هو الحل، ولا حل غيره. .».

وساد الصمت، وأخذ الرجال يمحصون تلك الكلمات الخطيرة، وكان حيى بن أخطب أكثرهم قلقًا، ماذا لو فشلت المؤامرة؟؟ لسوف يمزق محمد يهود بنى النضير شر ممزق، وينكل بهم تنكيلاً شديدًا، وسوف يكون له الحق فى ذلك، ألم ينقضوا العهد؟؟ ألم يبدءوا بالعدوان؟؟ ألم يحاولوا قتل محمد وقد أعطوه الأمان؟؟ كل هذه الأسئلة ستدور حتمًا فى ذهن الناس إذا فشلت المؤامرة، وسيجد محمد فيها التبرير الكافى للقيام بإجراءات الأمن الضرورية لحمايته وحماية المسلمين، وله فى ذلك الحق كل الحق، لقد فشلنا فى القضاء على محمد رأيًا برأى، وحجة بحجة، لم نستطع أن ننسفه عقيدته، أو ننال من مبادئه الواضحة، فإذا ما ترك الأمر للحجة والرأى، فسيكسب الجولة، وإذا امتد الوقت بتفوقه فى طرح حجة، وإبداء آرائه، فسيندفع إليه العرب مجنونين بحبه، متلهفين لدعوته، مضحين بأرواحهم وأموالهم فى سبيل

عقيدتهم، عند ذلك يندثر مجد اليهود، ويذوب سلطانهم ونفوذهم، ويكون ذلك ختامًا مروعًا لقصة بنى إسرائيل المجيدة. . أجل إن قتل محمد ضرورة دينية ودنيوية بالنسبة لنا معشر اليهود، ما فى ذلك شك، على أن تكون النتيجة مضمونة تمامًا.

وكيف تكون مضمونة؟؟ كيف؟؟

واتجه إليهم حيى بن أخطب ببصره قائلاً: «فكرة رائعة، لكن من يضمن لنا نجاحها؟؟».

قال عمرو بن جحاش صاخبًا: «ما هذا الجبن يا حيى بن أخطب؟؟ دائمًا تخافون من الإقدام، لو فكر محمد فى النتائج كما نفكر نحن الآن، لما خاض معركة بدر، ولما عاد منها منتصرًا بعد أن مرغ شرف قريش فى الرغام، ولو خاف محمد من الفشل لما طرد يهود بنى قينقاع، ولا انتقم من كعب بن الأشرف، ولما واجه قريشًا وهو فى جيش من سبعمائة، وأعداؤه يربون على ثلاثة آلاف. . ».

قال عبد الله بن أبى بعد أن طال صمته: «صبرًا أيها الرفاق، إنكم تتحدثون وكأنكم وحدكم فى الميدان، نسيتم إخوة لكم بالمدينة، يحفظون ودكم، ويذكرون حلفكم القديم، إنهم يتظاهرون بالإسلام، بل ويخوضون المعارك إلى جوار

محمد، لكنهم يتوقون الخلاص منه، واستخلاص «مدينتهم». العزيزة من يديه، وعلى استعداد تام لأن يؤازركم عند الشدة، ويضحوا بأنفسهم عندما يجد الجد، وتحين ساعة التضحية..».

قال حيى بن أخطب: «ما كنت جبانًا فى يوم من الأيام، ولن أستسلم لمحمد، أو أكف عن حربه حتى ولو كنت وحدى فى بلاد العرب كلها.. إننى أعرف سلفًا ما ينتظرنى من مصير، لن أهادن محمداً، ولن أستسلم له حتى الموت.. تلك هى العقيدة التى آمنت بها، غير أن هذا لا يمنع أيها الرفاق من حساب كل شىء بدقة، والاستعداد لكل طارئ، والتفكير فيما يجب عمله عند النصر وعند الهزيمة..

أتسمعون؟؟ عند النصر وعند الهزيمة، ومن لا يفعل ذلك فهو عابث تافه، أو متآمر ضد مصلحة نفسه وأرضه ودينه.. أما وأن عبد الله بن أبى يزعم لنا أن هناك رجالاً داخل المدينة، يحفظون الود القديم، ويبدون استعدادهم لمؤازرتنا، فلسوف يكون ذلك عملاً رائعًا بحق، وسنحاول جاهدين إزاء هذه الظروف أن ننفذ فكرة القضاء على محمد شخصيًا، فيتشتت رجاله، ويفسد تدبيره، إن محمداً مصدر الفكر والوحى والعقيدة، فإذا ما انتهى أمره انقطع رفد المؤمنين، وذبلت

أغصان الشجرة الوارفة الظلال بعد أن قطعت جذورها ومنع عنها الماء مصدر الحياة والنضرة . . ».

أشار عبد الله بن أبى بيده وقال : «والآن استمعوا إلىّ جيداً . . ما لكم تلفون وتدورون ، وتحاولون إبداء المبررات والأسباب التى تدفعنا لقتل محمد؟؟ إنكم تثرثرون كثيراً حول هذا الموضوع ، وكثرة الحديث عنه توحى بالتردد والخوف . . والآن أصغوا لى . . محمد قادم إليكم غداً . . بعد ساعات سيكون هنا بين أظهركم . . ».

صاحوا فى صوت واحد : «كيف؟؟» .

- «تعلمون أن أحد المسلمين قتل رجلين متعاهدين خطأ . . » .

- «أجل . . نعلم ذلك . . وهذه فرصة أخرى لإثارة العُرب ضد المسلمين وإظهارهم بمظهر القتلة وقطاع الطرق . . » .

قال عبد الله : «لقد فات الأوان ، اعترف القاتل بخطئه ، وأبدى الأسباب التى دفعته إلى ذلك وهى أسباب وجيهة ، وقرر الرسول دفع دية القتيلين نيابة عنه . . وهذا هو بيت القصيد ، لسوف يأتى محمد إليكم غداً للاستعانة بكم فى المساهمة فى جمع المال اللازم لدفع الدية . . هذه هى الظروف المناسبة لاغتياله . . أنا معكم بأن قتله سوف يثير ضجة فى

البداية، لكن لا تنسوا أنه سيكون بين أظهركم، وسيكون معه نخبة من أصحابه، وفي الإمكان القضاء عليهم هم أيضًا . . ستضربون عدة عصافير بحجر واحد . . فإذا ما حاول المسلمون التجمع لضربكم . . ستكون هناك بعض التضحيات والاشتباكات التي لا مفر منها، تلك التي تعقب الضربة القاضية . . لكنها ستكون أشبه برقصة الذبيح . . . ستندلع فتنة قصيرة الأمد، وسيكون وقودها المسلمين أنفسهم . . » .

لم يعلق أحد من السامعين، كان حيي بن أخطب، وعمرو بن جحاش، وغيرهما من اليهود يريدون قتل محمد بإحدى طريقتين، الأولى أن يكون ذلك بيد واحد من رجال عبد الله بن أبي المنافقين، فيجنون بذلك نصرًا لم يبذلوا فيه قطرة دم واحدة، وهذه بالنسبة لليهود أفضل وسيلة، أما الطريقة الأخرى، أن تدبر مؤامرة، لا مانع من أن يشارك فيها اليهود، على أن يقتل محمد في خفية تحت جنح الظلام، بحيث لا يرى الجناة أحد، حتى تتخبط الآراء بين المسلمين، وحتى لا يعرفوا أين تتوجه ضرباتهم . . لكن عبد الله بن أبي يرى شيئًا آخر . . يريدهم أن يرتكبوا الجريمة في وضح النهار، وفي منازل بني النضير أنفسهم، ولعل عبد الله بن أبي أدرك ما يعتمل في نفوس اليهود من تردد، فقد قال: «إنني أعني ما أقول، أؤكد لكم أننا سنخوض المعركة إلى جواركم،

وسنحمى ظهوركم، ولن تطولكم أيدى المسلمين، حتى ولو فشلت المؤامرة، ولكننا واثقون من النجاح إن شاء الله . . إن العمل بيننا قسمة، ولديكم من الأقوات والماء والحصون والسلاح ما يدعم لكم الحماية الكاملة، فى أرضكم، ولدينا من المال والعيون والرجال ما نستطيع به إتلاف جيش يبلغ أضعاف أضعاف جيش محمد . . ففيم التردد؟؟ قال عمرو ابن جحاش فى إصرار وعناد: «إنها فرصة نادرة ولن نضيعها . . سيكون لنا الفخر أبد الدهر إذا سال دم محمد وعمر وأبى بكر وعلىٍّ على ثرانا . . وسيعلو شأن بنى النضير . . وسترتفع قيمتنا بين العرب، وسنثأر للمطرودين ولكعب وللعقيدة أعظم ثأر وأروعه . . إننى جد موافق على هذه الفكرة . . ».

هتف عبد الله بن أبى فى فرح: «وعلى استعداد أن تنفذها بنفسك . . ».

قال عمرو بن جحاش مؤكداً: «أجل . . بنفسى، وأقسم بالله ألا أتزحزح . . وليكن ما يكون . . ».

وأطلت امرأة برأسها من كوة بالجدران، وصاحت: «ماذا تفعلون أيها الأغبياء؟؟».

وطنت كلمة «أغبياء» فى آذانهم فبعثت القشعريرة فى

أجسادهم، وملأت نفوسهم بالحنق والضيق، ورفع عبد الله بن أبى بصره إلى أعلى، فوقعت عيناه على العينين الواسعتين الجميلتين، والشعر الأسود الفاحم، والوجه البض الشاحب، وتمتم فى دهشة: «من؟؟ اليهودية؟؟ ما الذى أتى بك إلى هنا؟؟ ألم ترحلى مع يهود بنى قينقاع؟؟ وجاءه صوتها مرة أخرى: «أنتم تلعبون بالنار.. لم تجربوا بعد ما جربه بنو قينقاع وهم يسيرون فى الصحراء الحارقة يبحثون لهم عن مأوى يأوون إليه، أو ظل يتخففون تحته من العذاب والظمأ والضياع. أيها الرجال.. كفى عبثًا، وابحثوا عن حل آخر عميق ورصين.. هذه أفكار متعفنة فجة لا تقدم ولا تؤخر.. هل تذكرون؟؟ لقد استطاع يهوذا أن يتآمر على عيسى ابن مريم.. ماذا كانت النتيجة بعد أن اختفى عيسى؟؟ ازداد عدد المؤمنين به، وانتشرت دعوته فى كل مكان، وإن ابتليت بالحمقى أو المخرفين أو المنقحين من آن لآخر..

لن تعدموا من يحمل رسالة محمد بعد موته، ويطير بها فى أرجاء الجزيرة العربية..».

ملأ عمرو بن جحاش قبضته بقدر من التراب، وحساه فى وجهها وهو يصيح: «اغربى عن وجوهنا أيتها المجنونة..».

فابتعدت عن الكوة وهى تقول بصوت يسمعونه جيداً :
«لقد بذلت لكم نصحى فافعلوا ما شئتم . . أنتم لم تجربوا حرقة الصحراء وعذاب الضياع . . لا تتباكوا بعد اليوم، فأنتم تخونون العهود، وتدبرون المؤامرات وتبدءون بالعدوان، ولو استطعتم النجاح -برغم كل هذا- لمحا الانتصار سيئاتكم، وعفى على غدركم . . لكنكم تفشلون . . تفشلون . . دائمًا . . ».

ويسط الصمت رواقه بضع لحظات، وتمتم حيى بن أخطب : «ما الذى أتى بها إلى هنا، لقد هربت من قافلة بنى قينقاع، وأتت إلينا فى بنى قريظة . . وجدناها فى حالة صحية سيئة، كانت جائعة ملتاثة العقل، تهذى بكلمات غريبة . . فبذلنا لها الكثير من الرعاية حتى كادت تشفى مما أصابها . . ».

هز عمرو بن جحاش رأسه قائلاً : «لقد قدمت إلى هنا عقب مجيئك بساعات يا حيى».

- «ولماذا تخبرنى بذلك يا عمرو».

ابتسم عمرو فى خبث وقال : «لقد أكرمت وفادتها فى بيتى، وحققت لها رجاءها فى ألا أخبرك بحضورها، أترانى قد جانبت الصواب؟؟».

قال عبد الله بن أبى: «إننى أعرفها جيداً، لقد فشلت فى استدراج عمر بن الخطاب لشباكها، ولم تنجح فى أية مهمة أوكلت إليها.. إنها لا تحسن سوى تسوية الفراش، والمشاركة فى السمر ومقارعة الكئوس..».

ولم يعلق أحد بكلمة واحدة..

□□□

الفصل [١٨]

النخيل الخضراء تنصب هاماتها دونما حركة تذكر، وكأنها ترقب ما يجرى من أحداث بعين يقظة متلهفة، والشمس تطل من أفقها العالى، وتسدد إلى الوجود أشعتها الخارقة التى تفيض بالنور والحياة، ومساكن بنى النضير ومضاربهم تقبع فى انتظار مشوب بالقلق، وعمرو بن جحاش يذهب ويجىء فى حركة عصبية مريبة، إن وجهه الشاحب، وعينيه القلقتين توحيان بما يعتلج فى قلبه من توجس وارتباك وتمزق، ويهمس من خلفه صوت يعرفه: «أتخاف يا ابن جحاش؟»، فتتصلب تعبيرات وجهه، وتنطلق من عينيه نظرات ساخطة عاتبة، ويتمتم: «لا كنت، ولا طلعت علىّ شمس يوم أجبن فيه عن لقاء محمد والقضاء عليه». ورجالات بنى النضير يختلسون النظرات، وهم واجفو القلوب، مرتعدو الفرائص، ويقول أحدهم: «لو جاءت الضربة محكمة، لانتهى كل شىء على الوجه الأكمل» وكان فى النية، أن يتجه بضعة من الرجال من

أمهر المحاربين للانقضاض على محمد وصحبه، وتمزيقهم شر ممزق . .

وفي أحد البيوت شبه المهجورة، على أطراف بيوت بني النضير، قام بضعة رجال بالحراسة وفي الداخل توجد امرأة مقيدة بالحبال في ساقيها ويديها، ولا تكاد المرأة تكف عن السب وإطلاق الصيحات : «أيها الأوباش، ماذا تفعلون؟؟ أنتم لم تذوقوا ما ذقناه، ولم تجربوا مرارة الضياع الذي شعرنا به، ونحن نترك الأرض التي نشأنا عليها، وترعرعت آمالنا فيها . أنتم هنا تعيشون بين الماء والنخيل والظلال، وتشربون اللبن وتغتسلون وتمرحون . . لكن لا تعرفون كيف كان مصير بني قينقاع . . إنكم ترتكبون اليوم نفس الحماقة . . أيها الأغبياء يا حثالة بني إسرائيل . . ما أصابكم ضر . ولا لحقت بكم كارثة إلا وكنتم المسئولين عما جرى لكم . . إن تصرفاتكم البلهاء تجر عليكم الوبال دائمًا . . أترى كانت الخسة والنذالة لصيقة بجنس دون جنس، أو بعنصر دون عنصر؟؟ لا أظن ذلك، إن تشابهكم في السفالة ليس مرده عنصرنا اليهودي فحسب، ولكن مرده للأفكار الدينية المزيفة التي نرضعها مع ألبان الأمهات منذ الصغر . . إن المبادئ المنحرفة التي نتلقاها على أيدي الأحبار والرؤساء والحكماء منا . . هي المسئولة عن تشويه معالم الحق في حياتنا . . لماذا لا نظهر من جديد كإخوة

للناس عامة؟؟ لماذا لا نمتنع عن غمس أيدينا فى القاذورات نحن شعب ممزق متسخ الروح والجسد. . سيقتلون محمدًا اليوم. . وعندما يسيل دمه، ستطوى صفحة أخرى من صفحات اليهود السوداء. . لن يكون هناك شىء اسمه بنو النضير. . أو فى نفس الطريق سنسير. . الطريق الذى سار فيه بنو قينقاع. . » وتدق اليهودية رأسها فى الحائط وتصرخ وتبكى، وتعود لكلماتها الثائرة: «كلما ذكرت بنى قينقاع، غلى الدم فى عروقى، وسالت دموعى، ودق قلبى من الجزع والرعب. . يا لها من لحظات. . فى بعض الأوقات كانت قطرات الماء أعز وأغلى ما فى الوجود. . وفى لحظات أخرى كان الركون إلى مسكن حيث الهدوء والدعة والظل، حلمًا من أجمل الأحلام. . وفى بعض الأوقات يأخذ الحنين إلى الوطن فى الجيشان والتسلط، فيطمس لذة الحياة، ويقضى على كل معنى لها. . ويمضى الرجال فى الطريق الحارق. . الجاف. . وعدد من الأطفال والنساء. . يمضون حيارى تعساء. . أيها المجانين!! ماذا تفعلون؟؟ إن قتل محمد خطيئة كبرى، يا من تعيشون بعصبية البلهاء، وأحقاد القبائل. . الأمر ليس أمر قبيلة أيها البهائم. . إننى داعرة. . سكيرة. . عاشرت رجالاً من مختلف المشارب والأهواء واللهجات. . وتعلمت الكثير. . رأيت عمر. . وقابلته، وانفردت به. . فوجدت

صنفًا آخر من البشر . . احذروا يا أبناء اليهود . . أيها البهائم الضالة . . يا خراف بنى إسرائيل الضالة . . إننا نحفر قبورنا بأيدينا . . واحذروا العاصفة . . إنها قد تقتلع كل ما أنبتناه من زرع وضرع وبشر . .

يا حكماء اليهود : أنتم ملعونون ملعونون . . وعلى عاتقكم يقع الوزر الأكبر . . هذه الأرض وسعتنا منذ مئات السنين . . منذ أن طردنا الرومان من الشام وغيرها . . فلم الغدر المقيت؟؟» .

ويصيح بها أحد الحراس : «ألا تكفين عن الثرثرة؟ لسوف نضطر إلى حشو فمك بالتراب أيتها المتمردة الجميلة . . » .

– «أنتم؟؟ يا حثالة الرجال؟؟ إلىّ بجرعات من الماء وإلا بصقت على وجوهكم . . ».

وتمضى اليهودية فى صخبها وسبابها . .

ويمضى عمرو بن جحاش فى استعداداته ، وانتظاره لمجىء محمد وصحبه . .

وهرول إليه أحد اليهود وارتمى أمامه وهو يلهث من شدة التعب : «يا ابن جحاش . . صعدت فوق نخلة عالية ، ورأيتهم قادمين . . » .

– «محمد؟؟» .

- «أجل ومعه بضعة رجال . . » .

- «أكانوا مسلحين؟؟» .

- «لم أتأكد من ذلك ، إننى فى الحقيقة لم أرَ بريقًا لسيف . . » .

قال عمرو بن جحاش :

- «فلتنطلق ولتخطر رجالنا . . » .

- «أنبدأ فورًا؟؟» .

- «لا . . يجب أن يسترخى المسلمون فى جلستهم ، وأن يتحدثوا إلينا حتى نوحى إليهم بالثقة والاطمئنان ، ثم نأخذهم على غرة . . اذهب الآن . . » .

ومضى الرجل تاركًا عمرو بن جحاش يفكر ، إن نذر الخوف أخذت تتسلل إلى قلبه ، إن عمرو كان يشعر بقدر كبير من الشجاعة حينما كان حيى بن أخطب إلى جواره ، كما كان يشعر بارتياح كبير لكلمات عبد الله بن أبى ، ذلك الحلف غير المقدس الذى ربط بين اليهود والمنافقين ذو أهمية بالغة ، وكلا الطرفين شديد الحرص على الحفاظ على هذا الحلف ، لأنه يحيى مصالحهما المشتركة ، لكن عمرو بن جحاش الآن يقف وحده بعد أن اختفى حيى بن أخطب قبيل الفجر ، وبعد أن انصرف عبد الله إلى المدينة ، إنه يواجه الموقف الآن وحده ، ماذا لو تخلى عبد الله

عنه؟؟ ماذا لو تملص حيي بن أخطب من عهده، حماية لقومه من يهود بني قريظة؟؟ إن الموقف حرج دقيق، لعل اليهودية السجينة -التي رميناها بالتخبط والجنون أصدق الناس رأيًا، وأبعدهم نظرًا. . لكن لم هذا التردد والتخبط في ذلك الوقت العصيب؟؟ أهناك فرصة للتراجع؟؟ وبينما كان عمرو يصارع تردده وخوفه، جاءه الرجل الذي أرسله منذ فترة وجيزة إلى رفاق السلاح، وأخذ يقول دون مقدمات: «لقد أفسدوا تدبيرنا. . تهدم كل ما بنيناه».

صاح عمرو: «ماذا جرى؟؟».

- «إن الرجال رفضوا تنفيذ الأوامر، وداسوا الاتفاق».

- «إنه الجبن والعصيان. . ».

- «أجل. . اللعنة على هؤلاء الحقراء. . ».

- «ليكن. . فلن أتراجع. . ».

- «إنك لا تستطيع أن تفعلها وحدك يا عمرو. . ».

- «بل سأفعلها. . ».

- «إنه الانتحار بعينه، إن أيدي أصحاب محمد سوف تذود عنه السيوف، وسيلقون بأنفسهم فوقك، ولن تتمكن منه. . ».

فكر عمرو برهة، أيلغي كل ما دبره؟؟ أتضمحل كل الآمال والأحلام التي رسموها بالليل، وعقدوا عليها أماني الخلاص؟؟.

- «لسوف أمضى فى الطريق . . لسوف أعد حجراً ضخماً وأقذف به فوق محمد وهو يجلس إلى جوار الحائط . . سيبدو الأمر مجرد صدفة . . إنه حجر ثقيل . . لن أتراجع . . وليكن ما يكون . .

وأقبل محمد . . ومن حوله صحابته . .

آلاف العيون خلف النوافذ الصغيرة، والأبواب، ومن فوق الأسطح ومن خلال كوات الخيام المبعثرة . . آلاف العيون ترقب خطاه . . رجل بسيط طيب . . ينظر إلى الأمام ويلقى السلام ويبدأ بالتحية وعلى سيماه حب ووضاءة وإشراق . . أصحابه يفسحون له الطريق، ويرمقونه فى حب، وينصتون إلى كلماته . . لقد سقطت حواجز القلوب، وتمازجت الأرواح، فبدوا وكأنهم يعيشون بقلب واحد . . هذا ما يفهم من نظراتهم وحركاتهم وكلماتهم . . لا يوحى مظهرهم بأدنى خوف . . مجرد حذر . . ينقلون خطاهم فى ثقة . . ثم جاء عمرو بن جحاش وحوله طائفة من رجالات اليهود . . الابتسامات الماكرة ووميضها الأصفر تسبق كلماتهم، وعبارات التحية المليئة بالرياء والنفاق . .

- «أهلاً بكم . . نزلتم سهلاً وحللتم أهلاً . . نحن أهل كتاب مثلكم . .» وتدور المناقشات، لكن الرسول يرى أشياء لا

يطمئن إليها قلبه . . حركات مريبة ، همسات هنا وهناك ، رجال يروحون ويجيئون ، وإشارات بالأيدى والعيون ، وقسمات الوجوه . . وأحاديث عن حجر ثقيل يقذف من عل . . من مكان قريب . . وينصرف الرسول معجلاً قاصداً المدينة . . تاركًا أصحابه . . وأصحابه يظنون أنه قادم بعد فترة . . لكنه لا يعود . . ويعرف أصحاب محمد الحقيقة ، فيمضون صوب المدينة للحاق به . . ويهتف عمر : «إنها الخيانة . . » .

ويتمتم على بن أبى طالب : «يريدون قتل الرسول . . لكن الله سلم . . » .

ويهز أبو بكر رأسه فى أسف : «إنهم حريصون على نبذ العهود . . » .

ويقول على بن أبى طالب : «ترى ما موقف الرسول من هذا كله؟؟ إنه يعرف من قديم غدرهم ويلم بنواياهم ، لكنه يمد لهم فى حبال الصبر والتسامح والغفران . . فإلى متى يمضى فى تلك السياسة؟؟» .

ويرمى عمر بن الخطاب رجال بنى النضير بنظرات عاتبة ، ويقول : «لماذا تفعلون ذلك؟؟» .

فيرد أحدهم : «نحن لم نفعل شيئًا ، لا ندرى ماذا تقصد؟؟ إننا على استعداد للمشاركة فى دفع دية القتيلين . . » .

فيهز عمر رأسه حزينًا ويقول: «إنما بغيكم على أنفسكم..».

ثم يستأنف المسير صوب المدينة وهو يقول: «ألا وإن لكل مجرم عقوبة، ألا وإن لكل متآمر جزاء، ألا وإن السكوت على هذا العبث، وترك الحبل على الغارب لليهود، إنما سيجر على المدينة الوبال، ويكلفها الكثير من التضحيات، ويجلب عليها العديد من الكوارث..

أرادوا قتل الرسول.. فماذا ينتظر الرسول بعد ذلك؟؟».

وفى ديار بنى النضير، وقف عمرو بن جحاش شاحب الوجه، مرتجف الأوصال، وحوله عصبة من اليهود قد طأطأوا رءوسهم فى أسى، ثم صرخ عمرو بن جحاش فى عصبية: «إنكم لجبناء أنذال، ها قد انكشف أمرنا، واطلع محمد على نوايانا، أترونه تارككم دون عقاب؟؟ أظنكم سوف تسلموننى إليه، وتقولون هذا هو الجانى.. أيها الجبناء.. لماذا لم تنقضوا عليه بسيوفكم؟؟ إنكم مترددون لا تعرفون ماذا تفعلون، لسوف ندفع الثمن غاليًا على الرغم من أننا لم نحقق أى كسب.. بل خسرنا.. أجل خسرنا كل شىء.. لو كان الجبن ينجى من المهالك لكنت أول الجبناء، لكنه يجر إلى الهاوية.. انصرفوا عنى أيها الحمقى.. انصرفوا قاتلكم الله..».

بعد ساعات قليلة قدم رجل من المدينة، وتوسط ديار اليهود في بنى النضير وأخذ يصيح بأعلى صوته: «يا معشر اليهود.. يا معشر اليهود.. بعثنى رسول الله إليكم.. إلىّ.. إلىّ واستمعوا لرسالته.. يا معشر اليهود..».

وأخذ اليهود يتوافدون من كل حدب وصوب، وقدم عمرو ابن جحاش، وما إن احتشد عدد غفير من اليهود حتى قال مبعوث رسول الله: «إن رسول الله أرسلنى إليكم، أن اخرجوا من بلادى، لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم ما هممتم به من الغدر بى، لقد أجلتكم عشراً، فمن رؤى بعد ذلك ضربت عنقه». لكأن على رءوسهم الطير، وعمرو بن جحاش يزداد شحوب وجهه، والنسوة يتحسسن آذانهن وأعناقهن، هل صحيح ما يسمعون؟؟ أهكذا بسرعة يتركون الأرض والنخيل والحياة الجميلة والذكريات؟؟ أيمضون فى نفس الطريق الكئيب الطويل الذى سار فيه بنو قينقاع.. اللعنة عليك يا عمرو بن جحاش.. يا حيى بن أخطب.. يا عبد الله بن أبى.. اللعنة على جميع العابثين واللاهين بمصائر الخلق..».

وصاح مبعوث الرسول: «ماذا أنتم قائلون؟؟».

وصدر هدير صاخب، لم يستطع مبعوث محمد أن يتبين منه شيئًا واضحًا اللهم إلا دمدمات الرعب، وغمغمات الأسى

المكبوت، وصياح النسوة، ونباح الكلاب، وصراخ الأطفال. . وحاول عمرو بن جحاش أن يثور وأن يرفض الانصياع لمطالب الرسول، لكن صوته المبحوح ضاع وسط الهدير الذى ينشد السلامة، ويؤثر الرحيل على الفناء، أو الاشتباك فى معركة ميئوس منها. .

- «إذن فأنتم موافقون على مطالب الرسول. .».

- «أجل. . أجل. . أجل. . أجل. .».

انقلب هدوء بنى النضير إلى ضجيج هائل. . الرجال يربطون الأحزمة والأحبال حول أمتعتهم، ويسرجون خيولهم، ويحشدون ما يحتاجون إليه من طعام وماء وملبس، والعذارى تتأرجح فى عيونهن الدموع، والأطفال يتلفتون فى حيرة، «لعنة الله عليك يا عمرو بن جحاش. .» كلمة تهتف بها العجائز، ويرددها العقلاء من الرجال، ويتمتم بها الفتيان والفتيات. . «لعنة الله عليك يا عمرو بن جحاش»، وتنتشر التعليقات المختلفة: «ماذا تنتظرون من رجل أردتم قتله؟؟ ماذا تنتظرون من محمد بعد ما فعلتم به الأفاعيل؟؟ ويقول آخر: «لم نتعظ مما جرى لبنى قينقاع، إننا نضيف غباء جديداً إلى غبائنا القديم»، ويهتف شاب منتخب:

«لمن نترك هذا النخيل. وملاعب الصبى، وأرض الأحلام والذكريات؟؟ إن ما يحدث لنا تعبير عن غضب الله . . »
وعمرو بن جحاش يقف جامداً، يرقب الأحداث الخطيرة بقلب واجف، وعين قلقة، أين الرجال الذين تعاهدوا على نصرته؟؟ أين حيى بن أخطب، وأين عبد الله بن أبى؟؟ أكان الأمر مجرد خدعة ومكيدة؟؟

وفى المساء قدم عبد الله بن أبى، قال عمرو بن جحاش: «هل أتيت؟؟ لقد ردت إلىّ الروح . . ».

- «أو تظن أننى أترك فى مثل هذه الأوقات الحرجة؟؟ حقًا . . لقد كان فشلك فشلاً ذريعًا، هذا الفشل أحنقنى، وبعث الثورة والضيق فى نفوس رجالى، وكان هذا كفيلاً بأن أنفض يدى من الأمر كلية . . لكنى كظمت غيظى، وتسللت تحت أستار الظلام، وأتيت إليكم دون أن يعلم بى أحد . . وكيف أترككم تسقطون هكذا فريسة سهلة تحت أقدام محمد؟؟ لقد أردنا كسره ولم نرد له انتصاراً كهذا . . والغريب أنكم سلمتم بكل مطالبه كيف ذلك؟».

قال عمرو بن جحاش فى حسرة: «لقد كاد القوم يقتلوننى، بعد أن سلقونى بألسنة حداد . . وما كان فى إمكانى أن أقف فى وجه الرغبة الجامحة فى الرحيل . . ».

قهقه عبد الله بن أبى ساخراً: «الرحيل؟؟ هل جننت؟؟».

- «وماذا كنت فاعلاً يا عبد الله؟؟».

وامتعض عبد الله أشد الامتعاض، وأخذ يتدارس الأمر مع عمرو بن جحاش، وغيره من رجالات اليهود، وبعملية حسابية بسيطة استطاعوا أن يستخلصوا عدة حقائق مهمة، أولها أن بنى النضير لديهم من الأقوات والماء ما يكفيهم لمدة عام فيما لو حاصرهم المسلمون، وأن لديهم من الحصون والموانع ما يعوق أقوى جيش عن التقدم، وأن استسلام بنى النضير يعنى انتصاراً لمحمد، وكسبًا لمزيد من الأرض والمواقف، وتنبيهًا للقبائل المناوئة أن تستسلم هى الأخرى، فإذا صحت هذه التقديرات فإن على بنى النضير أن يرفضوا رغبات محمد وأن يقاوموا أهدافه، ولا شك أن عامًا من المقاومة قد يعطى الفرصة لأعداء المسلمين كى يتجمعوا وينقضوا على محمد فيقضوا على قوته، وينقذوا اليهود من حصاره..

وقال عبد الله بن أبى: «إن رجالى ينتظرون الأمر لخوض المعركة ضد محمد، وما عليكم يا يهود بنى النضير سوى أن ترفضوا دعوة محمد، وأن تمتنعوا بحصونكم وقلاعكم وترفعوا راية المقاومة».

وابتلع عبد الله ريقه، ثم استطرد: «ومع ذلك فلسوف نرسل الرسل إلى قريش وإلى القبائل المعادية لمحمد، حتى نأتيه من حيث لا يحتسب، وندك معاقله دكًا، وما يوم «أحد» ببعيد..».

راقت الفكرة لزعماء اليهود، وتحمس لها عدد كبير من شبابهم، وحمل لواءها عمرو بن جحاش وأخذ يروج لها، ويبدو أن الارتباط بالأرض، والألفة بين اليهود وبيئتهم، ومصير بني قينقاع وما تعرضوا له من تشتت وضياع، كل هذه الاعتبارات قد دفعت اليهود إلى التمادى فى المغامرة، ورفض كل ما جاء فى رسالة محمد عليه السلام، بل أرسلوا إليه من يقول فى تبجح: «لن نخرج يا محمد، فافعل ما بدا لك».

ثم احتموا بحصونهم، ونقلوا الحجارة إلى شوارعهم، وأقاموا منها متاريس وخنادق للاحتماء وراءها فى القتال، وكدسوا أرزاقًا تكفيهم لمدة عام فى حصارهم، وكان الماء متيسراً لهم باستمرار، فتحرك المسلمون بقيادة الرسول إلى ديار بنى النضير، فحاصروهم عشرين ليلة، كانوا أثناءها يحتلون شارعًا بعد شارع، وداراً بعد دار.. ولما رأى المسلمون إصرار اليهود على القتال مستفيدين من حصونهم القوية، بادروا بقطع نخل اليهود، حتى لا يبقوا على حماسهم فى القتال، وكان لهذا العمل وقع سيئ فى نفوس اليهود قاطبة..

هرولت اليهودية السجينة بعد أن أطلقوا سراحها، وأقبلت نحو عمرو بن جحاش وأمسكت بخناقه قائلة: «ماذا جنيتم أيها العقلاء؟؟ ها أنتم ترون أن مجنونة مثلى كانت أصوب رأيًا، وأبعد نظرًا، منكم.. إن المسلمين يضيقون عليكم الخناق الآن، ولن ينفعكم الطعام الذى خزنتموه، ولا الماء الذى حافظتم عليه.. أنتم فى الحصون، والمسلمون فى الشوارع المكشوفة يتقدمون، وينتصرون.. ولو بقيتم على وضعكم هذا لطالتكم سيوفهم أينما كنتم.. عند ذلك سيأخذونكم أسرى حرب، وسيضربون أعناق المحاربين منكم، وسيتحول نساؤكم إلى سبايا.. أيها الأغبياء.. ماذا تنتظرون؟؟ أتظنون أن عبد الله بن أبى سوف يأتى برجاله لنجدتكم كما زعم.. إن المنافق لدى المسلمين منافق هنا أيضًا.. المنافقون ليسوا رجالاً يعتمد عليهم، وكيف تثقون فى قوم يظهرون إسلامهم ويخفون كفرهم وحقدهم، وهم يكرهون دينكم كما يكرهون الإسلام.. والله إنكم الأقرب للإسلام منهم.. إن عبد الله بن أبى لن يأتى.. وإن قريشًا لن تهب لنجدتكم.. وستقضون على أنفسكم بغبائكم..».

وقدم شيخ عجوز وقال: «الحق ما قالت المرأة.. يجب أن ترسلوا الرسل إلى محمد ولتبحثوا عن حل وسط.. أى حل سيكون أفضل من الفناء التام وسبى النساء والذرارى..».

فردت اليهودية والدموع تطفح من عينيها: «يا للنكبة الكبرى!! قصة بنى قينقاع من جديد.. الطريق الأسود الملىء بالأشواك والرعب والظمأ والجوع والضياع.. ما أتعسنا وأشقانا!!».

لم يجد اليهود مفراً من أن يرسلوا إلى محمد، ويطلبوا منه الأمان على أموالهم ودمائهم وذراريهم حتى يخرجوا من المدينة..

ووافق الرسول على مصالحتهم، بشرط أن يخرجوا من المدينة، ولكل ثلاثة منهم بعير، يحملون عليه ما شاءوا من مال وطعام أو شراب ليس لهم غيره..

توارى عمرو بن جحاش خلف بعير، والدموع تنزف على خديه، ونظراته إلى الأرض، وما إن غادر المدينة حتى مد بصره إلى بعيد.. حيث الآكام والرمال والأفق الرحب الذى يتوهج بالضوء وحرارة الشمس..

وصاحت اليهودية: «واكرباه» أنعود للعناء من جديد... يا جنس العبيد؟؟» ولم يرَ أحد وجه عبد الله بن أبى فى ذلك اليوم، لقد لزم بيته وجلس يفكر مهمومًا والغيظ والحقد يأكلان قلبه.. لكنه مازال يفكر فى خيانة جديدة.

□□□

الفصل [١٩]

قال عمر لابنته حفصة: «ما أضخم المسئوليات التى يحملها رسول الله على عاتقه!! ها هم بنو المصطلق يعدون العدة، ويجندون جيشًا لجبًا للهجوم على المدينة، لماذا هذا الاعتداء؟؟ نحن لم نؤذ بنى المصطلق، ولم نتعرض لهم بعدوان، إن الرسول يا حفصة ينشد السلام والخير، ويتمنى على الله أن يجد الحرية فى أن يقول كلمة الحق، وأن ينشر دعوته، حتى تبلغ القاصى والدانى، ومن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، والرسول لا يكره أحدًا على الإسلام، ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨] تلك كلمات الله يا حفصة.. فلم تتضايقين يا ابنتى من أن الرسول مشغول عنك؟؟ ماذا يفعل الرسول؟؟ أيترك بنى المصطلق يغزونه فى عقر داره؟؟ إن الرسول يريد السلام لبنى البشر جميعًا، لكن يبدو أن إرادة الله قد اقتضت ألا يستسلم الشر بسهولة، وأن يرفع السيف

فى وجه الحق والخير . . هل من الضرورى أن نصل إلى السلام والحرية والعدل بعد خوض أهوال من الصراع والدماء والسهر؟؟ ولكن لله فى خلقه شئون . . ».

خفضت حفصة رأسها فى حياء وقالت: «بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٣- ٥] صدق الله العظيم. . أجل. . فالرسول لا يصدر إلا عن أمر إلهى، ولا يخطو خطوة إلا فى سبيل الله والحق، لكننى امرأة يا أبى بكر. . وعائشة بنت أبى، تحظى من الرسول بعطف زائد. . ».

صاح عمر فى حنق: «أهى الغيرة الحمقاء يا ابنة عمر؟؟ أتعترضين على تصرفات رسول الله؟؟ من أنت حتى تبيحى لنفسك حق نقده، والاعتراض على تصرفاته. . بخ. . بخ. . لقد نلت شرفًا لم ينله أحد من العالمين غير قليل. . قسمًا لو اتخذنى رسول الله خادمًا له لكنت أسعد البشر. . يجب أن تخضعى يا حفصة لرسول الله خضوعًا تامًا. . أنا نفسى حرضته على طلاقك لما تسببينه له من اعتراضات. . أتدرين ماذا قال؟ لقد أوحى إليه أنك زوجته فى الجنة. . يا لها من منزلة لم تنلها امرأة من نساء العرب قبلك، ولن تنالها امرأة بعدك. . ».

دمعت عينا حفصة وقالت: «إنه لشرف عظيم حقًا يا أبت، لكن الرسول لا يضيق ذرعًا باعتراضاتنا كما تضيق أنت أنه يفسح لنا من صدره، ويبيح لنا الرد والاعتراض، ويطارحنا شتى ألوان الأحاديث».

- «إنكن يا حفصة تستغللن حلمه، ورحابة صدره استغلالاً سيئًا..».

- «حاشا لله.. إنه حق أباحه لنا..».

تنهد عمر فى غير قليل من الارتياح، وقال: «حسنًا.. لتعودى توًا إلى الرسول، وتجلى عن قلبه ما علق به من منغصات، إنى أريد أن يذهب إلى بنى المصطلق، دون أن تشوب مزاجه شائبة.. أتفهمين؟؟».

أطرقت فى تواضع قائلة: «السمع والطاعة لكما يا أبى..».

- «الرسول الله وحده..».

فى ساعات قليلة استطاع الرسول أن يحشد ألفًا من الرجال الأشداء، يجب أن يحاصر الشر فى وكره بل أن يدهمه، وأن يقضى على الفتنة فى مهدها قبل أن يستشرى خطرها، وفى ذلك توفير للجهد والتضحيات والوقت..

وأقبل عبد الله بن أبى.

ومـال عـمـر على أذن أبى بكر قـائلاً: «مـاذا يريد هذا الرجل؟؟».

- «إنه خارج معنا لحرب بنى المصطلق..».

- «وكيف؟؟ هل وافق الرسول على ذلك؟؟».

- «أجل..».

- «هل نسيتم تدابيره الشيطانية، وتحريضه لبنى النضير، وتأليبه الأعداء علينا؟؟ إن وجوده بيننا أخطر على المسلمين من بنى المصطلق أنفسهم.. إن صفح الرسول عن المجرمين يبلغ فى بعض الأوقات درجة لا أقوى على احتمالها.. لو كنت مكان الرسول لضربت عنق هذا المنافق الأكبر..».

كان الصحابة -وأبو بكر بخاصة- يجلون الرسول إجلالاً لا قبله ولا بعده، ويرون أن أى قول يقول له، أو أى فعل ينتوى القيام به، فوق الشك والريب، لما خص به من العصمة عليه الصلاة والسلام ولهذا قال أبو بكر: «الرأى ما رأى الرسول يا عمر..».

- «لكن الرسول يا أبا بكر يشاورنا فى الأمر دائمًا.. إلا ما يتعلق بهذا الرجل العنيد المكابر.. إنه حليف كعب بن

الأشرف، وحيى بن أخطب، وغيرهما من زعماء اليهود».
وأخذ عمر يزفر فى حدة، ويرمق عبد الله بن أبى بنظرات حانقة، ولم يخفَ ذلك على عبد الله فقد كان يدرك ما يكنه عمر نحوه من مشاعر، واقترب عبد الله من عمر فى صفاقة وقال: «لماذا تنظر إلىَّ هكذا؟؟».

- «هل تؤلمك نظراتى إلى هذا الحد؟؟».

- «إننى أقرأ فيها أشياء لا تروق لى..».

- «تمامًا كما لا تروق لى تصرفاتك..».

- «إنك تتهمنى دون بينة»..

- «وهل تحتاج الشمس إلى بينة؟؟».

- «عمر.. حذار.. إننى رجل مسلم مثلك..».

وامتدت يد أحد الصحابة، وأمسكت بذراع عمر، وجذبته إلى الخلف، وقال الصحابى: «إن الرسول يريد لقاءك يا عمر..».

وطول الطريق لم يرتكب عبد الله بن أبى مخالفة واضحة، ولم يتقاعس عن شعيرة من الشعائر، فما تخلف عن صلاة، ولا قصر فى أى عمل يوكل إليه، ومع ذلك فإن عمر كان يتابعه بنظراته، ويراقب تحركاته وسكناته، إنه لا يطمئن إليه،

ولا يثق فيه، على الرغم من تحذير الرسول له بعدم التعرض لابن أبى بأى أذى، وعلى الرغم من إصرار أبى بكر على نصح عمر بطاعة الرسول فيما يتخذه من قرارات، أو يصدره من أوامر . . لأن عمر -وهذا حق- كان لا يرى شيئًا من التعارض بين الأمرين . .

وأحاط المسلمون ببنى المصطلق عند ماء يقال له «المريسع»، فلم يفق بنو المصطلق إلا والمسلمون يحيطون بهم إحاطة السوار بالمعصم . . ولم تستغرق المعركة وقتًا طويلاً إذ هب بنو المصطلق إلى سيوفهم، وحاولوا إيجاد ثغرة ينفذون إليها فى صفوف المسلمين فلم ينجحوا . . وانجلت المعركة عن قتل مسلم واحد، وعشرة من بنى المصطلق، ثم التسليم الكامل لأمر الرسول . .

قبيل الرحيل ازدحم رجلان من المسلمين حول الماء، وحدثت أخطاء غير مقصودة بينهما مما أدى إلى اشتباك بسيط، وصاح الرجل الأول -وهو أجير يقود فرس عمر بن الخطاب- «يا معشر المهاجرين . . النجدة . . » فصاح الرجل الثانى : «يا معشر الأنصار . . » .

رأى عبد الله بن أبى ما حدث . .

هذه فرصة ذهبية لن تتكرر، إن الرجال فى أيديهم

السيوف، وهم عائدون من النصر، وبأيديهم السبايا والأموال، هذه فرصة ذهبية للإيقاع بين المسلمين، وعبد الله يعرف أن هناك «مهاجرين وأنصارًا»، وأن هناك «أوسًا وخزرجًا»، لماذا لا يثير النعرات القديمة، ويمزق وحدة هذا الجيش؟؟ لماذا لا يتحرك؟؟ إن الفتنة الناجحة قد تكون أفعل من الجيوش المهاجمة، ومحمد الآن في عريشه بعيدًا لا يرى شيئًا، وابن الخطاب هو الآخر إلى جوار الرسول، وتمتم عبد الله قائلاً: «ماذا جرى؟؟ هؤلاء المهاجرون لا يكفون عن الطمع، ويعقرون اليد التي تقدم إليهم الإحسان، آويناهم وآزرناهم، وأفسحنا لهم من قلوبنا وبيوتنا وأموالنا، واعتنقنا دعوتهم، وحاربنا إلى جوارهم، وبذلنا النفس والنفيس من أجلهم. . فتآمروا علينا، واستبدوا بالسلطة دوننا. . ما كنت عبد الله بن أبي إن لم أشعل بينهم فتنة عمياء تقضي على وحدتهم وألفتهم، وتنسيهم النصر الذي حققوه على بني المصطلق، وتجعلهم لقمة سائغة لكل عدو طامع فيهم. .

ما كنت عبد الله بن أبي إن لم أنتهز هذه الفرصة. . ».

وقال واحد من رجاله يقف إلى جواره: «بماذا تهمس يا عبد الله. . ».

قال عبد الله موجهًا حديثه لمن حوله من الرجال، ورافعًا

صوته حتى يسمعه أكبر عدد من الرجال المنحازين له:
«أقول.. لقد كاثرنا المهاجرون فى ديارنا، والله ما أمرنا وإياهم إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل..».

قال أحد المنافقين: «أجل.. الأذل هم المهاجرون، فلم لا نضرب ضربتنا الآن، وننشر أشلاءهم فى عرض الصحراء، ونجعلهم عبرة لكل جاحد..».

وأخذ المنافقون يتصايحون: «أيها الأنصار.. يا رجال الأوس والخزرج.. هلموا إلى المعركة الفاصلة دفاعًا عن حريتكم وكرامتكم ومدينتكم..».

ابتسم عبد الله بن أبى فى سعادة وهو يرى بعض الرجال يسلون سيوفهم، وينهضون للحرب، بينما سارع أحد الرجال المسلمين إلى الرسول يخبره بما حدث..

واستشاط عمر بن الخطاب غضبًا وهو يستمع لأنباء الفتنة الموشكة، فقال محتدًا: «يا رسول الله، مر به عباد بن بشر فليقتلته.. إن عبد الله بن أبى منافق غادر ويريد أن يريق الدماء، ويشعل الفتنة بين المؤمنين..».

قال الرسول فى هدوء: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟؟».

وصمت عمر بن الخطاب، كان هائجًا مغتاظًا، إن عبد الله ابن أبي معدود من أصحاب رسول الله، لكنه خان وارتكب حماقة كبرى، ولا يكف عن الإفساد وإثارة الفتن، فهل تبقى صحبته للرسول عاصمًا له من وقوعه تحت طائلة العذاب؟؟ إن فى ذلك خطرًا كبيرًا على مستقبل الدعوة، وأمن المدينة . .

ونهض الرسول وأصحابه من زعماء الأوس والخزرج والمهاجرين لينتشروا بين جنود المسلمين، ويقضوا على الفتنة فى مهدها، وليعتبوا على ما صدر من عبد الله بن أبى، وكم كانت دهشة عمر بن الخطاب حينما سمع عبد الله بن أبى يقسم الأيمان المغلظة أنه لم يتكلم بأية كلمة يشتم منها رائحة الفتنة، وأنه حريص على وحدة الصف، وتماسك المسلمين، وأنه أغير على مصالحهم من أى إنسان آخر .

وأخذ عمر يصر على أسنانه وهو يقول: «يا رجل . . اتقِ الله، ولا تحنث فى قسمك . . » .

- «إننى لا أكذب يا عمر . . إننى برىء من تلك الافتراءات التى يلصقها بى المغرضون، إن سبب الفتنة يا عمر هو أجيرك الذى نادى: يا معشر المهاجرين . . ولم يكن لى دخل بما حدث . . » .

رماه عمر بنظرات حادة . . نظرات يعرفها عبد الله بن أبى ، ويحسب لها ألف حساب . .

- «لو كان الأمر أمرى يا عبد الله لعرفت كيف أقلم أظافرك . . لكن لا مناص من طاعة الرسول الذى يأمر دائمًا بالترفق بك ، ويصر على العفو عنك ، لكنك تستغل كرم الرسول وصفحه استغلالاً بشعًا فلنترك أمرك لله . . » .

ولكى يحسم الرسول كل خلاف ، ويضع حدًا للنقاش الصاخب ، والجدل العقيم ولكى يقضى على الفتنة قبل أن يستفحل أمرها ، أصدر أوامره بالرحيل فورًا نحو المدينة ، ولم يسمح للجنود بالراحة فترة طويلة ، إذ انطلق بالناس طيلة يومهم حتى أمسوا ، وطيلة ليلتهم حتى أصبحوا ، وصدر يومهم الثانى حتى آذتهم الشمس ، فلما نزل الناس لم يلبثوا حين مست جنوبهم الأرض أن ناموا من فرط التعب ، وأنسى التعب المسلمين فتنة ابن أبى ، كما استجابوا لكلمات الرسول الصادقة المؤثرة ، ونصائحه المخلصة الغالية ، وعادوا إلى المدينة ومعهم الأسرى والغنائم . .

ولم يكتف عبد الله بن أبى بما فعله ، بل حاول جاهدًا أن ينشر «حديث الإفك» حول الرسول وزوجه عائشة ، وخلفت

أقاويله وأكاذيبه غباراً كثيفًا لف بعتامته جو المدينة، وأثار العديد من الشكوك والاضطرابات . . هذا المنافق الأكبر، سدد إلى صفحة الإسلام التقية، وإلى زعمائه الأجلاء طعنات قذرة . . وكان يحاول دائمًا أن يدس فى الظلام، فإذا ما ضاقت من حوله الدائرة، وحاصرته التهم، تنصل من خبائثه، وأنكر كل ما ينسب إليه . . ».

وأخيراً نزل الوحى على الرسول، كاشفًا سر عبد الله بن أبى ومن معه موضحًا كل ما يدبره من مكائد ودسائس، فأسقط فى يد الطاغية، توهم الجميع أن الرسول لابد أن يحاكمه ويصدر حكمه بقتله جزاء أفعاله الشنعاء.

وهرول عبد الله بن عبد الله بن أبى إلى الرسول، وقال ورأسه منكس، والدموع تتقاطر من عينيه: «يا رسول الله أنت تعلم حسن إسلامى، وعظيم بلائى . . يا رسول الله . . إنه قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى، فإن كنت فاعلاً فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده منى، وإنى لأخشى أن تأمر به غيرى فيقتله، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمنًا بكافر فأدخل النار».

فأجابه رسول الله : «إنا لا نقتله، بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا . . » .

وهز عبد الله رأسه وأخذ يتمتم : «إنك رسول الله حقًا . . إن حلمك وسع الدنيا، ولم يقصر دون العصاة المدنيين الذين أساءوا وأفسدوا في الأرض . . والله ما أحب إلينا أحد في الدنيا منك يا رسول الله . . » .

وذهب عبد الله إلى أبيه، وطوال الطريق كان يفكر في أمره، لماذا ينسلخ عن الحق، وينحاز إلى الضلال والفتن؟؟ أهو داء أصابه لا يستطيع له علاجًا، أم إصرار على الباطل بكامل وعيه وإرادته؟؟ ولماذا يفعل ذلك؟؟ إن الرسول لم يسئ إليه، ولم يقابل جحوده ونفاقه بغير العفو والإحسان، ومحمد يدعو إلى الله على بينة، ويبسط مبادئه للناس دون غموض أو انحراف، لا يرفع سيفًا إلا في وجه معتد، ولا يشن حربًا إلا ليفتح الطريق أمام كلمة الله، ولا يظلم أحدًا، ينصر الضعفاء، وينافح عن المساكين، ويدعو إلى النظام والعدالة والمساواة بين البشر، ويدعو الناس لعبادة الله وحده . .

أيكره أبي ذلك؟؟ وإذا كان له موقف معارض فلماذا يلجأ إلى هذه الوسائل الدنيئة؟؟ لماذا لا يكشف عن طويته، ويقارع الحجة بالحجة، ويقيم على رأيه الدليل والبرهان؟؟ أم أنه يحقد

لمجرد الحقد . . أترى أن صفاء المؤمنين، وعظمة مبادئهم، ونجاحهم فى نضالهم يثير أحقاد المنحرفين والضالين من الناس، فبدلاً من أن ينصاعوا لكلمة الحق، ويقدموا كلمة الشكر الواجبة للمحسنين، يلجئون إلى الإساءة والدس؟؟ إن أمر والدى محير غريب، ويثير غيظى، ويؤلم نفسى أشد الألم . . عندما وصل عبد الله إلى أبيه، وجده جالسًا وحده يرتجف من الخوف والحيرة.

قال عبد الله لأبيه: «المدينة كلها تتحدث عن فعالك . .».

قال أبوه فى شىء من الارتباط: «ومحمد؟؟».

- «إنه أكبر من إساءاتك ودسائسك، ما زال محمد مصرًا على أن يترفق بك ويحسن صحبتك ما دمت مع المسلمين، على الرغم من أن الوحى قد نزل بإدانتك . . إنه عار الأبد يا أبت أن يدينك القرآن، ويصمك بالعصيان والانحراف . . كيف تمضى بين الناس؟؟ كيف تحادثهم؟؟ كيف تنكر كلمات الله التى أدانتك، والتى لا مجال لردها أو مناقشتها . .».

قال الأب فى حدة، وقد شحب وجهه وتقلصت عضلات وجهه: «الزم حدودك يا فتى . . أنسيت أننى أبوك؟؟».

- «وهذا ما يعذبنى . . إنك أبى . . وأنت تعتنق الإسلام . .

ولكنك تطعن الدعوة الإسلامية كأعنف ما يكون العدو الكافر . . لقد وضعت يدك فى يد قريش واليهود والمنافقين . . ماذا بعد ذلك يا أبت؟؟ ألا ترعوى وأنت ترى الرسول يغمض العين عن مخازيك حتى بعد أن نزل بها الوحى؟؟» .

هب أبوه واقفًا وصرخ فى حدة : «أهذا ما تعلمته من الإسلام؟؟ أتقذف بهذه الكلمات البذيئة فى وجه أبيك؟؟ يا ليت أمك لم تلدك!! إن القرآن لم يذكر اسمى صراحة . . » .

سدد الابن إليه نظرات حادة . .

قال الأب : «إنها نفس النظرات التى يرمقنى بها ابن الخطاب . . إننى أكره هذه النظرات . . أتفهم؟؟» .

– «أنت تعرف الحقيقة يا أبتِ . . » .

– «أية حقيقة يا فتى؟؟» .

– «أنت تخطئ . . ولو استطعت خداع الناس جميعًا فلا يمكن أن تخدع نفسك . . كيف تقابل الناس بعد اليوم؟؟ وكيف تلتقى بالرسول؟؟» .

تمتم الأب فى ضيق : «أنا لا أكره محمداً . . إن ما يثيرنى هو هؤلاء القساة الذين يلتفون حوله . . خذ مثلاً عمر بن الخطاب . . إنه يحرض محمداً على قتلى . . كيف يبيح لنفسه

أن يقول ذلك؟؟ من هو؟ ومن أنا؟؟ لقد ناصرناهم وآويناهم بعدما ذاقوا الأمرين من قريش ونكايتها . . إن أكتافنا هى التى حملت أعباء هذا الدين . . » .

- «أكتاف من؟؟» .

- «الأنصار يا فتى . . » .

- «ليس بالمدينة أنصار ومهاجرون . . بل بها مسلمون . . لم تزل تفكر يا أبى بعقلية الماضى . . إن الأنصار لا يؤازرون المهاجرين . . بل الجميع يتكاتفون من أجل إعلاء كلمة الله . . تلك هى القضية بصورتها الحقيقية . .

الأوس . . الخزرج . . المهاجرون . . الأنصار . . لماذا هذا التقسيم . . إننا اليوم عصبة واحدة تستند إلى الحق، وتسير وراء الرسول . . وليس لنا لواء غير لواء الإسلام . . مهما تعددت الأسماء . . إن للأنصار فضلاً . . وللمهاجرين . . لكن الفضل الأكبر لله الذى من عليهم جميعًا بنور الإيمان . . » .

هز أبوه رأسه فى ضيق وقال : «أجئت لتعلمنى أمور الدين، وتشرح لى نظام المدينة؟؟» .

- «إننى أشرح لك وجهة نظرى . . » .

- «احتفظ بها لنفسك . . إننى أحترم محمداً لا شك فى ذلك، ولكن . . » .

فقاطعه ابنه قائلاً : «ولهذا حاولت أن تثير الفتنة بعد غزوة بنى المصطلق، ثم نشرت حديث الإفك . . » .

أشاح الأب بوجهه غاضبًا وقال : «إن وزراء محمد وحاشيته يسيئون التصرف، ولا يستحقون ما يضفيه عليهم من ثقة كبيرة . . ولا صلة لى بحديث الإفك . . هل استطاع أحد أن يمسك بجرم ظاهر وقع منى؟؟» .

قال ابنه فى حزم : «محمد أدرى بالرجال منك . . ومحمد يختار رجاله وأصفياءه عن تجربة، ويثق فى إخلاصهم، وحسن فهمهم لدعوته . . ولا يقرب أحداً لقرابته، ولا يحابى إنسانًا لهوى . . إنه يقيس الرجال بمقياس التقوى . .

ويبدو أنك تريده أن يقيم وزنًا كبيراً للأحساب والأنساب والعنجهيات الجاهلية . . إن محمداً نبى وليس ملكًا ينشد رضى أصحاب النفوذ . . ولهذا انتصر وسينتصر بإذن الله . . » .

أقبل الأب نحو ولده، وأمسك بكتفه فى غلظة، وهزه هزاً عنيفًا وقال : «والآن لتخرج من بيتى . . لا أريد أن أرى وجهك هنا ثانية . .

اللعنة على المدينة ومن فيها . . أنا لا يهمنى الناس، لا أريد أن أرى وجـه أحـد، لا أريد أن أتعـامل مع أحـد . . أن هذه الفضيحة التى نزل بها الوحى، وتلك الكلمات التى تقال عنى فى كل مكـان . . كل هذه الكلمـات لن تقـربكم منى، إنهـا تملأ نفـسى مـرارة وحنقًـا . . وليس هذا هو السـبـيل لعـلاجى . . أتفهم؟؟

لا أريد أن أرى أحــدًا منكم هنا، والآن اذهب فـوراً دون تردد . . ».

ودفع ولده إلى الخارج . .

فتمتم عبد الله فى أسى: «سامحك الله يا أبى . . ».

□□□

الفصل ٢٠

جلس حيى بن أخطب وحده، الدنيا فى عينيه كابية حزينة والآفاق مقيتة سمجة والحياة لا طعم لها، لقد تمزق يهود بنى القينقاع، وذهب يهود بنو النضير مع الريح، وانكسرت القبائل التى كانت عازمة على غزو المدينة، بعد أن داهمها محمد واحدة إثر أخرى، وأخذهم قبل أن يأخذوه، ووضع لأطماعهم وعدوانهم حداً، وقريش فرحت بنصرها الساذج، وانطوت على نفسها تخدعها وتقنعها بأنها قامت بواجبها نحو محمد، وعبد الله بن أبى لزم بيته بعد أن كشف أمره، وفضحه بغيه، وبين القرآن نفاقه وأخاديعه بما لا يدع مجالاً للشك.. كل هذا ونجم محمد فى صعود، وأتباعه فى ازدياد، وقوته فى نمو، إن سلطانه يمتد ويمتد، ولا يكف عن عقد المعاهدات، وإقامة الأحلاف، حتى أوشك العرب أن يستلموا لسلطانه استسلامًا غريبًا.. ما معنى هذا؟؟ أن يصبح محمد سيد العرب المطاع، وأن تسود الدعوة الإسلامية أرجاء الجزيرة،

وأن يقضى على نفوذ اليهود وسلطانهم القديم، وألا يأخذ أحد بثأر بنى قينقاع وبنى النضير، وأن يبقى بنو قريظة ويهود خيبر فى رعب قاتل ينتظرون مصيرهم المحتوم، وبذلك لا تقوم لليهود قائمة بعد اليوم، إن مبادئ الإسلام التى حملها محمد قد لاقت تأييدًا كاسحًا، حتى الأعداء الذين يرفعون فى وجهه السيف، ويدبرون لغزوه لا يفعلون ذلك دفاعًا عن مبدأ، أو حماية لدين أصيل بالدرجة الأولى، إنهم ينظرون إلى الأمر من زاوية أخرى، فهم لا يحاربون إلا للقضاء على نفوذ المسلمين الذى يهدد نفوذهم، ولا ينفرون خفافًا وثقالاً إلا طمعًا فى أخذ غنائم المسلمين وأموالهم، وسبى ذراريهم ونسائهم، وهنا مكمن الخطورة، ليس هناك مبدأ يصارع مبدأ، ولا دين فى مواجهة دين، إن محمدًا وحده هو القادر على أن يحمل مبدأه ويشرحه للناس، ويحمل جنوده على الدفاع عن العقيدة، والاستشهاد فى سبيل الله . . ومحمد رجل منظم ذكى، ذو دراية كبيرة بأمور الدين والدنيا، والسياسة والحرب، والإدارة والسفارة، إنه يعرف جيدًا ماذا يفعل، لا يستطيع مواجهته إلا من يحملون مبدأ قويًا مثل مبدئه، وما أظن أن ذلك متوفر إلا فينا نحن اليهود . . ولكن يا لأحزانك يا حيى ابن أخطب . . إن اليهود قليلو العدد، ضعيفو الإيمان، لا يصمدون عند اللقاء، ولا مناص من أن نعيد تحريض قريش

من جديد، وأن نجمع أكبر عدد ممكن من القبائل المناوئة لمحمد. يجب أن يكون الحشد قويًا وضخمًا وحاسمًا هذه المرة.. أن يشكل ضربة نهائية.. ويجب أن تدار المعركة بحكمة وروية.. وبقسوة أيضًا.. يجب ألا يبقى فى أرجاء الجزيرة فرد واحد يهتف باسم محمد، أو يترنم بالإسلام...

هذا ما كان يعتمل فى ذهن حيى بن أخطب وهو جالس وحده ينتفض حقداً وغيظًا، ولم يقف عند هذا الحد، بل نقل أفكاره إلى يهود بنى النضير الذين صدعوا للضربة الأخيرة، وتفرقوا أيدى سبأ، ولكن بقية منهم لجئوا إلى بنى قريظة خفية، فكان طبيعيًا أن ينحاز هؤلاء إلى رأى حيى بن أخطب، كما انضم إليه أبو رافع بن أبى الحقيق وغيره، لكن جماهير بنى قريظة أبت الانسياق وراء تيار الحقد، إن بينهم وبين محمد اتفاقية تعاهد فيها الطرفان على الصداقة ورد العدوان عن كليهما، إلى غير ذلك من بنود التحالف والإخاء المتين..

وانطلق حيى بن أخطب إلى قريش..

- «يا أبا سفيان، ماذا تنتظرون؟؟ أو تظن أن محمداً سيضمر جيشه، وتنحصر دعوته فى مكان ضيق حتى تضمحل؟؟ لا وألف لا.. إن محمداً سوف يضربكم هنا فى عقر داركم، وسيسبى النساء والذرارى، ويذيل محمد قريشًا، ويقضى على كبرائها..

يا أبا سفيان . . لا تحسب أن انتصاركم فى «أحد» انتصار حقيقى، لقد استفاد محمد منه أكثر مما استفدتم، تعلم مزيداً من الحذر، وتعلم جنوده مزيداً من آداب الحرب والحرص والطاعة، أما أنتم فقد ثملتم بالنصر الصغير، وتركتم له الحبل على الغارب . . ها قد قطع عليكم طريق التجارة إلى الشام، وقضى على القبائل واحدة واحدة وأنتم نائمون أو متناومون . . ولم يبقَ إلا أنتم ونحن . . ولسوف يأكلنا ثم يثنى بكم، وبعدها تدين له بلاد العرب قاطبة . . ويصبح تاريخكم وأمجادكم مجرد ذكرى غابرة، وستصب الأجيال لعنتها علينا لأننا قصرنا فى حفظ أمجادها وتراثها . . لقد استطاع رجال محمد أن يقتلوا عمرو بن جحاش . . إنهم لا يتركون ثأرهم . . دائمًا يقضون على من يتجرأ بالعدوان عليهم . . وفعلوا مثل ذلك بكعب بن الأشرف . . وسيفعلون بك غداً . . يا أبا سفيان . . فكر فى الأمر مليًا . . » .

هز أبو سفيان رأسه وقال : «إن كلامك يحمل معنى خطيراً . . » .

- «إنه الفناء المؤكد لنا جميعًا يا أبا سفيان . . » .

- «إننى مؤمن يا حيى بكل ما تقول حرفًا حرفًا . . » .

- «هذا بداية النجاح . . » .

وأخذ أبو سفيان يدق جبهته بقبضته اليمنى ويقول: «لكن كيف السبيل إلى القضاء على محمد قضاء نهائيًا؟؟ إننى معك فى أن هذا الخطر الداهم المزمن يجب أن يكون له علاج حاسم وسريع . .».

وأخذ حيى بن أخطب وابن أبى الحقيق وغيرهما يشرحون وجهة النظر اليهودية، لابد أن يجتمع كل أعداء محمد فى صعيد واحد، قريش، وبنو سليم وأسد وفزارة وأشجع وغطفان واليهود . . كل هؤلاء، ويحاصرون المدينة من كل جهاتها، ويطبقون على محمد إطباقة نهائية، ويجعلون من هذه المعركة العمر . . معركة الشرف والمبدأ والكرامة . .

قال أبو سفيان: «أما قريش فهى رهن إشارتى، وفى إمكانى أن أحشد منهم بضعة آلاف فى فترة وجيزة . .».

أردف حيى بن أخطب فى سعادة غامرة: «أما القبائل فدع الأمر لى، إننى كفيل بتزيين المعركة لهم، فلسوف يجنون من ورائها الكثير من المال والسبايا والغنائم التى لا حصر لها، ولعل ذلك هو الهدف الرئيسى الذى سوف يتحرك رجال القبائل صوبه فى سرور . . ولن يترددوا لحظة فى تنفيذ ما أطلبه منهم إذا ما علموا أن قريشًا على رأس القوات المحاربة، وأن اليهود بمالهم وسلاحهم ورجالهم سيقفون إلى جوارهم . .».

وضحك أبو سفيان ضحكة أثارت الدهشة لدى المجتمعين، ولدى حيى بن أخطب خاصة، فقال حيى بن أخطب: «لم تضحك يا شيخ قريش؟؟».

- «ولم لا أضحك؟؟ إننى أتذكر ذلك الرجل وهو بيننا، أتذكر محمداً وحوله عدد قليل من السفهاء والضعفاء، وأتذكر سخرياتنا منه، وكيف كنا نلهو بتعذيب رجاله، ونهزأ بالعبيد الذين آمنوا بدعوته.. وكيف حاصرناهم فى شعب بنى هاشم وتركناهم يتضورون جوعًا وعذابًا وعزلة.. وأتذكر يوم خروجه من مكة ضعيفًا متخفيًا يبحث عن مكان أمين يأوى إليه.. أيمكن أن يتصور عاقل أن هذا هو الرجل الذى هزمنا فى «بدر»، وسبب لنا المتاعب فى التجارة، وجعلنا نبذل أقصى الجهود للتغلب عليه يوم «أحد».. واليوم.. واليوم.. نحشد له العرب قاطبة من كل مكان لنحاول كسر شوكته.. يا للأقدار!! ماذا لو نجحنا فى تدبير مقتله قبل هجرته؟؟

أكان يحدث ما حدث؟؟

قال حيى بن أخطب: «ليس هذا هو المهم، المهم أن نصعقه قبل أن يستفحل خطره أكثر من ذلك».

قال أبو سفيان فى استغراب: «لكم أتساءل كيف بلغ محمد ما بلغ؟؟ لقد كنا قوة كبيرة، ومعنا المال ولدينا

الأمجاد، ويسودنا نظام عتيد عريق، كيف اهتز هذا كله أمام كلمات محمد؟ . . وكيف نما شأنه وازدهر، وهو لا يملك للناس إغراء غير كلمات بسيطة عن الله . . والجنة والنار . . والشيطان والعدل والإخاء . . . أكان هذا شيئًا ينقص العرب؟؟ هل كانوا فى مسيس الحاجة إلى من يقول لهم هذه الكلمات؟؟ ولماذا لم نقدم البديل الذى يصرفهم عنه، ويجذبهم إلينا؟؟».

نظر إليه حيى بن أخطب نظرات متمعنة، نفس التساؤلات الشائكة التى جالت بخاطره كثيرًا، أترى يكون محمد على حق؟؟ هل الله معه؟؟ وهل نحن على باطل؟؟ وما جدوى هذه التساؤلات وقد فات الأوان، ولم يعد من الحرب الفاصلة مهرب؟؟

قال حيى بن أخطب وهو يعلم سلفًا مدى تفاهة أفكاره: «يا أبا سفيان إن محمدًا يستغل السذج والبسطاء من الناس، ويغرى أصحاب ذوى الطموح والمكانة منهم، ويفتح أمامهم أبواب عالم آخر . عالم سحرى ملىء بالخيالات والسحر والأحلام الرائعة . . ».

قال أبو سفيان فى مكر: «واليهود أيضًا . . أليس عندهم جنة ونار؟؟».

قال حيى متصنعًا المرح، ومحاولاً الهرب من الإجابة الحقيقية المؤلمة: «يبدو أن محمداً استطاع أن يزوق جنته بألوان أزهى وأجمل مما فعل أحبارنا الأجلاء..».

تنهد أبو سفيان فى ضيق وقال: «ومع ذلك فأنتم مسئولون معشر اليهود عن نكبة العرب».

قال حيى وقد ارتسم الجد على وجهه: «كيف؟؟».

- «أنت تعرف..».

- «يا أبا سفيان إن أحداً لم يقاسِ من محمد مثلما قاسى اليهود، لقد طرد بنو قينقاع، وطرد بنو النضير، وتمزق شملنا..».

قال أبو سفيان: «إننى أعرف ذلك جيداً، لكن هل تنسى أن محمداً هاجر إلى المدينة ومعه عدد قليل من المكيين؟؟ هل نسيت أن المدينة -برغم سلطان اليهود وصلاتهم الوثيقة بأهلها- قد أفسحت صدرها للرجل الطريد.. ونامت عن أطماعه، وأمدته بكل ما يحتاج إليه من أمن ومال ورجال؟؟

وليت الأمر وقف عند هذا الحد.. ألم يقم اليهود أنفسهم بمحاولة كسب رضاه، وجلب صداقته، فعقدتم معه المحالفات والمعاهدات، وقبلتم إمارته غير المباشرة عليكم؟؟

إن إبرامكم المعاهدات معه قد جعله السيد المطاع الآمن فى المدينة . . » .

قال حيى بن أخطب فى شىء من الأسى والأسف : « لا أنكر ما تورطنا فيه من أخطاء ، لكننا لم نكن قادرين على معاداة الأوس والخزرج حلفائنا الأقدمين ، ولم يخطر ببالنا أن محمداً سيشكل خطراً داهمًا كالذى نراه اليوم . . أنتم فى مكة وقعتم فى نفس الخطأ ، لو علمتم ما ينتظره من نباهة شأن ، وعلو ذكر ، وصعود سلطة وقوة ، لأرقتم دمه بأية وسيلة ، ولقضيتم على هذا الخطر فى مهده . . لقد رأينا رجلاً طيبًا ألوفًا ، ينشد الأمن والسلام ، ويمد يده لمصافحتنا فصافحناه ، ولما وجدنا عوده يشتد ، ومبادئه تغزو القلوب ، وأتباعه يكثرون . . استيقظنا من نومنا . . أخذنا نناوئه ، ونثير الناس ضده ، نقضنا ما بيننا وبينه من محالفات ، لكنه استغل نقضنا ذلك ببراعة وبعنف ، فطرد بنى قينقاع وبنى النضير ، وفتح عينيه جيداً على تحركاتنا وتدابيرنا . . ثم إذا فعلتم أنتم وقد سمعتم بما يفعله فينا من أفاعيل ؟؟ يا أبا سفيان إننا جميعًا مسئولون عما نتعرض له من تهديد هذا الرجل لأمجادنا وسلطاتنا ومستقبلنا ولا يصح أن نبكى على ما فات . . بل نفكر فى اتخاذ الإجراءات الكفيلة بضربه ضربة ساحقة لا يفيق بعدها أبدًا . . » .

قال أبو سفيان وقد طأطأ رأسه: «الحق معك».

وأردف حيى بن أخطب: «إننا أمام عدو ذكى لبق، محمد ليس بالرجل السهل، ورجاله يتفانون فى سبيل المبادئ التى لقنها لهم، فتشربتها قلوبهم وعقولهم وأرواحهم، هذه الاستماتة هى الخطر الداهم.. إن قتله وحده لم يعد يجدى نفعًا، تلك حقيقة.. إن مات محمد فإن مبادئه السحرية باقية يحملها نفر من الأشداء الأقوياء الإيمان.. عمر، أبو بكر، عثمان، على، الزبير، أبو عبيدة، سعد بن معاذ، وغيرهم كثيرون.. إن القضاء على الخطر يعنى القضاء على هؤلاء جميعًا.. يجب أن نعد أنفسنا لحرب إبادة..

تمتم أبو سفيان: «أجل.. إبادة..».

ثم استطرد أبو سفيان وقد رفع رأسه: «وبنو قريظة؟؟».

- «ما شأنهم..».

- «هؤلاء اليهود يا حيى بن أخطب بينهم وبين محمد عهود ومواثيق، وقد علمت منكم بالأمس عدم وضوح موقفهم بل إن زعيمهم كعب بن أسد يبدو أنه مصر على ولائه لمحمد، واستمساكه بما بينهما من عهود..».

قال حيى: «هؤلاء أبناء جلدتنا، وانحيازهم لنا أمر مؤكد..».

- «إنهم يشكلون جانبًا مهمّاً.. فهم يسكنون ضواحى المدينة.. وهم أدرى بمداخلها ومخارجها وأسرارها، وانحيازهم إلينا سوف يطعن المسلمين طعنة فى الصميم ويؤدى إلى انهيارهم.. الضربة من الداخل أعنف وأفعل..».

ابتسم حيى قائلاً: «لا تشغل بالك من هذه الناحية، فأنا بحلها كفيل، والآن دعنى أنطلق إلى غطفان وفزارة وأسد وغيرها من القبائل حتى نكمل حشودنا لليوم الموعود..».

- «رافقتك السلامة..».

ddd

الفصل [٢١]

بيت صغير من بيوت المدينة، الساكنون فيه قوم فقراء، في حظيرة البيت قليل من الأغنام والإبل، وأمام البيت نخلات صغيرة لم تجد بالثمر بعد، وفي إحدى الحجرات الداخلية يجلس شاب في مقتبل العمر، وأمامه زوجه الصغيرة السن، لم يكد يمضي على زواجهما أكثر من أربعة أيام.

قالت هند لزوجها: «لقد عدت من صلاة العشاء متأخراً الليلة..».

شرد رابح بذهنه لحظات، وزاغت نظراته وغمغم: «إنه لخطب جسيم..».

قالت وقد دق قلبها: «ماذا جرى يا رابح؟؟».

- «جولة جديدة من العناء.. ستكون جولة قاسية مريرة لا يعلم إلا الله مداها..».

- «أهي الحرب؟؟».

- «نعم..».

- «قريش من جديد؟؟».

- «ليت الأمر أمر قريش، إن العدوان الجديد يجمع قريشًا واليهود والمنافقين، وكثيراً من القبائل منهم غطفان وأسد وفزارة وغيرهم..».

- «وكيف تقاتلون هذه الجموع الهائلة، إن عددهم لا شك سيزيد على عشرة آلاف مقاتل، وسيأتون مدعمين بكل ما يحتاجون إليه من مال وسلاح وأحقاد..».

قال رابح فى ثقة لا تعدلها ثقة: «لقد فرضوا علينا القتال فرضًا..».

- «ألا تكون هناك وسيلة لتجنب ويلات الحرب..».

- «إن الرسول يتمنى ذلك من قرارة قلبه.. هو لا يطلب منهم سوى أن يفتحوا الطريق ليسمع الناس كلمته، ولهم أن يقبلوها أو يرفضوها.. إن الرسول لا يرغم أحداً على الإيمان بما يدعو إليه، لكن الأعداء، يسدون الطريق، بل ويرفعون السيف فى وجه كلمات الله.. أو تظنين أننا نستطيع أن نقف جامدين وسيوف البغى تعلو هاماتنا؟؟

إننا مسوقون للحرب سوقًا، نضرب بسيوفنا ونحن أشد ما

نكون شوقًا للسلام والراحة . . لأننا لا نستطيع أن نجابه السيف بغير السيف ، فالعدو لا يبغى سوى الفناء لنا ، والقضاء على دعوتنا . . الألوف يزحفون صوب المدينة . . كل العرب من حولنا أصبحوا أعداء . .

لم يبقَ إلا بنو قريظة ، إنهم ما زالوا متمسكين بالعهد القائم بينهم وبين المسلمين . . اقتربت هند من زوجها وقالت فى دهشة : «وكيف تقاتلون هذا الجيش اللجب وأنتم قليلو العدد؟؟ إن انتصاركم عليهم أمر يكاد يكون مستحيلاً . . » .

- «تلك هى الحقيقة . . لابد أن يكون هناك تصرف ما . . خطة لا تخطر على البال . . مفاجأة توقف من تدفق هذا السيل الجارف . . إننا سنخوض الحرب يا هند الحبيبة أيًا كان الأمر ، إذا أراد الرسول أن يخرج للقتال فسنخرج . . لن نفكر فى النتيجة . . إن الموت فى ساحة القتال حتى آخر رجل أحب إلينا من الحياة الذليلة . . من التسليم . . وكيف يحنى الحق رأسه للباطل ، وكيف ننكس راية الله ، وترتفع رايات هبل والشرك والنفاق واليهود المنحرفين؟؟ إن الموقف صعب . . شديد الصعوبة . . وليس أمامنا إلا الاستسلام أو الموت . . ونحن نفضل الموت . . والموت فى سبيل الله يا هند صورة من صور النصر . . بل لعلها أروع صور النصر إطلاقًا .

شحب وجه هند، وارتجفت أناملها الدقيقة، ودارت بذهنها أشياء لم تشأ أن تبوح بها، إن الموت كلمة رهيبة حقًا، وهى تحب زوجها الوفى الذى سيطر على مشاعرها وروحها منذ أن عاشرته، وعاشت معه تحت سقف واحد، وهى ترمق الآن وجهه الأسمر المستطيل، ولحيته السوداء الصغيرة، وعينيه الحادتين اللتين تشعان قوة وصفاء وإيمانًا، ثم تتخيل أن هذا الوجه الباش النضر قد يلفه التراب، ينطمر فى حفرة مظلمة، فيذوب قلبها أسى، وتتمزق روحها حسرة، لعلها لم تفكر فى الموت بهذه الحدة، ولم تستعرض صورته المنفرة تلك، قبل زواجها . . هل جاء إليها الزواج بالحب والحياة السعيدة . . وبالأنانية أيضًا؟؟ أفاقت فزعة من هواجسها حينما سمعته يقول: «أترهبين الموت يا هند؟؟».

لكأنما يقرأ أفكارها، ويلحظ ما يعتمل فى فؤادها من انفعالات، ولما لم تجب قال: «العمر ليس هو الفترة الممتدة بين المولد والوفاة . . الموت يا هند لحظة نوم قصيرة وإن طالت . . وبعد الموت بعث . . وحياة أخرى أعظم وأروع . . لكننا لا نرى هذه الروعة ولا تلك العظمة بحواسنا القاصرة . . والحياة التى نلمسها أبعد تأثيرًا فينا من الحياة المنتظرة، تلك كانت المشكلة، أما وقد تفضل الله علينا بنعمة الإيمان، وهدانا إلى الإسلام فقد تحول الموت من شبح مخيف مرعب إلى أمنية

عزيزة المنال. أصبح هو المعبر الذى نعبره إلى العالم الآخر الجميل. . تلك هى الصورة الجديدة للموت. . إنها صعود ورفعة وانتقال إلى وجود أعز وأروع. . الموت له قيمة وخاصة إذا مات المرء وهو يناضل من أجل إعلاء كلمة الله، ونشر العدل والخير، وتصحيح أفكار الناس عن الله، وعبادته وحده. . ذلك هو الموت العظيم. . أما موت الفراش فهو شىء صغير تافه لا قيمة له. . وإن حمل المؤمن إلى العالم الآخر بما فيه من روعة وجلال. . استمعى إلى كلمات القرآن يا هند ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. . أتسمعين؟؟ أحياء يا هند. . فلم تفزعين من الموت؟؟».

قالت هند وقطرات الدمع تبلل أهدابها: «آمنت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً. .».

ثم انكفأت على ذراعه وأخذت تقول فى براءة وهى تبكى: «سامحنى يا رابح. . لقد ارتعدت مفاصلى من ذكر الموت. . إننى أحبك يا رابح، وأتمنى أن نظل معًا فى الدنيا والآخرة. . أن نحيا معًا، وأن نموت معًا، وأن نبعث معًا. . إن وجودك إلى جوارى متعة ما بعدها متعة. . اعذرنى أيها الحبيب. . حدثنى كثيراً عن الله. . عن محمد. . عن دين الله. . أريد أن أكون مثلك. . بل ليتنى أستطيع أن أحمل سيفى وأعلو به

هامات المشركين والمنافقين . . إن الموت الذى تتحدث عنه رائع حقًا . . إننى فى مسيس الحاجة لأن يقوى إيمانى أكثر وأكثر . . أن أنسى كل شىء تافه ولا أذكر سوى الأشياء العظيمة التى يعلمنا إياها رسول الله . . » .

وتمتم «رابح» : «لقد قال الرسول يا هند : «لن يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» . . » .

قالت هند وهى تجفف دموعها : «هذا هو السر الذى جعلكم تندفعون وراءه فى شوق جارف تاركين وراءكم الدنيا بكل ما فيها من مال وزخارف وأهل وولد . . لقد كنت أحب الرسول حبًا كبيرًا . . أما حبى له الآن فقد نما وازداد . . إننى أحبه لأنه الرسول . . وأحبه أيضًا من خلالك . . إن الرجل الذى تزوجنى من صنع كلمات محمد . . أعنى أنه سوى فكرك ، وشكل قلبك وروحك . . وهذب سلوكك وكلماتك . . وأنت من تكون؟؟ أنت الفكر والقلب والروح والسلوك . . وهذا ما أحبه فيك . .

انفجر رابح ضاحكًا وهو يقول : «تتكلمين وكأنك عجوز فى الستين . . » .

– «وأنت تتحدث وكأنك فيلسوف فى الثمانين . . مع أنك لم تتجاوز السادسة والعشرين . . » وسادت فترة صمت ، كان

كل منهما يفكر فيما تبادلاه من حديث، وعلى الرغم من كل ما قيل فإن القلق لم يزل يسيطر عليهما، ولم يكن مصدر هذا القلق هو الخوف من الموت، كان التفكير فى الرسول وفى دعوته ومصيرها هو الذى يشغل الذهن، ويبعث على الإشفاق، أليس من العجيب أن يجد الباطل هذه الحشود الضخمة، والإمكانيات الكبيرة، فى الوقت الذى يقف فيه الحق وحوله عدد قليل من الرجال والعتاد؟؟ وإذا كان الله يريد النصر لدينه، والحماية للمؤمنين به، والهزيمة لأعداء دعوته فلماذا لا يخسف بهم الأرض، أو يطبق عليهم الجبل، أو يبعث عليهم الجراد والثعابين والوحوش المفترسة كى تقضى عليهم وعلى باطلهم؟ اللهم غفرانك.. لا عتاب ولا ملام، إن لك فى خلقك شئونًا.. هذا ما كانت تحدث به هند نفسها، ولهذا قالت فى تساؤل: «لماذا يكثر عدد المشركين وعدتهم؟؟ لماذا يبدو وكأن الغلبة لهم؟؟».

- «إنك يا هند تحاولين دائمًا أن تبحثى عن العلل والأسباب..».

- «أريد أن أعرف الحقيقة..».

ابتسم رابح فى سعادة وقال: «منذ أن جاء الرسول، ومنافذ فكرنا قد تفتحت.. كنا نتقبل الأمور على علاتها، كل الحقائق

مسلم بها لا يصح مناقشتها أو نقدها، أما الآن فقد غزا الفضول عقولنا.. حتى النساء أخذن فى الحديث عن كل شيء.. حتى قضايا القضاء والقدر».

قالت فى غير قليل من اللهفة: «أريد أن أعرف الحقيقة..».

- «الحقيقة.. إنها ليست جديدة.. إنها تتفق وطبيعة الحياة وطبائع الناس.. لا نصر بغير عناء وتضحيات.. الباطل لا يستسلم طواعية، من صفاته الإصرار والعناد.. إنه باطل أتفهمين؟؟ والحق لا ينتصر وحده دون جهود.. إن قوى الشر تقف فى مواجهته.. النصر لا يقدم هدية من السماء إلا لمن تدعم بالإيمان القوى، وتعلم كيف يجاهد النفس والهوى والناس، عندئذ يكون جديراً بأن يحمل شرف الدعوة الإلهية.. لقد خلق الله قوة الفكر وقوة الجسد وقوة الروح لتتآزر كلها فى بناء الأمة الفاضلة.. النصر السهل السريع لا مذاق له.. والذين يتلقونه لا يقدرونه حق قدره.. ولا يستطيعون حمايته أو الدفاع عنه، كان فى الإمكان يا هند أن يهبنا الله رغيفًا.. لا.. لقد أعطانا الحب، والحب نزرعه ونسقيه، ونمهد له الأرض، ثم نحصده، ثم نجففه، ثم نطحنه، ثم نعجنه ونخبزه.. وبعد ذلك يحلو مذاقه إذا أكلناه..

تلك إرادة الله ومشيئته . . ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] هكذا قال الله فى كتابه العزيز . . والخليفة ليس ملكًا وتاجًا وكسلاً وترهلاً . . لكنه إنسان يعرق ويكافح . . والخليفة ليس رجلاً واحداً بعينه . . بل كل منا خليفة . . أتفهمين يا هند؟؟

وابتلع رابح ريقه ثم قال: «لقد استطعت أن تجذبينى إلى أحاديث شتى كادت تنسينا أهوال الأيام القادمة . . ».

طأطأت رأسها فى ألم وقالت: «أجل . . الحرب . . فكيف تجابهون هؤلاء الشياطين؟؟ إنهم ألوف مؤلفة . . ».

قال رابح: «ظل الرسول يفكر ويفكر . . إنه يبحث عن سلاح جديد . . إنها المعركة الفاصلة يا هند لو انتصرنا فيها لدان العرب للإسلام، ولقطعنا مرحلة كبيرة فى شوط النضال الطويل -ولو هزمنا لا قدر الله- فسنعانى من جراء ذلك عناءً شديدًا . . ».

قالت فى حماس: «إن الله لن يخذلكم . . ».

- «هذا هو الأمل . . ».

- «بل يبدو لى فى مرتبة اليقين . . ».

- «نحن فى حاجة إلى معجزة . . إننا سنذود عن الإسلام بكل ما نستطيع . . لكن هل هذا يكفى؟؟».

ودق باب البيت فجأة، وثب «رابح» مسرعًا، وجرى صوب الباب، وسمعت هند حديثًا خافتًا، وبعد لحظات أغلق الباب، ثم عاد يفكر.

قالت هند: «ما بك؟؟ هل جد جديد؟؟».

قال ووجهه يشرق بالسعادة: «هذا هو الجديد الذى أبحث عنه..».

- «ماذا؟؟».

- «قرر الرسول حفر خندق طويل يمتد بين «جبل سلع» و«حرة المدينة» مثل هذا الخندق يحمى المدينة من الشمال، ويمنع تدفق الأعداء إليها.. أما باقى الجهات فقد توفرت لها الحماية الطبيعية من جبال وبساتين وغير ذلك من الموانع.. هذا هو الجديد..».

قالت فى دهشة: «خندق؟؟».

- «أجل.. سيكون عميقًا فإذا ما حاول أحد الأعداء عبوره لاقيناهم بالنبل والسيوف وتمكنا منهم.. تلك فكرة «سلمان الفارسى» وقد عرضها على الرسول بعد أن رأى عدم رغبته فى الخروج إلى ميدان مكشوف خارج المدينة.. إن الخروج فى أرض مكشوفة ونحن قليلو العدد سوف يعطى الأعداء فرصة ذهبية للإحاطة بنا.. قد يتكرر ما حدث فى «أحد» وفى المدينة

العــدد الكافى من الرجـال والأقـوات والميـاه . . وفى المدينة نستطيع الصمـود من شارع إلى شـارع ومن بيت إلى بيت . . وفى المدينة سيتوفر لنا الإمداد بكل ما نحتاج إليه، ويستطيع النساء أن يقمن بدور فعال . . ».

قالت هند مقاطعة وهى فرحة: «إذن سأتمكن من الاشتراك فى المعركة . . ».

- «إذا احتـاج الأمـر . . بقى أن تعلمى أن بنى قـريظة من اليهود ما زالوا حافظين لعهدهم مع رسول الله وسيمدوننا بالأقـوات، وبهـذا تكون المدينة فى أمـان تام . . سنفـرغ للأعداء فى صبر وحكمة . . لن نتهور أو نعبر الخندق . . سنقف قبالتهم نضرب بشدة كل من سولت له نفسه العبور إلينا . . إن الرســول بعــمله هذا قــد أخــرج الأحــزاب المجتمعة . سيتركهم فى العراء والشتاء القارس يبحثون عن ثغرة كى ينفذوا إلينا منها وهيهات . . إنها خطة بارعة . . إن الموقف دقيق وحـرج . . ونحن لا نطمع فى نصـر نسحق به الأعداء، ولكننا ننشد النجاة من الوقوع فى شباكهم . . إننا فى موقف دفاع عن رصيدنا من الرجال والمبادئ والمكاسب التى حـقـقناها طول السنين الماضـية . . لـم يئن الأوان بعـد لنعد العدة لسحقهم . . لو استطعنا ردهم نكون بذلك قد نجحنا نجاحًا كبيرًا . . إن الرسول يعرف جيدًا يا هند ما

يجب عمله . . إن الله يلهمه الصواب، ويؤتيه الحكمة . . .

وصمتت هند برهة ثم قالت : «أتعتقد أن بنى قريظة سيكونون أوفياء؟؟» .

- «ولِمَ لا؟؟ ومع ذلك فإن الشك لم يزل قائمًا، إن حيى ابن أخطَب هو الذى حرض قريشًا والقبائل . . لكن بعض اليهود رفضوا تحركاته، ونقموا على تصرفاته، ومنهم كعب بن أسد زعيم قريظة . .» .

واحتقن وجهه غيظًا وقال : «تصورى يا هند أن أبا سفيان سأل حيى بن أخطب اليهودى قائلاً له : هل دين قريش أعظم وأحق بالاتباع أم دين محمد؟؟ وأنت تعلمين أن قريشًا تعبد الأصنام، وأن اليهود أهل كتاب .

قالت هند : «أعرف ذلك!! ولا يمكن أن يعترف أهل الكتاب بصحة عقيدة المشركين، وعبادة الأصنام . .» .

قهقه رابح ساخراً وقال : «الكارثة أن حيى بن أخطب أكد لأبى سفيان أن دين قريش حق، ودين محمد باطل . .» .

- «أمر عجيب . .» .

- «إن أبا سفيان نفسه دهش لهذا الكلام، وشك فيه،

وطلب من حيى بن أخطب أن يدلل على كلامه بالسجود لأصنام قريش. . ».

هتفت هند: «مستحيل أن يفعلها اليهودى الذى يؤمن بكتاب موسى. . ».

- «بل فعلها يا هند. . وقاد رفاقه اليهود إلى ساحة الأصنام وسجدوا لها وعفروا جباههم بترابها. . ».

- «إن حقد اليهود فوق التصور. . يكفرون بكلمات الله، ويدوسون مقدساته، وينكرون نبوة محمد وقد ذكرت عندهم فى كتبهم. . يفعلون كل ذلك. . أليس هذا غريبًا؟؟».

قالت هند: «وما بنو قريضة إلا يهود قلبًا وقالبًا. . ».

- «نحن معهم ما داموا على العهد. . ».

ooo

الفصل [٢٢]

كان حيى بن أخطب يعلم جيدًا أن مهمته شاقة وصعبة بالنسبة ليهود بنى قريظة، لأن زعيمهم «كعب بن أسد» قوى الشكيمة، عميق النظرة، فضلاً عن أن «عمرو بن سعدى» وهو رجل من رجالات قريظة المشهورين، يأبى الانصياع لآراء المتطرفين والمغامرين من اليهود؛ لذا أدرك حيى أن من الواجب عليه أن يتخذ كل الوسائل، ويلجأ إلى كل السبل كى يقنع قريظة بالدخول فى حلف الأحزاب، فليس من المعقول أن يحشد حيى قريشًا وغطفان وغيرهما، ويسوق عشرة آلاف جندى من غير اليهود دون أن يستطيع إقناع بنى قومه بالمشاركة فى المعركة، سيكون شيئًا مضحكًا بل ومدعاة للسخرية المرة إن فشل فى إقناع بنى قريظة.

وما إن اقترب حيى بن أخطب من حصن «كعب بن أسد» زعيم قريظة، حتى رآه الحراس، فأسرع إلى كعب وأخبره الخبر، فانتفض كعب واقفًا، وصاح بأعلى صوته: «أغلقوا أبواب الحصن فى وجهه.. لا أريد أن أراه..».

وفوجئ حيي بالأبواب تغلق، وعيون الحراس ترميه بنظرات ذات معنى، تلفت حوله، وقاس المكان بنظراته، ثم دق الباب بعنف، فقال أحد الحراس: «لن نفتح لك..».

- «كيف؟؟».

- «هذه أوامر كعب بن أسد.. عد من حيث أتيت.. إن كعبًا يرفض مقابلتك..».

قال حيي في دهشة: «أهناك سبب لذلك؟؟ أخ لكم يطرق بابكم، فكيف تسدون الطريق في وجهه؟؟».

وبينما كان حيي يتطلع إلى أعلى رأى كعب بن أسد يطل بوجهه المكفهر ويهتف: «ماذا تريد؟؟».

- «ويحك يا كعب.. افتح لي».

قال كعب في حنق: «ويحك يا حيي.. إنك امرؤ مشئوم، وإني قد عاهدت محمداً، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أرَ منه إلا وفاءً وصدقًا..».

تنهد حيي في ضيق وقال متوسلاً: «افتح لي أكلمك».

- «ما أنا بفاعل.. لن أفتح للفتنة بابًا جديداً يدخل منه الشر والفساد.. لن أجر الوبال على قومي وعشيرتي.. إنني أعني ما أقول..».

ضحك حيى فى مكر ودهاء وقال: «إننى أعرفك يا كعب ابن أسد. . والله ما أغلقت دونى إلا تخوفًا على جشيشتك[1] أن آكل معك منها. . أنت لم تعرف بعد لماذا أتيت إليك. فلم تتسرع فى الاتهام. وتوصد بابك، وتعاملنى كلص، وأنت سيد الحلم والكرم والحكمة؟؟ أترضى أن أرجع ويعلم الناس أن سيد قريظة يرفض لقاء الإخوان، وقرى الضيف، وإغاثة اللهفان؟؟».

شعر كعب بغير قليل من الحرج والخجل، ومن ناحية أخرى أن أحداثًا كبرى تجرى من حوله، وحب الاستطلاع يدفعه دفعًا لأن يعرف ما جد من أحداث، إن كعبًا يريد أن يسمع لمجرد العلم، حتى يكون على بينة، إن الحرب ستنطلق من حوله، ونيرانها ستتسع وتشمل القاصى والدانى، ودخانها سيزكم الأنوف، فمن الضرورى أن يعرف سيد قريظة كعب بن أسد ما يدور حوله. .

وطأطأ كعب بن أسد رأسه وقال للحراس: «افتحوا له أبواب الحصن. .».

وما إن دخل حيى بن أخطب، حتى جذب كعبًا من كمه، ودفعه إلى مكان قصى بالداخل لا يراهما فيه أحد، وكعب

(١) البر يطحن غليظًا.

يتبعه مستغربًا، وأخيراً قال حيى: «أبشر يا كعب.. جئتك بعز الدهر.. جئتك بقريش حتى أنزلتهم «بجمع الأسيال» وبغطفان حتى أنزلتهم بجانب «أحد».. قد عاهدونى وعاقدونى ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه..».

وابتلع ريقه، ثم عاد يقول: «أتسمع جيداً؟؟ حتى يستأصلوا محمداً ومن معه..».

قال كعب فى انفعال: «أجل أسمع.. وسمعت مثل هذا كثيراً قبل كل مأساة.. لتغلق فمك يا حيى..».

- «ليس هناك مدعاة للخوف، إذ إن وراءك عشرة آلاف بقضهم وقضيضهم..».

قال كعب فى مرارة: «لقد جئتنى والله بذل الدهر، وكل ما يخشى، فإنى لم أرَ فى محمد إلا صدقًا ووفاء.. جئتنى يا حيى بجهام[1] قد أهريق ماؤه، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شىء».

وصمت برهة وجيزة ثم استطرد فى إصرار: «ويحك يا حيى.. فدعنى وما أنا عليه، فإنى لم أرَ من محمد إلا صدقًا ووفاء..

---

(١) سحاب عظيم ليس فيه ماء.

ما جربت عليه غدراً قط، وما بدأنا بإساءة، وما حدث من قبل كان الخطأ منا، وعيب كامن فينا.. تلك هى الحقيقة يا حيى..».

كشر حيى عن أنيابه، انقلبت سحنته، هدر فى حنق: «ماذا جرى لك يا كعب بن أسد؟؟ ما هكذا تكون الفطنة والسياسة.. والوفاء والصدق وحفظ العهود.. كلها كلمات يترنم بها الضعفاء.. لا ترفع لامرئ شأناً، ولا يقيم بها دولة، لو استطاع محمد إفناءكم لداس كل العهود والمواثيق.. أتعتقد أن محمداً سيتركنا إذا ما تمت له السيطرة على العرب؟؟ فكر بعقل وروية يا كعب بن أسد.. وأمامنا فرصة العمر لن يجمع العرب هذا الحشد الضخم فى أى وقت آخر من الأوقات.. إن المواثيق خدعة يلهو بها الأقوياء، ويضحكون بها على الضعفاء.. لن يكون هناك سوى يهودية أو إسلام فاختر أيهما، ولسوف يتضاءل كل نفوذ إلى جوار نفوذ محمد، وسيتقلص ظلنا، وتذوب أموالنا، ويضمر سلطاننا، ونتحول إلى قبيلة ضعيفة مطاردة من قبائل هذه الجزيرة.. هذا إذا سمح لنا محمد بمجرد البقاء إلى جواره.. لقد عاهدت قريشاً يا كعب عهداً لا ينقض.. لن ينصرفوا قبل القضاء على محمد ومن معه.. أتفهمنى؟؟

هز كعب بن أسد رأسه فى حيرة وتمتم: «لست أدرى ماذا أفعل، دعنى أجمع لك عددًا من الرجال.. إن الأمر لا يخصنى وحدى..».

واستدعى كعب عددًا من بنى قريظة، وتركهم يستمعون لكلمات حيى بن أخطب وإلى حجته القوية وانفعاله الحار، وتعلقت به أبصارهم وهو يتحدث عن المستقبل الذى ينتظر اليهود، واحتمالات الموقف، وأخذ يصور لهم عالمًا جديدًا.. حيث لا محمد ولا أحد من المسلمين.. وحيث سلطات اليهود المطلقة.. حيث حرية التصرف فى المال والتجارة والاستغلال.. واللعب بمصير القبائل وضربها ببعضها.. وحيث يعلو نجم اليهودية، وتعلو التوراة.. كان يمزج الدين بالسياسة، والمال بالمجد، ويلعب بكل ما يستطيع اللعب به.

وأخيرًا تكلم زعماء اليهود الحاضرون..

قال الزبير بن باطا: «هذا كلام طيب، ولابد من الانصياع لرأى حيى بن أخطب».

وقال عزّال بن ميمون: «مزقوا ما بيننا وبين محمد من مواثيق، إما نحن وإما هو لا مكان لنا نحن الاثنين..».

وقال شاس بن قيس: «لقد شرد محمد إخواننا، ويعثر

قوانا، قضى على مستقبل بنى قينقاع وبنى النضير لسوف يثلث بنا، فاضربوه ضربة رجل واحد ولا تفزعوا. . ».

وقال عقبة بن زيد: «يا رجال بنى قريظة. . لا تضيعوا الفرصة التى لن تتكرر. . إن مصلحة اليهود فوق كل العهود والمواثيق المقدسة. . لتذهب كل مواثيقنا مع المسلمين إلى الشيطان. . » وبقى رجل واحد ظل صامتًا طيلة الجلسة، وهو «عمرو بن سعدى»، رفع عمرو بن سعدى رأسه ورمى الجلوس بنظرة قوية ثابتة لا تتململ، ثم قال: «استمعوا إلىّ جيدًا يا زعماء بنى قريظة، إننى أخ لكم ولست بمتهم. . ولا أصدر فى رأيى إلا عن خبرة وتجربة وروية. . إن نقض العهد عاقبته وخيمة ومحمد ظل دائم الوفاء والصدق، وحسن المعاملة. . إننا ملزمون بالقتال إلى جواره. . والدفاع عن المدينة حسب ما بيننا من عهود. . فكيف تبيحون لأنفسكم أن تشهروا السلاح فى وجهه، وتعينوا عدوه عليه. . فلتثبتوا على العهد يا زعماء بنى قريظة ولا تنصاعوا لرأى حيى بن أخطب. . وإذا لم تنصروا محمدًا، فعلى الأقل اتخذوا موقف الحياد. . إذا لم تنصروا محمدًا فاتركوه وعدوه. . . ». .

وحدث هرج ومرج، إن حيى يهاجم عمرو بن سعدى، ويتهمه بقصر النظر، والتمسك بالمثاليات الجوفاء التى لا طائل من ورائها، ويرميه بالغباء، وعدم الإسراع فى انتهاز الفرص،

ويسفه من آرائه السطحية الساذجة، وأنه ليس على مستوى المعركة الكبرى الوشيكة الوقوع، ولا على مستوى المسئولية التى حملتها له بنو قريظة هو وغيره من الزعماء، عاد حيى يشرح الأمر، ويحلل الموقف تحليل السياسى الداهية البارع، ضاربًا عرض الحائط بما يثيره عمرو بن سعدى من قضايا مثالية سخيفة لا تتفق ومستقبل اليهود ومطامعهم.

وأخيرًا اتفق الزعماء اليهود على تمزيق الصحيفة التى تتضمن العهد المعقود بين النبى ويهود بنى قريظة، إيذانًا بنقض العهد، والانضمام للأحزاب، وأعلن كعب بن أسد وبقية الزعماء موافقتهم على حرب محمد، وضربه من الخلف ضربة فى الصميم لا نجاة منها . .

أما عمرو بن سعدى، فقد أعلن رأيه النهائى: «لن أشترك فى هذه الجريمة . .».

ثم استطرد فى انفعال: «والله لا أغدر بمحمد أبدًا . .».

فصاح حيى بن أخطب: «انصرف عنا، أنت وشأنك، لن يضيرنا أن يهرب من المعركة رجل واحد . . أو ثلاثة والتضحيات يا عمرو لا يصمد لها كل الرجال . .».

وتركهم عمرو بن سعدى ومضى إلى بيته . .

وبعد فترة صمت قال كعب بن أسد زعيم بنى قريظة:

«أنصت إليّ يا حيى بن أخطب . . هناك أمران لابد من الوفاء بهما . . » .

قال حيى فى استفسار : «ماذا تريد؟؟» .

- «أولاً . . لابد من طرح الأمر على شعب بنى قريظة فى ميدان عام، وأنا واثق أنهم سوف يستجيبون لمنطقك القوى . . » .

- «والثانى يا كعب؟؟» .

- «ثانيًا . . أن نأخذ عليك العهود والمواثيق أن تبقى إلى جوارنا فى حصوننا حتى يصيبك ما يصيبنا إذا رجعت قريش وغطفان دون أن تقضى جيوشها على المسلمين قضاء تامًا . . » .

وضحك حيى ضحكًا متواصلاً حتى كاد يستلقى على ظهره . . ثم قال : «موافق . . أتعتقدون أن محمداً سيجد فرصة أخرى لمحاصرتكم مرة ثالثة ، والانتقام منكم؟؟ عشرة آلاف . . أتفهمون ما معنى عشرة آلاف؟؟ ومحمد ليس معه سوى ألف جندى ثلثهم من المنافقين . . والثلث الثانى جياع عراة . . والثلث الأخير سوف يمزقه الفزع والبرد والمصير المحتوم . . إنها النهاية أيها الرجال . . وأنا إلى جواركم . . داخل حصونكم . . حتى نشهد معًا ذلك المشهد العظيم . . محمداً وصحبه . . وهم ملقون على الثرى تنزف منهم

الدماء . . وتلطخهم الأوحال . . إننى معكم لنرى زوجات محمد وزوجات أصحابه من المهاجرين والأنصار . . أسارى . . يتساقين كئوس الذلة والهوان . . ويمضين مطأطئات الرءوس . . ساكبات الدموع يجلل العار موكبهن الحزين . . معكم . . حتى نرى معًا . . أنف عمر بن الخطاب يمرغ فى الرغام . . ولحية أبى بكر تخضبها الدماء وجبهة على ابن أبى طالب تحت الأقدام . . معكم يا بنى قريظة . . فى حصونكم المنيعة حتى النصر . . ».

وصمت برهة، ثم أصدر أوامره قائلاً : «يا كعب بن أسد . . هيا إلى الميدان العام، ولتدعُ شعب بنى قريظة إلى اجتماع عام . . يجب أن يتم كل شىء على وجه السرعة . . ».

وابتسم حيى فى دهاء وقال : «عندما يعلم محمد بنقضنا للعهد، سينهار . . سيرى اليهود من خلفه، والأحزاب من أمامه، والموت يحيط به من كل مكان . .

عندئذ سوف يعلن استسلامه . . بدون شروط . . أجل بدون شروط . . عندها سنقرر ذبح المحاربين وسبى النساء والذرارى . . وأخذ الأموال غنيمة . . وينتهى كل شىء . . وتصبح قصة محمد قصة طريفة . . ترويها العجائز للأطفال فى الأمسيات القمرية الجميلة . . ها . . ها . . ها . . ها . . ».

الفصل [٢٣]

وقف حيى بن أخطب وسط شعب يهود بنى قريظة، وأخذ يجادلهم ويعتب عليهم: «يا معشر اليهود، ماذا تنتظرون؟؟ لقد توافدت العرب من كل مكان للإطباق على محمد وجماعته، إنها الحرب لم يرَ محمد لها مثيلاً، لقد أتى الطامعون من رجال القبائل، والحاقدون من كبار التجار فى مكة، والساخطون من أرباب الأمجاد والسلطات الدينية القديمة.. والموتورون ممن أصيبوا فى معركة من المعارك على يد المسلمين.. وعلى رأس هؤلاء أبو سفيان بن حرب من قريش والحارث بن عوف من غطفان، ومسعر بن رخيلة من أشجع، والله لتندمن على تقاعسكم يا بنى قريظة، ولتلعنن كل من دعاكم إلى الانكماش والوقوف موقف المحايد.. انظروا الآلاف المحيطة بالمدينة.. ولولا الخندق الذى حفره الخبثاء من رجال محمد لتدفقت قواتنا داخل المدينة، وانتهت المعركة بين يوم وليلة..».

قال أحد الشيوخ من يهود بنى قريظة: «أنت تعلم يا ابن أخطب أن بيننا وبين محمد تحالفًا . . ».

- «أى تحالف تقصد، إنك تراه يكاد أن يسقط بين سيوف القادمين من أنحاء الجزيرة؟».

- «لكأنك تريد أن تقول لنا أن التحالف لا قداسة له إلا مع الأقوياء . . فإذا ما انتاب الضعف طرفًا من الأطراف، فلا عهد له ولا ميثاق . . ».

قال حيى بن أخطب فى شىء من الضيق: «إنى أرى فرصة ذهبية لإعادة مجدنا فى الجزيرة وإنقاذ بنى قينقاع وبنى النضير المضيعين فى البوادى، والإجهاز على قوة محمد والمسلمين . . تلك فرصتنا الوحيدة، فإذا آزرنا المسلمين، فلن نحقق من وراء صمودهم شيئًا يذكر، بل إنى أعتبر أن كل نصر يحققه المسلمون إنما سينعكس علينا فى المستقبل وبالاً وهزيمة، وكل تقاعس منا سيجعل قريشًا والقبائل تنظر إلينا نظرتها إلى المسلمين . . ومن ثم نعرض أموالنا وأنعامنا للسلب، ونساءنا وذرارينا للسبى . . إننا يا معشر اليهود فى موقف اختيار، ولابد أن نحسم الموقف بسرعة . . » اقترب أحد رجالات بنى قريظة من «حيى بن أخطب»، وأمسك بذراعه وأخذ يهزه فى حنق وأخذ يقول فى انفعال ظاهر: «إننا لا نستفيد من أخطائنا، بل ربما يكون بنا ميل موروث للشر

والتردى فى الخطأ . . ثم لا تفكرون فيما حدث لبنى قينقاع وبنى النضير؟؟» .

قاطعه حيى قائلاً : «إنني لا أطلب منكم ما أطلبه إلا إنقاذاً لمن بقى من اليهود ، ومحاولة لإعادة بنى قينقاع وبنى النضير إلى ديارهم . . فكيف تتهمنا بأننا لا نفكر فيهم؟» .

رفع الرجل يده صائحًا : «أعنى التفكير فى مصيرهم بسبب ما وقعوا فيه من أخطاء . . » .

قال حيى بن أخطب : «قد يكون تهور بنى قينقاع وبنى النضير من بعدهم خطأ فاحشًا . . وصور الخطأ تتغير من وقت إلى آخر . . لقد تحرك بنو قينقاع فى وقت غير مناسب ، وبطريقة خاطئة وكذلك فعل بنو النضير ، أما هذه المرة بالنسبة لكم يا بنى قريظة ، فإن رؤيتكم وتعقلكم واعتصامكم بالعهد الذى بينكم وبين محمد سيكون حماقة . . حماقة كبرى هذه المرة . . وصاح رجل فى مؤخرة الصفوف : «ياأبناء عمومتنا . . لا ندرى ماذا نفعل ، أن الذين يحاربون محمداً يظهرون دائمًا تفسخًا وفوضى فى نظامهم وقيادتهم وخططهم . . إنهم يعرضون أنفسهم وحلفاءهم للخطر دائمًا . . إنهم يبدون منهزمين حتى فى أوج انتصاراتهم . . أما محمد وأتباعه فهم يعرفون ما يفعلون . . متماسكون حتى فى أوقات الهزيمة . . حذرون حتى فى نشوة ساعات النصر» .

صرخ حيى بن أخطب: «لكل مقام مقال، أجئت لتقنعنا بضرورة الانصياع لمحمد والانضواء تحت رايته؟؟».

قال الرجل فى حزم: «أجل..».

استشاط حيى غضبًا وقال: «أيها المجنون، لو كان محمد يعرف أن لديه أقل أمل فى النصر لما اختبأ وراء هذا الخندق، ولما لزم المدينة وظل متحصنًا بها، لائذًا ببيوتها وطرقاتها وموانعها.. إن عدم خروج محمد إلى الميدان المكشوف ليس له سوى معنى واحد ألا وهو أنه أضعف من أن يجابه هذه الحشود، ومن ثم فإن نهايته قد قربت.. إن كل هم محمد هو الدفاع.. الدفاع ولا شىء غير ذلك، أتفهمون؟؟».

وسادت فترة صمت قال حيى بن أخطب بعدها: «ألا فلتعلموا أن هزيمة محمد مؤكدة، وهذه حقيقة يلمسها أقل الناس خبرة وأوسطهم عقلاً.. ألا فلتعلموا أن الأحزاب سوف يأخذون الأسلاب والسبايا من المدينة.. فإذا لم تضربوا بسيوفكم إلى جوار الأحزاب فستقعون أنتم أيضًا فى أيدى المهاجمين.. لأنكم ستكونون آنذاك حلفاء محمد، وشركاء للمسلمين فى الهزيمة والإثم...».

وأخذوا يتداولون الرأى فيما بينهم، وبدا جليًا أن الأمر ليس أمر تحالف مع محمد، فما أسهل أن ينقض اليهود

عهودهم، ولكن الحوار كان يدور حول المستقبل، ولمن تكون الغلبة، وأن تردد اليهود فى نقض عهدهم ليس بسبب الوفاء والصدق، وإنما الخوف من تقاعس الأحزاب، وانفراد محمد بهم بعد ذلك، ومن ثم التنكيل بهم أو على الأقل طردهم كما طرد من قبل بنو قينقاع وبنو النضير، وظل حيى بن أخطب يشرح لهم وجهة نظره باستفاضة، وأخيراً قال: «يا بنى قريظة.. إن المعركة القائمة تعلق عليكم آمالاً كبيرة.. فالمسلمون الآن يعرفون جيداً أنكم معهم، وتحمون ظهورهم، وتؤازرونهم على عهودهم.. إن صمودكم إلى جوار المسلمين هبة من السماء إليهم.. والآن، أتدرون كيف يكون وقع انفصالكم عنهم، وإعلانكم الحرب عليهم؟؟ أتدرون ماذا يحدث؟؟ لسوف ينهار المسلمون انهياراً تامًا.. سوف يسقطون إعياء ويأسًا، معنى ذلك أن العرب قد حصروا المسلمين فى حيز ضيق لا نجاة منه ولا مهرب.. لقد فقد المسلمون النصير والحليف.. إن انقلابكم على المسلمين يا بنى قريظة سيكون العامل الحاسم فى إلحاق الهزيمة بهم.. ولهذا فأنا أدعوكم للحركة السريعة، ومرونة التصرف قبل أن تضيع الفرصة إلى الأبد.. والآن لتأت ملائكة السماء.. إن الملائكة لن يجدوا ثغرة أو فرصة لحماية النَبى المزعوم».

وسمعت ضجة وسط الساحة التى اجتمع فيها كبراء اليهود

من بنى قـريظة، وصـمت حـيى بضع لحظات، ثم اتجـه إلى الحـارس الواقف إلى جـواره وقـال: «مـاذا هناك؟؟ هل داهم المكان أحد من المسلمين؟؟».

ابتسم الحارس فى مكر وقال: «وكيف يخلصون إلينا؟؟ إن امرأة يهودية تلح فى لقائك..».

- «امرأة؟؟ من تكون؟؟».

وانقـذفت فـجـأة إلى داخل المقـصـورة المقـامـة، ودفـعت الحارس دفعًا قويًا حتى كاد يسقط.

- «ألا تعرفنى يا حيى بن أخطب؟؟ ألا تعرفوننى يا معشر اليهود؟؟ إننى أشم رائحة غدر جديد.. وبالتالى أشم رائحة مأساة جديدة.. لقد أنذرتكم أيام بنى قينقاع وحذرتكم فى بنى النضير.. أتذكر ذلك يا ابن أخطب أنت والملعون الصريع عمرو بن جحاش؟؟ أتذكر كيف وضعتمونى فى سجن، وقيدتم ساقى وغللتم يدى؟؟ لقد جئت لأقول لكم كلمة واحدة يا يهود بنى قريظة..».

صاح رجل وسط الجالسين: «ما هى؟؟».

قـالت اليـهـودية بصـوت يخـالطه البكاء: «جـربوا الوفـاء مرة.. مرة واحدة..».

ثم ابتلعت ريقها وأخذت تقول: «لقد سرتم فى طريق الغدر

والخيانة، فلم تجنوا غير الشوك والمرارة والضياع والتمزق، لماذا تحاربون محمداً؟؟؟ إنه لم يرغمكم على اعتناق دينه، ولم يسقكم إلى حظيرة الإسلام بسيفه، ولم ينكث بعهد، ولم ينقض اتفاقًا معكم.. لكنكم دائمًا تشعلون الحرب ضده، فإذا ما أخذتكم بجرمكم حملتم عليه ورميتم المسلمين بكل نقيصة..» قال حيي ابن أخطب في شيء من الضيق: «نستطيع الآن أن نعاملك كعاقلة، على أن تقفي بهدوء وتناقشي الأمر معنا.. أما أن تبكي وتثوري فهذه وسيلة لا أقرها في الوصول إلى الحق..».

رمته بنظرات متشككة وقالت: «إنك تعاملين برقة لم آلفها فيك، يبدو أن في موقفك ضعفًا، وأن بني قريظة يعارضون أفكارك..

- «ما هكذا تكون بداية الحوار يا امرأة..».

- «إنك يا حيي بن أخطب تحمل وزر الذاهبين من بني قينقاع وبني النضير، ولا أريد أن تضم إليك وزراً ثالثًا.. لا.. مثل هذا الوزر سيكون رهيبًا..».

ويذل حيي أقصى ما يستطيع من جهد كي يدخل في روعها أن أمر محمد قد انتهى، وأن الهزيمة ستحيق به سواء انضم اليهود إليه أو إلى الأعداء، وأن الهدف من هذا الاجتماع هو الإسراع في الانحياز لأعداء محمد حتى يحقق اليهود كسبًا

بأدنى ثمن، بل لعله بلا ثمن على الإطلاق، ولم توافق اليهودية على هذا المنحى من سرد الأحداث وتفسيرها، لقد كان يلح على فكرها، شيء واحد وهو أن هناك عهداً بين اليهود والمسلمين لا يصح أن ينقضه اليهود، وأن التجربة أثبتت أن الغدر قد جر على اليهود والوبال دائمًا . . والكارثة أنهم لا يتعلمون . .

وقال اليهودية وهى تنصرف حانقة: «لقد بعث إليكم محمد برجاله بالأمس يسألكم عن عهودكم . . أتذكرون بماذا أجبتم؟؟ لقد أخبرتم الرسل أنكم على العهد، وأنكم فى صف المسلمين ضد الأعداء المهاجمين للمدينة . . اذكروا هذا جيداً . . وتصوروا أنفسكم فى وضع محمد ورجاله ثم انقضت عليكم خيانة كالتى تنوون ارتكابها . . ماذا يكون شعوركم؟؟

يا حيى بن أخطب . . إن دم الرجال فى عنقك . . يا حيى ابن أخطب إن سبى النساء والذرارى فى عنقك . . يا حيى بن أخطب أنت المسئول عن رحلة الضياع والشقاء الطويلة . . ».

كان الليل حالك السواد، شديد البرودة، ومع ذلك فقد كان جبين حيى بن أخطب ينضح بالعرق وهو يترك مكان الاجتماع ومعه جماع من كبار اليهود، عازمين على زيارة بعض الأحبار للاستنارة برأيهم، ولم يجد حيى كبير مشقة فى

اجتلاب رضى الأحبار وانصياعهم لرأيه، وتحمسهم له، ثم أخذ «حيى» يشرح الطريقة التى ينقض بها اليهود على المسلمين وهم حول الخندق . .

إن اليهود إذا استطاعوا إثارة الاضطراب فى المدينة، ومحاولة ضرب المسلمين من الخلف، فسوف يحصرون المسلمين بين الخندق، وبينهم . . ولا يمكن للمسلمين أن يدافعوا عن الخندق وفى الوقت نفسه يتصدون لمناوشات اليهود، بذلك ستكون هناك فرصة طيبة لقريش والأحزاب، ومن ثم يمكنهم عبور الخندق الذى شكل عائقًا حقيقيًا فى وجه المهاجمين . .

وتطلع حيى بن أخطب عبر الظلام إلى بعيد . . إلى حيث تنتشر نقط النيران المضيئة إلى مسافات بعيدة حول المدينة . . وقال حيى فى سعادة: «انظروا إلى نيران الأحزاب . . إنها تبدو كعيون الشياطين . . ثم انظروا إلى المدينة والنار تحيط بها . . ترى إلى أين يهرب محمد هذه المرة؟؟

اليوم يوم السيف والدم . . وليس فيه مجال للمعجزات . . بشرى . . بشرى يا يهود بنى قريظة أنتم الصخرة التى تحطمت عليها آمال محمد . . رسول الله!!» قالها ساخراً ثم مضى . . .

□□□

الفصل [٢٤]

حملت الأنباء إلى الرسول نوايا الغدر اليهودى، بل أكدت له عيونه أن بنى قريظة قد نقضوا العهد، وانحازوا للأعداء، تألم الرسول ألمًا شديدًا، وحز فى نفسه أن يغدر أهل الكتاب به فى هذا الوقت العصيب، ومع ذلك فقد بقى شىء من الأمل يراوده، ألا يجوز أن يكون فى هذه الأنباء المزعجة مبالغة؟؟ وإذا صدق الرواة ألا يمكن أن يعدل بنو قريظة عن غدرهم ونقضهم للعهد؟؟ إن إجراء نوع من المفاوضات، يصحبه شىء من التذكير والتحذير، أو النذير اللبق، قد يؤدى إلى خير فى موقف هؤلاء المشبوهين. . ثم إن الرسول يريد أن يستوثق من صحة الخبر، حتى يمكنه أن يدير شئونه، ويدبر أموره على أساس الحقائق التى جدت فى الموقف، لهذا استدعى زعيمى الأوس والخزرج، واثنين آخرين من الأنصار، وشكل منهم وفدًا إلى بنى قريظة، وحين بلغ الوفد بنى قريظة، أدرك سعد ابن معاذ سيد الأوس، وحليف اليهود فى الجاهلية ما يرتسم

على وجوههم من شماتة خفية، وحقد دفين، وحين دلف إلى الحصن اليهودى الرئيسى حيث ينتظره زعماؤهم، همس فى أذن سعد بن عبادة زعيم الخزرج.

- «إنى أرى فى عيونهم الغدر..».

- «هؤلاء الأنجاس يا ابن معاذ لا أمان لهم..».

- «لننتظر حتى نرى..».

التأم شمل الوفدين: وفد الرسول، ووفد زعماء قريظة، وأخيراً قال سعد بن معاذ حليفهم القديم: «أى بنى قريظة.. إنكم ترون الأعداء يحاصرون المدينة من كل جانب، بل إن المناوشات قد بدأت فعلاً.. وبيننا وبينكم يا بنى قريظة عهد، والعدوان علينا عدوان عليكم وفى مثل هذه الأوقات الحاسمة يجب أن توضع المحالفات موضع التنفيذ.. فما كانت هذه المحالفات بذات قيمة إذا لم تطبق تطبيقًا أكيداً.. ولقد أرسلنا النبى لنرى رأيكم فى هذه الأمور الخطيرة..».

قال كعب بن أسد: إن محمداً يجر على نفسه الوبال، ولسنا على استعداد لدفع الثمن من دمائنا وأموالنا من أجل أخطائه وعداوته..».

قال سعد بن معاذ: «ما معنى هذا الكلام؟؟».

قال كعب: «معناه واضح. . نحن لا نعادى قريشًا، وليس بيننا وبين غطفان أو أسد أو غيرهما من القبائل ثارات قديمة. . فلم يريد محمد أن يجربنا لحرب هؤلاء؟؟».

قال سعد بن معاذ: «يا حلفائى الأقدمين. . إننا لا نجركم لحرب، بل ندعوكم للدفاع عن أرضكم التزامًا بما بينكم وبين رسول الله من اتفاق. .».

احتقن وجه حيى بن أخطب غضبًا وقال: «من هو رسول الله هذا؟؟ إذا كان رسول الله حقًا فلينقذ نفسه من هذه الورطة. . أنبى مرسل من عند الله ويستجدى عوننا؟؟».

صاح سيد الخزرج سعد بن عبادة، وكان حاد الطبع، شديدًا فى الحق، وقال: «أيها اللؤماء. . الزموا حدودكم. . أتسخرون من رسول الله؟؟ ماذا تنتظرون؟؟».

قال كعب بن أسد متدخلاً: «إننا لن نغفر صفقاتك يا سيد الخزرج، ونستطيع أن نؤذيك بسيوفنا. .».

هاج ابن عبادة وماج، لكن ابن معاذ برغم أنه لم يتجاوز الأربعين -كان لبقًا حكيمًا هادئ الطبع فجذب ابن عبادة من كمه، ودعاه إلى الصبر والهدوء، وذكر له أن الأمر أكبر من العنجهيات والشتائم . . وعاد سعد بن معاذ يوجه حديثه إلى كعب بن أسد: «يا كعب. . إننا ما جئنا لنشعل فتنة، أو نثير

شقاقًا، بل جئنا لنرى ما أنتم عليه بخصوص ما بيننا وبينكم من عهد . . ».

قال كعب فى حدة: «لا عهد بيننا وبين محمد . . ».

- «كيف؟؟».

عض كعب على شفته السفلى وقال: «الآن جئتم تطلبون منا الوفاء بالعهد الذى بيننا وبين محمد، وهو الذى كسر جناحنا، وأخرج إخواننا من بنى النضير . . اذهبوا لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد . . ».

انتفض سعد بن عبادة وهتف مغتاظًا: «إن هؤلاء السفلة يظنون أن بيدهم الحياة والموت . . ».

قال كعب ساخراً: «لماذا جئت إلينا إذن يا سيد الخزرج؟؟».

- «جئت لأعلمك درسًا فى الوفاء وحفظ العهود . . ».

- «اللعنة عليك وعلى آلك . . ».

وكادت تنشب معركة لولا أن أسرع سعد بن معاذ بالإمساك بصاحبه، وهزه بعنف وعاد يكرر له خطورة المهمة التى قدموا من أجلها، ودقة الظروف التى يجتازونها، وضراوة المعركة التى تنتظرهم، ومن ثم لابد من الصبر والهدوء وكظم الغيظ . .

وعاد سعد بن معاذ يقول لزعماء اليهود: «يا بنى قريظة . . أنتم تعرفون ودى إياكم، وصداقتى المتينة لكم، وتعرفون ما يكنه لكم قومى من الأوس من مشاعر طيبة، وذكريات أصيلة . . وحلفاؤكم فى الماضى يتمسكون بالرباط الوثيق الذى يربط بينكم وبين الرسول . . وما عهدنا عليكم بالأمس القريب غدراً ولا نقضًا، فلماذا تدوسون اليوم مقدسات العهود؟؟؟».

صوت واحد رد على سعد بن معاذ خالف الأصوات اليهودية كلها، إنه عمرو بن سعدى:

- «أى سعد . . إن كلماتك تجد صدى طيبًا فى نفسى، وإنى لأقرك على كل ما تقول حرفًا حرفًا، فنحن لم نلقَ من محمد خيانة ولا نقصًا . .».

هاج الزعماء القرظيون، ورموا عمرو بن سعدى بالجبن والضعف، وجروه خارج الاجتماع، وأكدوا لوفد الرسول إصرارهم على نقض العهد، وتحملوه لكافة التبعات، ورفضهم حتى موقف الحيدة . .

قال سعد بن معاذ: «هذه خطيئة لا تغتفر».

- «ليكن . .» قالها كعب بن أسد ساخراً، فرد سعد بن معاذ: «ولها عواقب وخيمة . .».

- «ماذا تعنى؟؟».

- «قد تقضى على كل علاقات الود القائم بينكم وبين المسلمين..».

قهقه حيى بن أخطب قائلاً: «إن بقى بالمدينة مسلمون بعد ذلك..».

- «إن الله لا يخذل أولياءه يا حيى بن أخطب..».

- «نحن أولياء الله وأحباؤه يا ابن معاذ..».

- «أولياء الله لا يدوسون العهود يا حيى..».

- «إنهم يدوسونها من أجل الله..».

- «أتؤمن بذلك حقًا يا حيى..».

- «إننى أكرهكم.. ولن أحفظ لكم عهداً بعد اليوم..».

قال سعد بن معاذ: «أتسمعون يا بنى قريظة؟؟ أتوافقون على كلمات حيى؟؟ ما رأيك يا كعب بن أسد؟؟ ألا وإننى لأخاف عليكم يومًا مثل يوم بنى النضير أو أمر منه..».

وكم كانت دهشة سعد بن معاذ حينما تناهى إلى سمعه كلمات خسيسة تنضح بالفجور والبذاءة.

تقاطر العراق على جبينه، وارتعدت مفاصله، لكنه

تماسك . . وطأطأ رأسه أسى وحزنًا وخجلاً أمام تلك الكلمات البذيئة ، ثم قال سعد : «غير هذا القول كان أجمل بكم وأحسن يا بنى قريظة . . » .

وأخذ يجفف عرقه ويقول : «لقد جئتكم آملاً ، ويدفعنى ود قديم ، وآصرة لم تبل ، وخشيت عليكم الدوائر ، وجئتكم أيضًا لأقوى ظهرى بعهدكم وسيوفكم فى هذه الملمة . . ألا وإن الله أقوى الأقوياء . . ولو اجتمع أهل السماء والأرض على أن يضرونا بشىء ، لن يضرونا إلا بشىء قد كتبه الله لنا . . والله يختص برحمته من شاء . . إننى عائد لرسول الله ، بعد أن أصابنى اليأس منكم . . ألا وإن لكل غدرة عقابًا . . » .

قال كعب بن أسد ساخراً : «انصرفوا عنا ، فلن يؤثر تهديدكم فى موقفنا . . إن بيننا وبينكم من العداء هوة سحيقة ليس بالمستطاع عبورها . . » .

وخرج الأنصار الأربعة من حصون اليهود المنيعة ، ورأوا بأعينهم كيف تعد قريظة الرجال والسلاح وكيف يقوون الحصون ، ويقيمون المتاريس ، ويستعدون للحرب ، وتمتم سعد بن عبادة وهم فى الطريق : «لوددت أن أنقض على عنق ابن أخطب بأسنانى هذا الملعون هو الذى ركب رأس ذلك الزحف الأسود ، وقاد موكب الحقد المجنون ، القادم من غطفان وقريش ، وهو الذى أوعز لبنى قريظة . . » .

قال سعد بن معاذ: «صبراً يا ابن عبادة . . إننى أضرع إلى الله ألا ألقى منيتى حتى يزول الشر، وينحسر ظل الأعداء، وينتصر المسلمون . . ثم أرى بنى قريظة . . أراهم وقد انصرف عنهم ما حشدوا، وبقوا وحدهم يغتالهم الرعب والجنون . . لكم أتمنى أن أحيا وأرى هذه الأمنية تتحقق . . ».

وتمتم ابن عبادة: «أجل . . كانوا يتكلمون فى غرور، ويلتفتون فى صلف، ويؤمنون فى صفاقة . . يتصرفون وهم واثقون أن العدو قادر تمامًا على سحقنا . . أعترف أن موقفنا عصيب، وأن أعداءنا تكاثروا علينا من كل جانب . . وأن المعركة عنيفة وقاسية . . لكنى لن أعيش حتى أرى الهزيمة التى تحيق بنا لن أعيش حتى أرى قريظة تسقينى كأس الهوان . . فسأظل أحارب ولو بقيت وحدى حتى الموت . . أتسمعنى يا ابن معاذ؟؟ حتى الموت . . والله لبطن الأرض خير من ظهرها».

وعادوا إلى الرسول يحملون إليه تأكيد الأنباء السيئة التى سمعها عن قريظة، وليعلنوا له وحده أن اليهود غدروا، وأنهم رفضوا حتى الالتزام بموقف الحياد، وأنهم انحازوا صراحة للأعداء . .

وهمس سعد بن معاذ: «سيكون ذلك شديد الوقع على رسول الله . . ».

الفصل [٢٥]

«هذا يوم عصيب» تمتم عمر بينه وبين نفسه، ولم يكن بحاجة لكى ينطق بهذه العبارة، إن الانفعالات الواضحة على وجهه تعبر تمام التعبير عن الموقف الشائك، ونظراته المضطربة التى يبعث بها عبر الخندق إلى بعيد. . إلى حيث توافدت قريش وغطفان وأسد وغيرهما. . وانهماك المسلمين فى تجهيز الخندق، والتناوب فى حراسته، واشترك الرسول فى الحفر وحمل الأتربة، وحث الجنود على العمل المتواصل، كلها تنبى عما كان يعتمل فى نفس عمر بن الخطاب من اضطراب وآلم، إنه يشعر بما يشبه الاختناق، يلتقط أنفاسه بصعوبة باللغة، العالم فى عينيه أضيق من سم الخياط. . لكأنما يشعر أن من حولهم بحاراً من الشر والحقد تموج وتمور. .

العابثون من غطفان يريدون الغنائم، والمتغطرسون من قريش يرفعون سيوفهم من أجل كبرياء فارغة، ورجال التجارة لا يحلمون بغير الدرهم والدينار، وبضائع الشام الجميلة. .

مصالح وعبث وحماقات . . إنهم لا يدرون أن هناك ما هو أعظم وأبهى من ذلك كله؟؟ الإيمان بالله ، الدعوة إلى الله . . لماذا لا يفكرون فى حياد وروية . . إنهم نالوا الدعوة الإسلامية ، وحطموا معقلها ، فسيخسرون كثيراً . . وهم الخاسرون أولاً وأخيراً . . والله -فى النهاية- متم نوره ولو كره الكافرون . . أفكار كثيرة تتصارع فى رأس عمر ، ومن آن لآخر يتمتم فى شرود : «هذا يوم عصيب» .

ومال سلمان الفارسى على أذن عمر قائلاً : «لسوف يدفعون الثمن غاليًا لو فكروا فى عبور هذا الخندق . . » .

- «الخندق وحده لا يكفى يا سلمان . . » .

- «بالطبع يا عمر . . إن السيوف المؤمنة التى تحرسه ستجعل له قيمته الكبرى . . » .

تنحنح عمر وقال : «لولا هذا الخندق لاستمر القتل فى شوارع المدينة ، ولكانت الآن ميدانًا رهيبًا ومسيلاً للدماء . . شكراً لك يا سلمان . . » .

ومر فى ذلك الوقت شاعر الإسلام المعروف «حسان بن ثابت» ، كان يهرول فى عجلة .

قال عمر : «إلى أين يا حسان؟؟» .

- «إننى أجهز عدتى للقيام بواجبى».

قال عمر: «وهل عدتك غير القرطاس والقلم ورصف أبيات من الشعر؟؟».

- «ماذا يا عمر؟؟ ألا تعلم أن الرسول قد جمع النساء والأطفال فى بيوت قوية البنيان متينة التحصين، حتى لا يستطيع الأعداء أن يتسللوا إليها إذا ما استطاعوا دخول المدينة؟؟ إننى سأشترك فى حراسة هذه البيوت..».

وعاد عمر يبعث بنظراته هنا وهناك ويردد فى أسى: «على الرغم من كل الاحتياطات التى نتخذها.. فإنه يوم عصيب..».

ثم التفت إلى سلمان قائلاً: «لماذا يستسلم الرجال عند اليأس؟؟».

قال سلمان: «يستسلمون لأنه لم يعد هناك شىء يحاربون من أجله.. ولم يعد هناك جدوى من التضحيات..».

صاح عمر بن الخطاب فى انفعال: «كيف؟؟ اليأس موت.. الاستسلام موت.. لا بد من مواصلة الحرب، اليأس والاستسلام هما الهزيمة.. الموت ليس هزيمة إنه استمرار للجهاد.. مقاومة للهزيمة، زحف نحو النصر

والجنة. . ولذلك لو استطاع الأعداء عبور هذا الخندق، فسنواصل الدفاع حتى آخر رمق. . ».

هتف سلمان: «الجهاد حتى النهاية، وإنما كنت أجيبك على سؤال عام، أما هنا فلن نستسلم. . ».

- «لن نستسلم -بعون الله- يا سلمان».

الجو شديد البرودة، وأيدى الرجال تصلبت على مقابض السيوف والرماح، وعيون الرجال مفتوحة تشق الظلام تكاد لا تطرف، والصمت الرهيب يبسط رواقه فوق آفاق المدينة والروابى التى تحيط بها، وأطراف الرجال لا ترتعد أو ترتعش على الرغم من الهول والبرودة القارسة. .

تمتم عمر: «برغم الأهوال فإننى أرى شيئًا رائعًا. . يا سلمان».

- «ماذا تريد؟؟».

- «إننى أرى فى أعين الرجال عزمًا لا يموت. . ».

- «أجل. . ».

- «لا أستطيع أن أتصورهم يتراجعون أو يهزمون. . إننى أرى الآلاف يحيطون بالمدينة، وأرى الشر يتربص بنا الدوائر، لكنى أشعر أن كل ذلك هباء. . ».

قال سلمان محاولاً المزاح: «يبدو أنك تعلّمت الشعر من حسان. .».

- «إننى أرى ما أرى بقلبى. .».

- «أجل. .».

- «اليوم يوم عصيب. . لكن الله معنا. .».

وأتى على بن أبى طالب، ومال على أذن عمر، وهمس بيضع كلمات، فاعتدل عمر على أثرها، وقرب حاجبيه فى دهشة، وساد الشحوب وجهه، وقال ولحيته ترتجف: «هل فعلوها؟؟».

قال على: «أجل. .».

قال عمر: «بنو قريظة. .».

وأردف على قائلاً: «لقد اشتد الكرب بالمسلمين، وبلغت القلوب الحناجر يا عمر، إنها لحظات حرجة وحساسة. . كيف يجرؤ اليهود على نقض العهد، فى ذلك الوقت العصيب؟؟».

ورد أحد الحاضرين: «إن خروجنا من هذه المأزق يبدو مستحيلاً. .».

وقال عمر: «خيانة بنى قريظة طعنة فى الصميم، لقد

هدمت ثلاثة أرباع خطتنا . . لقـــد انكشف ظهـــرنا لـهم وللأعــداء . . إنـهم يريدون لنا الفناء المحــقق. أهكذا يكون الحلفاء؟؟ لقـد ظهرت نواياهم آخر الأمر ، لو انتصر الأعداء فسيفعل اليهود بنا الأفاعيل . . » .

وقال رجل من الـصحابة : «يا عـمر . . لقد قدمت غطفان وغيـرها من القـبـائل طمـعًـا فى الغنائم والأسـلاب ، إنهم لا يفكرون فى عـقـيـدة ، ولا يحـاربون من أجل دين . . فلم لا نحاول الاتصال بهم ونعقد معهم صلحًا منفردًا على أن نعطيهم كل عام جـزءًا من ثمار المدينة؟؟ يجب أن نفكر فى حل يحفظ لنا قوتنا بل وجـودنا حتى ينمو عـودنا ويشتد . . الحرب خدعة ، ومـداراة . . يجب أن نبـحث عن أسلحـة أخـرى نخـذل بهـا أعداءنا ، ونلوح بالغنيمة لبعضهم ، ونترك البعض الآخر . . » .

قال عـمر : «هذا تصرف لا يروق لى ، ولكن اعرضوا الأمر على الرسول ، والأنصار . . » .

انطلقت مجموعة من رجال قريش على رأسها عمرو بن عبد ود وعكرمـة بن أبى جـهل ، واندفـعـوا تحت وابل النبل عـبـر الخندق ، ومـا إن عبروه حتى التحـمـوا فى مـعـركة مـحدودة ، استطاع على بن أبى طالب خـلالهـا أن يقـتل عـمرو بن عـبد ود أحد فرسان قريش المعدودين ، ونفذ المسلمون خطة الرسول ؛

وهو قطع المدد على هؤلاء العابرين المغامرين، ثم ضربهم بشدة مما جعل المهاجمين يفرون خارج الخندق، عائدين إلى مراكزهم الأولى بعد أن خسروا عدداً من الرجال.. وقال عكرمة بن أبى جهل وهو ينسحب: «لقد خيّل إلىّ بعد أن وجدت الخندق يفصل بينى وبين رجالى أننى فى أرض بعيدة غريبة.. وأنه ألقى بى فى أعماق الجحيم.. ورأيت عمر بن عبد ود يسقط مضرجًا بدمائه، دون أن أستطيع مساعدته.. إن هذا الخندق الملعون كان تدبيراً محكمًا.. السيف فى المعارك لا يكفى وحده أيها الرجال.. انظروا إلى المسلمين إنهم قلة فى العدد، على مساحة من الأرض ضيقة.. لكنى رأيتهم بعينى يجلسون كالنمور.. يفتحون عيونهم جيداً على كل ما يحدث.. يقيسون كل حركة، ويفعلون أى فعل حسب تدبير سابق..» وأدرك الجميع بعد التجربة السابقة، أن الخندق يشكل عقبة قاسية، وأن الحصار قد يطول، والبرد الشديد، والقبائل لا طاقة لها على حصار طويل الأمد، فهم فى حاجة إلى طعام وغطاء، وفى حاجة إلى سرعة التنفيذ فى هذا الزمهرير القاتل..

ونما إلى سمع «حيى بن أخطب» أن شيئًا ما يجرى بين قبائل غطفان وبين الرسول، فاستشاط غضبًا، وأرغى وأزبد، وذهب إلى زعيمهم الحارث بن عوف: «ألا فاعلم يا حارث أننى خبير بخفايا محمد وعميق أفكاره، وبعد نظره..».

قال الحارث مقاطعًا عليه استرساله فى الحديث : «إذا كنا نستطيع أن نحقق ما نصبو إليه دون إراقة دماء ، ودون أن نخسر رجلاً واحداً أو نضيع وقتًا : فلماذا نصر على الحرب؟؟» .

قال حيى بن أخطب غاضبًا : «كيف ذلك يا حارث؟؟» .

- «إن المسلمين على استعداد أن يعطونا كل عام ثلث ثمار المدينة إذا رجعنا إلى ديارنا وانصرفنا عن حربهم . . وإنى أعتبر هذا العرض كسبًا كبيراً لنا ، ثم إنه يعنى استسلام المسلمين لقوتنا ، وخوفهم منا ، فلن يستطيعوا فى المستقبل أن يرفعوا فى وجهنا سيفًا ، أو ينقضوا عهداً . . » .

قهقه حيى بن أخطب ساخراً وقال : «إن محمداً يحاول أن يأكلكم فرادى بعد أن عجز عن أكلكم مجتمعين ، إنه يريد أن يمزق شملكم ببعض العروض التافهة . . مجرد وعد ، فإذا ما جاءت الثمار ، وحان قطافها وجد محمد نفسه غير مهدد بحرب أو أحزاب . . عندئذ لن يبعث إليكم بثلث الثمار ، بل سيرسل إليكم ثلث جيشه لتأديبكم والقضاء على قوتكم . . » .

«يا حارث بن عوف . . يجب أن تفهم الموقف جيداً . . » .

قال الحارث : «ماذا تريد أن تقول ياحيى بن أخطب»؟

- «لابد من الحرب كما تعاهدنا واتفقنا . . » .

- «فإذا حققنا غايتنا بلا حرب . . » .

دق حيى الأرض بقدمه قائلاً : «أقول مرة أخرى لابد من الحرب . . الغاية هى القضاء على محمد . . » .

- «لماذا؟؟» .

قال حيى وقد تقاطر العرق على جبينه برغم برودة الجو : «إذا عقدت القبائل صلحًا مع محمد ، وإذا عقدت قريش هى الأخرى صلحًا مع محمد . . فسيبقى يهود بنى قريظة وحدهم لينالوا العقاب . . إنهم نقضوا عهدهم مع محمد من أجلكم أنتم . . من أجل القضاء على المسلمين قاطبة ، ومن أجل الاستيلاء على ثمارهم كلها لا على ثلثها . . » .

وبلع حيى بن أخطب ريقه وقال : «لقد تعاهدنا على الحرب ولا شىء غير الحرب ، ولن نقبل صلحًا مع محمد ، ولن نقبل منه سوى التسليم غير المشروط ، أعنى أن تسبى الذرارى والنساء ، وأن يقتل حملة السلاح ، وأن نستولى على كل الغنائم . . » .

لم يكترث الحارث بن عوف بكلمات حيى بن أخطب ، إن الحارث يعرف جيداً ما يريد ، لا شىء سوى بعض الثمار والغنائم ، والحارث يعلم أن محمداً إذا وعد بثلث الثمار فلن يتنكر لوعده أنه يعادى محمداً ، لكنه فى الوقت نفسه يعرف

أخلاق محمد وسلوكه واحترامه للمواثيق والعهود، لقد استبد الضيق برجال غطفان، وأمضهم الملل، إنهم لا يستطيعون البقاء هكذا تحت البرد والمطر والظلام والجمود.. إنهم يريدون الحرب، ويريدون حسم المعركة بسرعة حتى يعودوا إلى ديارهم.. الوثوب ثم العودة.. أما الحصار لمدة قد تطول، فى انتظار هدف قد لا يتحقق فهو أمر لا يستقيم وطبائع الرجال فى غطفان.. إن بنى قريظة قد يتضايقون إذا اتفقت غطفان ومحمد.. وليكن.. ليفعلوا ما شاءوا.. إن الحارث يعرف جيدًا أن لليهود غاية خبيثة قد تختلف عن غايات العرب المهاجمين لمحمد جميعًا.. الحارث يعرف ذلك منذ أن وافق على الاشتراك معهم فى حرب محمد.. وقريش هى الأخرى لها غاية أخرى، والحارث يعرف ذلك.. وقد يتضايق أبو سفيان وعكرمة بن أبى جهل وغيرهما.. ليكن.. إن مصلحة غطفان فوق كل اعتبار.. فوق قريش واليهود.. ولن أتردد عن الموافقة على أى كسب يقدمه لى محمد، وسأنسحب فورًا بجنودى.

وعلم المسلمون بما تنويه غطفان، ويقدر ترحيبهم بذلك الانشقاق فى صفوف الأحزاب إلا أن أغلبية المسلمين قد تحرجوا من التناول عن ثلث الثمار، وأتى سادات الأوس والخزرج إلى الرسول، وقال أحد رجالهم وهو سعد بن معاذ

سيد الأوس: «لن نسلم لغطفان بشيء على الرغم منا، لكأننا نخاف حربهم، أو لسنا على الحق؟؟».

أو ليس عدونا على الباطل؟؟ لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون فى أن يأكلوا منا ثمرة إلا قرى أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزنا بك وبه نقطعهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم».

وسعد الرسول بموقف الرجال الحازم، وإصرارهم على الجهاد، وصبرهم على البلاء، فى أشد الأوقات حرجًا، وأعنفها تأزمًا وخطرًا، إن مثل هؤلاء الرجال لن يهزموا عن قلة، ولن تدب بينهم خيانة. ولن تنتكس بهم دعوة..

ومال عمر لهذا الرأى، كان يعلم أن اليهود يهددون قلب المدينة، وما يستكن بها من أطفال ونساء ومؤن وذخائر وماء وثمار، وكان يعلم أن الهجوم الكبير الذى ينتويه الأعداء قد يبطل مفعول الخندق إذا ما أصر المشركون على عبوره برغم التضحيات التى قد يقدمونها.. ولن يكون للخندق فائدة سوى تمكين المسلمين من القضاء على أكبر عدد ممكن من الأعداء أثناء العبور..

انتفض الحارث عن عوف ثائراً عندما رفض المسلمون أخيراً النزول عن ثلث الثمار. ودعا غطفان للاستعداد للهجوم على المدينة، واقترب منه حيى بن أخطب قائلاً: «ألم أقل لك؟؟ لابد من الحرب..».

تضايق الحارث، وقال: «على الرغم من إصرارى على تأديب المسلمين وتلقينهم درساً لن ينسوه، إلا أننى أحترمهم..».

قال حيى فى دهشة: «كيف؟؟».

- «لو كان محمد يريد خداعى لوافق على إعطائى ثلث الثمار، فإذا ما انصرفت سخر منى ولم ينفذ الاتفاق، لكنه لم يخدعنى.. بل قال كلمته صريحة واضحة.. إنه يرفض التنازل عن ثلث الثمار ورجال محمد رجال أبطال شرفاء.. إنهم يفضلون الموت على الذلة والركوع لنا».

ارتعشت شفة حيى وقال متصنعًا الابتسام: «اهجم.. واضرب بشدة.. ولك الثمار كلها..».

وتصايحت قريش للحرب، فيم السكوت؟؟ وإلى متى الصبر؟؟ وهل يبقون هكذا قابعين أمام الخندق تحت وابل المطر، وزمهرير الليل، وعصف الرياح، وأخيراً قامت مفرزة من المشركين ليس منهم غطفان، بالهجوم على المسلمين باتجاه دار الرسول..

وتمتم حيى بن أخطب : «إلى دار الرسول . . إذا سقط حصن القائد . . تفككت قوى جيشه . . إذا هوى بالسيف على رأس العقل المدبر . . تراخت أطراف الزحف الكبير . . لقد أفلت محمد يوم «أحد» . . فكيف يفلت اليوم؟؟ اليهود من الخلف وقريش من أمام . . ولا شيء غير الاستسلام أو الموت . . آه لكم أتمنى أن يقبضوا على محمد حيًا . . وأن يسلموه لى . . آخذه بنفسى إلى ميدان فسيح . . وأدق رأسه فى صخرة عاتية . . أمام أعين الناس . . فإن كان نبيًا أنقذته الملائكة من بين يدى ، وإن كان غير ذلك . . ظللت أضرب وأضرب حتى يرتخى جفناه . . وينام إلى الأبد . . والمجد لك بعد ذلك يا حيى بن أخطب . . لا . . بل سأجمع إلى رأسه رءوس أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم . . عشرين رأسًا من أكابر المسلمين . . وسأستدعى هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان . . لتشرب وتغنى . . وتفرش النمارق . . وتعبث بالأكباد والأحشاء كما فعلت يوم أحد بحمزة بن عبد المطلب . . آه . . هذا يوم المنى . . يوم النهاية . .

التحام عنيف بين المسلمين والمشركين ، الأعداء يتحركون باستماتة ويطء صوب بيت الرسول ، والمجاهدون المؤمنون ينقذفون بأنفسهم فى المعمعة المتأججة ، وحيى بن أخطب يرمق

المعركة من بعيد، ويغذى اشتعالها بوقود جديد. . يبعث بعدد آخر من الرجال ليقوى جناحًا من الأجنحة أو جهة من الجهات، ويصرخ بأعلى صوته مرددًا أشعارًا لكعب بن الأشرف مذكرًا بيوم بدر، وبسرايا الرسول التى أحبط فيها مطامع القبائل. . ثم يعود مرة أخرى يذكر أيام الأوس والخزرج وما كان بينهما من خلال قديم قبل الإسلام. . إنه يفعل كل ما يمكن فعله. . يحشد كل أحقاده الموروثة، مجندًا كل ما يستطيع تجنيده من كلمات ورجال وأفكار. وظلت المعركة محتدمة الأوار حتى المساء.

وضاقت الدائرة حول المسلمين. . واستمر القتال. .

والشمس مالت نحو الغروب، ومال أبو سفيان على أذن حيى بن أخطب وهمس: «إن رجالنا قد نالهم التعب. .».

وقال حيى وهو يبدى امتعاضًا ظاهرًا: «اضربوا بشدة. . لم يبقَ بينكم وبين النصر إلا خطوة واحدة. .».

ويمضى المتحاربون فى صراعهم الدامى، ويهمس أبو سفيان فى أذن حيى بن أخطب مرة ثانية ويقول: «إن رجالنا يتقهقرون يا حيى».

- «كيف؟؟».

- «ألا تراهم؟؟ لو انتظروا أكثر من ذلك لحل الظلام، ولاصطادهم المسلمون واحداً واحداً . . ».

عض حيى على شفتيه من الغيظ وقال: «كان على رجالنا أن يحسموا المعركة قبل أن يحل الظلام. . ولكن. . » وجاء صوت أبى سفيان مقاطعًا: «يجب أن ينسحبوا فوراً وإلا فقدناهم جميعًا. . وغداً نبدأ المعركة، من جديد. . إن المسلمين يدافعون دفاع المستميت عن آخر معقل لهم، وعن آخر فرصة لهم فى الحياة. . ومن الطبيعى أن تكون المعركة عنيفة وسجالاً. . ».

وطأطأ حيى بن أخطب رأسه قائلاً فى حنق: «أجل. . يجب أن ننسحب الآن خارج الخندق. . ».

❑❑❑

الفصل [٢٦]

عاد رابح مكدوداً شاحب الوجه، متقرح الجفون، جسده يرتجف من البرد والجوع والجزع، يجر خطاه جراً، ورأسه يكاد ينفجر، يزفر فى مرارة، ويضغط على أسنانه فى ضيق، يتطلع يمنة ويسرة، والألم يخالط نظراته الحائرة، ورأى هند مسمرة لدى باب الحجرة.

فقال فى نبرات خفيفة: «سلام الله عليك يا هند».

- «وعليك سلامه ورحمته وبركاته..».

- «أريد تمراً.. وناراً..».

- «لقد طالت غيبتك..».

- «ليتنى ما عدت.. الموت أهون مما نقاسيه.. الحياة مليئة بالمتناقضات.. الغدر فى كل مكان.. نحن بشر..».

ثم انفجر باكيًا، وأخذ يردد: «نحن بشر يا هند.. الأرض

حولنا تموج بالحقد، والشيطان يعبث بعقول الناس، فيصرفهم عن الجـادة، والمؤمنون يقـاسـون الأهوال. . ويتـعـذبون، يتعذبون يا هند عذابًا لا طاقة لبشر باحتماله. . ».

هرولت إليـه، وأمـسكت بيـده البـاردة، وأخـذته إلى الداخل، وأغلقت البـاب، والاضطراب يلف حـركـاتهـا ونظراتها، وأشعلت النار صامتة، ثم أحضرت صرة بها قليل من التمر، ووضعتها أمامه، كما أحضرت جرعات من ماء، وقليلاً من لبن الشاة. .

وظل رابح ساكنًا لا تمتد يده لطعام أو شراب، واكتفى بأن بسط راحتيه فوق النار المشتعلة، وبعد دقائق سرى الدفء في جسده.

- «لِمَ لا تأكل يا رابح؟؟».

- «الرجـال هناك. . جـوار الخندق لا يجـدون مـا يأكلون واليـهـود قطعـوا المؤن عنا. . نحن في أيام قـحط وشـتـاء. . » وابتلع ريقه، ثم تنهد قائلاً:

وفي الإمكان تحمل الجوع والبـرد. . أما الخيـانة فلا. . لا يمكن تحملها في هذا الوقت العصيب الرهيب. . أتسمعين؟؟ الخيانة!!».

- «تقصد بني قريظة؟؟».

- «لا . . ».

- «ماذا إذن؟؟».

- «المنافقون . . لقد رأوا بطش الأعداء، وكثرة عددهم، وسوء ما نحن فيه، فأخذوا يتفرقون عنا، لقد انسحب مئات من جنودنا . . عادوا إلى ديارهم . بحجج واهية، زعموا أنهم يريدون حماية بيوتهم من غدر اليهود الذين قد ينقضون عليهم فى أية لحظة . . مع أن الرسول قد رصد الدوريات لحماية النساء والأطفال . . وزعم آخرون أنه لا طاقة لهم بحرب قريش والقبائل واليهود . . وأن خوض المعركة جنون مطبق، وانتحار أكيد . . لا جدوى من المقاومة . . هكذا يقولون . . وآخرون يتبجحون ويسخرون من نبيهم . . يقولون إن محمداً وعدنا بكنوز كسرى وقيصر وتيجانهما . . وها نحن لا يستطيع أحدنا أن يذهب إلى الغائط . . هكذا يقولون يا هند . . إنهم يسخرون من كلمات الرسول يا هند . . ويسخرون من صمودنا وإيماننا . . تلك هى حالنا . . ندرة فى الطعام . . وندرة فى اللباس . . وغدر وقت الشدة . . حتى ساد الذعر المسلمين، وبلغت القلوب الحناجر . . والناس يظنون بالله الظنون يا هند . . ماذا جرى؟؟ أيمكن أن يخذل الله نبيه؟؟ إن المرابطين من المسلمين أصبحوا قلة . . والمنافقون ينسحبون . . إن ما يفعلونه أخطر علينا من قريظة وقريش وغطفان . . ».

قالت هند ودموعها فوق خديها: «والرسول، ماذا يفعل إزاء هذه النكبات؟؟».

- «إنه يرابط فى أخطر المواقع حول الخندق كأى واحد منا.. ويخرج للحراسة والتجول ليلاً مع مختلف السرايا.. إنه يقاوم البرد والجوع والوهن الذى يشيعه المنافقون.. ثم رفع رابح رأسه إلى زوجه وقال: «لكن الرسول شامخ كالطود.. ويبشر المسلمين بالنصر..».

- «بالنصر؟؟».

- «أجل.. ألم يقل الله فى كتابه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].. لقد جاء بعض المسلمين إلى الرسول قائلين له: «يا رسول الله لقد بلغت القلوب الحناجر، فهل من شىء نقوله؟ فقال لهم قولوا: «اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا».. أجل يا هند.. لقد سيطر الرعب على القلوب.. ولذا رأينا الرسول يرفع يديه إلى السماء ويقول: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب.. اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم وزلزلهم.. أيها الناس.. لا تمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإن لقيتم العدو فاصبروا.. واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف..

ثم يعود الرسول إلى دعائه يا هند فيقول: يا صريخ المكروبين، يا مجيب المضطرين، اكشف همى وغمى وكربى، فإنك ترى ما نزل بأصحابى..».

تناولت هند بضع تمرات بيدها، ثم قدمتها إلى «رابح» وتبادلا نظرات صامتة تحمل آلاف المعانى والمشاعر، فتناولها، وأخذ يدفعها واحدة واحدة إلى فمه، ويلوكها فى بطء وصمت، ثم يرشف جرعات قليلة من اللبن.

أدركت هند ما يعانيه زوجها من آلام نفسية مبرحة، فقد قضى ليالى طويلة يقظًا يحرس الثغرات ويقوم بالجولات على امتداد الخندق وداخل المدينة وتعرض لآلام الجوع والبرد، وقاسى الكثير من العناء بسبب ما يرتكبه المنافقون والخونة من حماقات قاتلة فى أحرج الأوقات.. وفكرت فى أن ترفه عنه.

وكم كانت دهشة رابح حينما سمعها تقول فجأة: «أما طاف خيالى ببالك فى ليالى السهر والجهاد الشاق؟؟».

نظر إلى وجهها الشاحب الجميل ذى السمرة الجذابة، وإلى إشراقة عينيها الواسعتين التى لم يستطع القلق القاتل أن يطفئ وهجها، وإلى البراءة التى ترتسم على ملامحها وجبينها الرائق فدق قلبه، وتمتم: «ماذا دهاك؟؟».

- «هل ترانى أخطأت التعبير؟؟».

- «إن الجندى فى المعركة يا هند لا يفكر إلا فى الموت..».

ابتسمت فى وداعة وقالت: «ويفكر فى الحياة أيضًا..».

ثم خفضت بصرها، واستطردت: «كن صريحًا..».

- «إن قلبى تثقله الآلام يا هند.. إن الفناء يحيط بنا من كل جانب...

- «لِمَ لا تثق فى وعد الله؟؟ أتخاف الموت؟؟».

- «أنا؟؟».

- «أجل..».

- «إننى نذرت نفسى لله يا هند، ولست أبالى حين أقتل مسلمًا على أى جنب كان فى الله مصرعى.. لكننى أعيش المعركة بعنفها وصخبها وما يصطرع فيها من أحداث إننى أعيشها ليلها ونهارها، يأسها وأملها.. إننى أتقلب بين البرد والجوع والإشفاق، والتفكير فى المستقبل.. إننى بشر يا هند..».

ابتسمت هند، قالت: «وأنا بشر أيضًا..».

عاد ينظر إليها من جديد، وأخذ قلبه يدق، وتمتم: «أجل يا هند.. كنت أفكر فيك.. كنت أرى وجهك يشرق فى

الظلمات . . لم أشعر إطلاقًا بأننى وحدى . . إن وجهى صوب الخندق، لكن روحى تهوم نحوكم، أفكر فى آلاف النسوة والأطفال فى الحصون الخلفية، أيمكن أن تمتد إليهم يد بنى قريظة بسوء؟؟ أفكر فيكم جميعًا . . ومن مات دون عرضه فهو شهيد . . ألم يقل الرسول ذلك؟؟ وأنا إن مت فسأموت دفاعًا عن دينى، وعن عرضى . . عن كل المبادئ النبيلة التى علمنا إياها محمد . . ».

قالت متململة: «أليس لى جانب خاص فى هذا الزحام الذى يعمر قلبك؟؟».

- «إن قلبى هو قلبك . . والزحام الذى يشغل قلبى يشغل قلبك أنت الأخرى . . ».

قالت وهى تدير رأسها فى خجل: «هل اشتقت إلىّ؟؟».

- «يعلم الله ما بقلبى من أشواق ملتهبة . . ».

- «برغم البرد والجوع والعناء؟».

- «برغم كل شىء يا هند . . ».

توردتا وجنتاها، ودب فى جسده دبيب الحياة، بعد أن بعث اشتعال النار الدفء فى جسده وبعد أن نال قليلاً من الراحة البدنية والنفسية، وتمتم: «لن أقضى هنا غير بضع

ساعات أعود بعدها إلى مواقع العمل . . لابد أن أحظى بقسط من النوم . . » .

واضطجعا بعد أن أديا الصلاة . .

السكينة تنشر خمارها على وجهين طيبين . .

والصبر والهدوء والإيمان ، ينطبع على ملامحهما ، يتحدى فى بساطة غريبة كل عوامل الفناء والخوف والجشع ، إنهما ينامان فى هذا الجو المشحون بالرعب والاضطراب والمفاجآت . . وتنبعث أنفاسهما خافتة . .

فهناك قوة عليا تحرس الوجود كله . . قوة لا تقهر ولا تنام . . بيدها وحدها مصير الأنام هذه الألوف بسيوفها وحديدها وتدابيرها أمام هذه القوة الكبرى . . القوة الإلهية . . أسراب من نمل ضعيف . . وبنفحة واحدة تتبدد هذه الأسراب ، ويذوب حقد الحاقدين ومكر الأغبياء والحمقى . .

فلماذا لا تنام هند وينام رابح ؟ ؟

عندما أذن الفجر ، هب من نومه واقفًا ، لم تزل رأسه تدور من أثر النعاس ، لكنه هزها فى عنف حتى يطرد كل أثر للخمول ، وهتف بهند كى تستيقظ . . وتعد له بعض الماء كى ينظف جسده ويسبغ وضوءه ، وبدا واضحًا أنه أكثر اطمئنانًا وهدوء بال من الأمس ، وكانت هند كذلك ، وأنهى بسرعة ما

يقصده من أعمال، ولبس درعه، وامتشق سيفه، وتناول قدراً آخر من التمر ثم نظر إلى هند، وهو يزمع الرحيل. .

قال: «لِمَ تنظر إليَّ هكذا؟؟».

– «قد أعود وقد لا أعود».

– «دع هذا لله يا رابح. .».

– «ولكن لي أمنية جميلة تداعب خيالي. .».

– «ماذا؟؟».

– «إذا وهبنا الله غلامًا فلنسمه محمداً. . أجل لأظل في حياتي. . إن عشت –أقول محمد. . محمد. . محمد. . وإن مت، فليبقَ اسم محمد مقترنًا باسمي، أبد الدهر. . إن هذا الاسم على لساني في الصلاة. . في أحاديثي. . أصبح ضرورة كالماء والهواء. . إنه الحياة. .».

أرادت أن تمازحه، وتبدد هذا الجو الانفعالي، فقالت: «وإذا جاء المولود بنتًا. .».

ابتسم، واحمر وجهه خجلاً وقال: «آه. . نسيت أن أفكر في ذلك. .».

– «لنفكر معًا إن شاء الله بعد أن تعود منصوراً. .».

فألقى عليها السلام. . ومضى. .

الفصل [٢٧]

أرسل يهود بنى قريظة رجلاً منهم ليدخل المدينة أثناء انشغال المسلمين بالحرب، كان الرجل يقوم بمهمة استطلاعية داخل المدينة، ليعرف كيف تكون حراستها، وعدد القوات المرابطة داخلها. والاحتياطات التى اتخذها محمد لحماية الأطفال والنساء والشيوخ. . وكان الرجل يدرس خطة لمداهمة المسلمين من الخلف أثناء انشغالهم بلقاء العدو القادم من الشمال. . ومنذ أن نقض اليهود اتفاقهم مع الرسول وهم لا يجرءون على دخول المدينة. ومن البديهى لديهم أن محمداً قد غيَّر الكثير من تنظيم قواته، وكان لا بد لهم أن يعرفوا ما طرأ على خطته من تغيير. . تطلعت امرأة من نافذة صادرة وتمتمت: «هذا الرجل إنى أراه يروح ويجىء، إننى أكاد أعرفه. أجل. . إنه من يهود بنى قريظة. . آه. . لو عاد هذا الرجل إلى قومه، وحمل إليهم شيئًا عن وضعنا وضعف حراستنا لأصابنا من العدو نكال شديد. .».

قالت أخرى: «وماذا نفعل؟».

- «ألا يوجد أحد من الرجال..».

- «أعتقد أن حسان بن ثابت فى مكان قريب منا.. إنه لا شك رآه..».

- «أوه.. إن حسان ليس رجل حرب وطعان.. إنه يعرف الكثير عن مداخل الشعر ومخارجه، ولكنه لا يعرف أن يسحق خطرًا داهمًا كهذا لقد حادثته فى الأمر فأبدى عذرًا..».

- «يجب أن نتصرف بسرعة.. لو عاد وأخبر اليهود عن أماكن الأطفال والنساء لانقضوا علينا وحالوا بيننا وبين رجالنا، وأثاروا كثيرًا من الارتباك والضعف فى صفوفنا.. وأسرعت المرأة وحملت عمودًا خشبيًا، وتوارت خلف جدار، ثم انقضت على رأسه بعمودها فجأة فسقط مضرجًا بدمائه.

عرف عمر بن الخطاب هذا الحادث الصغير فى المساء، وكانت معرفته فى معرض الحديث عن حسان بن ثابت، وتواريه عن الأنظار أثناء وجود ذلك الجاسوس، وتعلل حسان بعديد من الحجج حتى لا يؤدى مهمته ضد اليهودى، وكان الأمر مثارًا للضحك.

قال عمر: «أنتم تتندرون، وتهتمون بالجانب المضحك الذى يخص حسان.. أما والله لو علمتم أن قتل هذا اليهودى

المتجسس قد وفر علينا جهداً كبيراً لعجبتم، لقد تيقنا أن اليهود كانوا على وشك القيام بضربة مفاجئة من الخلف.. وكانوا ينتظرون من يستطلع لهم الطريق.. لقد كانوا يخافون الكمائن، ولا يظنون أن قواتنا البسيطة التى يعد رجالها على الأصابع هى كل ما تركناه بداخل المدينة.. أما والله لو استطاع هذا اليهودى أن يعود إلى بنى قريظة إذن لاستمر القتال من خلف وأمام..».

كان القلق باديًا على عمر، إن هجوم قريش بالأمس صوب منزل الرسول وصمودهم فى المعركة، قد أثار الخوف فى قلب عمر، إذا استمر المشركون فى هذا العناد وهذا الصمود فسيكبدون للمسلمين خسائر فادحة، إن لديهم عدداً كبيراً من الرجال. وفى إمكانهم أن يغذو المعركة بكثير من الرجال المدربين. الذين نالوا قسطًا من الراحة. أما المسلمون فإنهم يقضون ليلهم أو أغلبه وكذلك نهارهم فى حراسة ودفاع وضراب. والواضح أن قريشًا والأحزاب واليهود قد أصروا على مواصلة الحرب، والعودة إلى المناوشات من آن لآخر، إن عمر يدرك أن هذه هى الفرصة الأخيرة للأعداء.. أتنسحب قريش دون أن تريق دم المسلمين، وتنال قسطًا من الغنائم؟؟ أتعود القبائل إلى ديارها بعد أن تكبدت المشاق. وأنفقت على الانتقال والطعام الكثير من المال والجهد، أتعود بعد ذلك دون

أن تنال كسبًا ذا بال؟؟ واليهود . . بعد أن نقضوا العهد والميثاق، وتجمعوا، وجاهروا بالعداء، هؤلاء اليهود، كيف يتراجعون؟؟؟ إلا أن المعركة كما يعتقد عمر قاسية، ومثيرة للبلبلة والخوف، ولعل هذا ما حدا بالرسول منذ أيام قلائل أن يفكر جديًا فى قبول مبدأ المفاوضات مع غطفان كى تنسحب وتنال ثلث ثمار المدينة؟! أجل إن الموقف عصيب . . والمستقبل بيد الله . . ونذر الخطر تلوح فى الأفق . . فإذا ما اشتعل أوار المعركة، فالذى لا شك فيه هو أن المسلمين سيخسرون خسائر فادحة فى الأرواح . أما نتيجة المعركة فإن التفكير فيها مؤلم، ويبعث على مزيد من الضيق والعناء . ويمضى عمر فى تفكيره، أتستمر حياتنا على هذا النسق من الجهاد المستمر، والتضحيات التى لا تتوقف، والمخاطر التى تحيق بنا من كل جانب؟ . .

ووثب إلى ذهن عمر بن الخطاب خاطر أزعجه . . ماذا لو مل الناس التضحية، وطول العناء؟؟ ماذا لو يئسوا من طول المقاومة . ومداومة السهر والبذل؟؟ أيمكن أن يلقوا هذا الكدح المتصل؟؟ إنهم بشر . .

ومال عمر على أذن سلمان الفارسى : «أخاف أن يندس المنافقون . . » .

- «آه يا عمر . . إن خيانة بنى قريظة لا تشبهها خيانة . . فكيف تخاف حفنة من المنافقين؟ وعاد عمر يقول: «وأخاف أن ينصرف ضعفاء الإيمان عنا . . والمنافقون وعبد الله من أبى أخطر من قريظة . . أؤكد لك ذلك؟ ابتسم سلمان وقال: «إن رجالنا المؤمنين كبار النفوس . . لقد رفضوا أن ينزلوا عن ثلث الثمار لغطفان لا لشىء إلا لأنهم يرفضون أن يشتم من ذلك رائحة استسلام أو هزيمة . . ».

- «أعرف . . لكن فيهم من يهتز إيمانه عند الشدائد . . ».

- «يحدث ذلك فى كل زمان ومكان . . وفى أية دعوة . . لكن هذا لم يعق سير الحياة، ولم يخذل المؤمنين، ولم تتقاعس الفصائل عن التقدم والسير فى الطريق الوعر الشائك . . ».

قال عمر وهو يبتسم: «كلماتك تريحنى يا سلمان . . تخفف عنى ما أشعر به من عناد . . إننى قلق يا سلمان . . أو تظن أن قلقى يتنافى مع إيمانى بالله؟! أعنى . . هل القلق مظهر من مظاهر ضعف الإيمان؟؟ إننى قلق يا سلمان . . لكننى قوى الإيمان، ثابت العقيدة لا أتزعزع . أبداً . . لا أتزعزع ولو تقاطر ملايين البشر من كل مكان وحاصروا هذه المدينة الصغيرة ولو سحقوها تحت أقدامهم . .

سأرفع رأسى وسأهتف باسم الله . . إننى قلق . . لأنى أفكر كل لحظة فى أشياء كثيرة . . أفكر فيما يحدث الآن وما سيحدث غداً . . أفكر فى الأعداء الذين غدروا وخانوا هناك فى ديار بنى قريظة ، وهنا بين أظهرنا . . أفكر فى قريش التى لا تكف عن عداتنا . . أفكر فى غطفان وفزارة وأشجع . . هؤلاء الجنود الذين يحركهم الشيطان من كل حدب وصوب . . هذه العوائق التى تعترض سبيل الخير . . وتقف حجر عثرة فى طريق نشر دعوة الله» .

الليل ساجٍ شديد البرودة ، وعمر لا يستطيع النوم على الرغم من أنه فى فترة راحته هو وسلمان ، إن نيران العدو الصغيرة تمتد إلى بعيد . . تضىء ثم تخمد ، لكنها تنفث الحقد والترقب . . لكأنها نظرات حمراء تشتعل غيظًا» .

- «إننا لا نجنى يا سلمان نصراً سهلاً أبداً . . » .

- «لعل فى ذلك حكمة إلهية تسمو على أفهامنا يا عمر . . » .

- «لقد غدروا بنا يا سلمان . . فى «أحد» استشهد عدد كبير من خيرة رجالنا . . وفى «الرجيع» قتلوا ستة من الدعاة . . ألم يطلبوا منا أن نبعث إليهم بمن يعلمهم الإسلام»؟؟

ثم أرسلناهم . . لقد أخذوهم على غرة . . قتلوهم يا سلمان . . هذا الغدر يثير فى نفسى الحنق البالغ . وفى «بئر

معونة»!! يا لها من حادثة بشعة!! أيغدر رجال عامر بن الطفيل بأربعين؟؟ . . هذه الدماء يا سلمان تحرق أمنى وهنائى . . أربعين داعية؟ ماذا يريدون؟؟ إن الأشرار يريدون منا أن نمل التضحيات . . أن نكفر بالمبادئ الكبرى التى أوحى بها الله إلى نبيه . . لا . . لن نيأس . . لن نستسلم يا سليمان . . سنبقى صامدين . . نقدم التضحيات الغالية يا سلمان . . نبذل النفوس عن رضى . لسوف نخوض المعارك . . ونرسل الدعاة . . ونفرح بالاستشهاد ونرحب بالموت . . بالنصب والسهر والقلق العظيم . . هكذا يكون البناء يا سلمان لخير أمة أخرجت للناس . . » .

تمتم سلمان وقد تبللت عيناه بالدموع : «أجل . . هكذا يكون» .

- «وأعداؤنا يا سلمان يرتكبون كل موبقة . . يدوسون العهود ببساطة ويخونون ويغدرون . . ونحن نتحرج من فعل أى شىء . لم نبدأ بعدوان . ولم ننقض عهداً أليست هذه مشكلة»؟ إن عدوك يسلك أى سبيل ، ويتخذ أية وسيلة ليصل إلى هدفه الشرير . . أما نحن يا سلمان . . فلا نفرق بين شرف الغاية وشرف السبيل المؤدى إليها ، وهذه الحرب يا سلمان تكلفنا الكثير لحفاظنا على هذه المبادئ .

ألم يكن فى إمكاننا أن نستدرج عشرات بل مئات الرجال.. ونغدر بهم كما غدروا بدعاتنا؟؟

وعاد عمر يجوب ببصره الآفاق.. نيران العدو تومض من بعيد.. الليل شديد السواد، قارس البرودة، عيون الرجال على الخندق. وأيديهم على مقابض السيوف، وألسنتهم تسبح باسم الله وتنطق بالشهادتين، والأعداء يتراصون على السفوح وبين الأودية يأتون من فوق ومن أسفل، هذا الجيش السرى الذى ينظمه المنافقون، فيرجفون وينشرون الأكاذيب، ويجعلون من النصر حلمًا لن يتحقق.. لا.. لا.. بل النجاة مجرد النجاة.. أمر متعذر التحقيق.. وسمع عمر أثناء الليل رجلاً حديث عهد بالإسلام يقول لزميل له فى نقطة للحراسة: «إذا كنا رجال الله حقًا فلم لا يبادر الله بسحق أعدائنا، وتعجيل النصر لنا؟؟

لقد علمت أن الله معنا.. لأننا على حق.. لكننى كلما رفعت بصرى فى هؤلاء المشركين الذين يهبطون علينا من كل صوب، ازددت هلعًا وترددًا،.. ماذا؟؟ أتقول الحق، إن إيمانى يكاد يتزلزل.. لو انقض علينا هؤلاء الأعداء، لانتهى أمرنا.. لم أتصور المعركة على هذه الصورة العسرة.. إنها أيام عصيبة.. أهكذا تقاسون كل مرة؟؟ لكم الله.. لقد اخترتم لأنفسكم جانب الحياة الشاق..».

قال عمر فى مرارة لسلمان الفارسى : «أتسمع يا سلمان؟؟ لم يعد الحديث همسًا . . بعض الرجال يتكلمون بصوت عال فى أمور شائكة . . أيعتبون على الله؟؟ حاشا وكلا . . قل لهمً يا سلمان إن النصر ليس مائدة ينزل بها الملائكة من السماء . . النصر يا سلمان يصنعه الصبر والإيمان والدم الغالى . . ومن ثم فإن النصر لا ينحاز إلى جانب المترددين والواهنين والضعفاء . قل لهم . . النصر ليس سبايا وغنائم . . إنما هو امتداد لكلمات الله ولدعوته فى حيز أكبر . . إنه غزو لقلوب، وليس احتلالاً لأرض . . وهكذا انتصر الذين استشهدوا فى «بئر معونة» ومن قتلوا فى «الرجيع» . . وانتصر حمزة وأصحابه فى يوم «أحد» ولهذا فإن الأعداء سيخذلون هذه المرة . . وسننتصر بإذن الله حتى ولو احتل الأعداء المدينة . . قل لهم ذلك يا سلمان . . » .

وسمعت خطوات قليلة، قدم بعدها الرجل وقال : «لقد سمعت جيداً ما تقول . . إن كلماتك يا عمر تبعث فى قلبى الأمل والحياة . . معذرة لما صدر منى من عبث . . إنها مجرد لحظات من ضيق تنتاب الإنسان فترده إلى شىء من عناء وملل .

- «أى عمر . . إننى أرى الشر مستطيراً . . أراه منذ نعومة أظفارى وبرغم حشوده الضخمة فإنى أتحداه . . كنت أتحداه . .

أصاوله فى تخبط وحقد . . لم أكن أعرف كيف أضرب . . وحينما لقيت محمدًا . . وجدته يكره الشر مثلى . . ويكره أصنام البشر والحجر . . ولا يعبأ بحشود الشر الكبيرة . . آمنت بالله . . رأيت راية . وشهدت نظامًا ، وعشت كلمات الله وهى تتحول إلى سلوك وعمل . . هنا وجدت نفسى التائهة» .

قال عمر وقد تسربت الطمأنينة إلى قلبه : «فكيف إذن تعتب على الله؟؟» .

- «إننى لم أفعل ذلك تهجمًا على مقام الربوبية ، معاذ الله . وإنما طمعًا فى عطفه سبحانه . . إننى أتعجل النصر يا عمر . . إننى أرتعد حينما أتصور أن الأشرار يستطيعون أن يغزوا هذه المدينة ، أكاد أجن كلما فكرت فى ذلك . . أيزعجك أن تعلم الحقيقة؟؟ الرجال على استعداد للموت ، ولا يرهبون العدو ، لكنهم فى كرب شديد يا عمر . . الرجال يعانون شقاء بالغًا . . إنهم لا يخافون الموت . . لكنهم ينظرون إلى المستقبل . . لقد زلزل الناس زلزالاً شديدًا يا عمر . . لكنهم ينسون العناء والشقاء كلما طلع عليهم الرسول . . كلما رأوه يحمل التراب على كتفه . . ويأخذ دوره فى الحراسة . . ويأكل مما يأكلون . . ويعمل كما يعملون . . إن كلماته من القلب . . ومن ثم تصل إلى القلب . . إننى أحب أن أراه أمامى دائمًا . . إن أمنيتى أن أموت وعيناى ترمقانه . . » .

هز عمر رأسه، وتمتم : «أجل . . إنها أيام عصيبة . . ».

وفى هذه اللحظات قدم على بن أبى طالب وقال : «هل بلغكم آخر الأنباء؟؟».

قال عمر فى لهفة : «هل جد جديد؟؟».

وكم كانت دهشة عمر حينما أخبره أن أحد المشركين من الأحزاب قد أتى إلى الرسول يعلن إسلامه . .

تمتم عمر : «إسلامه؟؟ وفى هذا الوقت؟؟».

– «أجل . . ».

– «ونحن نندحر ونعيش فى كرب ما بعده كرب؟؟»

– «أجل».

– «أعرف أن الناس قد يهرعون ليجنوا ثمار النصر، أما أن يتسابقوا ليذوقوا مرارة الهزيمة فهذا شىء عجيب . . ».

ثم التفت عمر إلى الرجل الذى كان يحادثه منذ لحظات، ثم قال : «تلك إرادة الله . . لعلك الآن فهمت معنى النصر . . النصر الذى كنت أحدثك عنه».

هز الرجل رأسه قائلاً : «الآن فهمت . . ».

وبقى سلمان وعمر وعلى وحدهم، وتساءل عمر : «من

هذا القادم الذى أتى يعلن إسلامه؟؟».

قال على: «نعيم بن مسعود..».

قال عمر فى دهشة:

- «إننى أعرفه.. من غطفان هو.. إنه نديم اليهود فى الجاهلية، وأثير لدى قريش، وغير متهم لدى القبائل.. إنه رجل له مكانة وكلمة مسموعة، ويحظى بثقة الجميع.. وأظنه يعد كسبًا كبير ولا نزكى على الله أحدًا».

□□□

الفصل [٢٨]

نظر عمر بن الخطاب إلى نعيم بن مسعود نظرات مستفسرة وقال: «عجيب أمرك يا ابن مسعود، تعتنق الإسلام وهو فى أعنف أزماته، وتترك القوة والجيش الكبير، وتأتى إلى المحصورين الذين يدافعون عن رقعتهم الضيقة فى استماتة.. تأتى إلينا لتشاركنا البأساء والضراء.. إن أمرك لجد عجيب يا نعيم بن مسعود..».

قال نعيم ووجهه ينطلق بشراً: «وهذا ما يبهجنى، لقد هدانى الله إلى الحق فى هذه الأوقات العصيبة. فشددت الرحال إليكم تاركًا ورائى المجد والكثرة والكبرياء وأحلام النصر لدى قريش والقبائل.. لقد أتيتكم طامعًا فى عفو الله، مستعداً للتضحية والفداء.. إن الإيمان يا عمر يجعل المر حلواً، والصبر جنة، ويحيل العذاب والعناء إلى لذة ومتعة..».

وصمت نعيم برهة ثم قال: «إننى أشعر منذ فترة ليست بالقصيرة بالحيرة.. أشعر أنى تائه.. أتحرك كالنائم.. أحمل

السيف وأحارب دون حماسة، أشارك فى الحديث وأنا أضيق به، وأدلى بالرأى وأنا أعرف مدى تفاهته.. حياة سمجة لعل الموت أروح منها.. تلك كانت أيامى الأخيرة يا عمر.. لقد ضقت ذرعًا بقريش وخيلائها.. أصبحت أحتقر أفكارهم وتدابيرهم الرخيصة.. إنهم يحاربون بلا معنى، أو يندفعون بين قريش والمسلمين. قلت لنفسى: اخلع نفسك عن الجانبين.. قف موقف المحايد.. ثم احكم بالعدل.. هذا هو محمد ماذا يقول؟؟ ماذا يريد؟؟ وما مدى انطباق أفعاله على أقواله؟؟ سرت عبر شوارع المدينة. رأيت المسلمين وهم يتعاملون.. ويأكلون ويشربون.. ويعبدون الله.. رأيتهم وهم يتكلمون.. ويتفقون ويختلفون.. إننى اقرأ على وجوههم صفاء من نوع غريب.. وألمس فى تعاملهم صدقًا ما سمعت به من قبل.. رأيت قومًا يألفون ويؤلفون، ويؤثرون على أنفسهم، شجعان فى غير قسوة، متواضعين فى غير ضعف، شديدى الإيمان فى غير تعصب، متوكلين بلا تواكل.. أجل رأيت أمة جديدة تولد.. رأيت معجزة إلهية تبهر بروعتها الأنظار..».

تناول نعيم جرعة ماء، ثم استطرد فى حديثه وعمر يستمع إليه فى شغف، وقال نعيم: «عاشرت قريشًا كانوا يفكرون فى الحرب، ووسائلها وطريقة القضاء على المسلمين وتدميرهم

قوتهم، ويحصون الرجال والسيوف. . ولم أرهم يبذلون جهداً يذكر فى مناقشة الدعوة التى أتى بها محمد. . إنهم يصدون عنها دون مناقشة. . كبرياء غاشمة. وجود أعمى. . إنهم يعيشون فى رعب قاتل من أى جديد. يخافون التغيير. . يصدون عن كلمات الله ولو نظروا إليها نظرة محايدة لتجلت لهم روعتها، ولعلموا أنها كلمات جادة رائعة. تتفق ومنطق الحق والفضيلة. . لقد عرفت ذلك يا عمر. . مارست خطاياهم. . لست نادماً على ما فات. . لقد تعلمت الكثير. . إن ممارسة الخطأ تصيب القلوب بالقسوة والتبلد. . لكنها فى بعض الأحيان تكشف الزيف، وتقود إلى الحقيقة الفاضلة. . إنه خطأ التجربة. . لا خطأ الإصرار والعناد. . و خرجت من ذلك المجتمع يا عمر بعد أن تمزقت روحى وكلت قدماى. . إننى أولد بينكم من جديد. . لم أعد أدين إلا لله الواحد القهار لكم يسعدنى أن أموت على هذه العقيدة. . ».

وابتلع نعيم ريقه. وقال عمر: «إن إيماناً مثل إيمانك، أتى بعد تلك التجارب العنيفة: يكون مصدراً للذة رائعة. . لقد جربت قبلك شيئاً من هذا. . ».

ثم عاد عمر يقول: «لكن كيف تركت القوم؟؟ وكيف استقبلوا نبأ إسلامك؟؟».

- «إسلامى؟؟ إن أحداً لم يعرف عنه شيئًا . . » .

قال عمر : «هذ أفضل . إذ لو علموا بذلك لامتدت إليك سيوفهم . . » .

قهقه نعيم قائلاً : «لم أرهب سيوفهم ، ولم أخشَ سطوتهم ، لكنى فكرت فى شىء آخر . . » .

قال عمر : «ماذا تقصد؟؟» .

- «لقد كتمت إسلامى يا عمر ، وأتيت إليكم ، وفى ظنى أن الرسول قد يكلفنى بمهمة من المهام ، لعلى أستطيع أن أؤدى دورًا بين الأحزاب ، أنهم يثقون فىّ ثقة كبرى ، وينصاعون لرأيى . . إننى على استعداد لأن أذهب إليهم ، أن أشارك فى تدمير ذلك التجمع الظالم الذى يخفى وراء واجهته الظالمة الإثم والطغيان والنوايا السيئة . . » .

هز عمر رأسه فى رضى ، إن الله جلت قدرته يبعث فى الليل المدلهم ما ينير لهم الطريق ، ويخفف عنهم الكرب ، إن إسلام نعيم فى هذا الوقت له دلالته الكبرى ، إن الزحف لا يقف ، والحائل الضخم الذى أقامه المشركون واليهود حول المدينة لم يستطع أن يحجب النور عن الشرفاء من الناس . . لقد كان المسلمون فى مسيس الحاجة لمن يدلهم على عورات الأعداء ، ويكشف لهم خططهم ونواياهم ، وها هو رجل من

أكابرهم يأتى مسلمًا. ويعرض حياته للخطر ويبدى استعداده لتنفيذ ما يطلب منه من أعمال.

وهز نعيم رأسه هو الآخر وقال: «يا نعيم.. إنما أنت رجل واحد، فخذّل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة». إن الرسول يثق بى، لم يرسم لى خطة معينة، إننى أعرف هؤلاء الأوغاد من المنافقين والمشركين واليهود.. إنهم يتعاملون فى حذر، ويضمرون غير ما يظهرون، ليس بينهم تلك الرابطة السحرية التى تجمع المسلمين فى سلك واحد.. وتجعلهم ينبضون نبضًا متسقًا.. الكيان الواحد مفقود لدى المشركين.. هناك ألف ثغرة وثغرة أستطيع أنفذ منها إليهم.. دعونى وشأنى.. إن نعيم بن مسعود يعرف كيف ينتقم لخطاياه.. ولسنوات الجهل والعقم التى قضاها بين أظهرهم.. دعونى وشأنى..».

تسلل نعيم تحت جنح الظلام خارجًا من المدينة حتى بلغ بنى قريظة، ورأى اليهود فى شغل شاغل، إنهم يدبرون للهجوم الكبير الساحق، وهم أكثر الأحزاب تحمسًا لخوض المعركة، لأن المعركة إن لم تقم، فسينصرف المشركون، ويتركون بنى قريظة وحدهم فى مواجهة محمد، وهذه مواجهة خطرة قد يكون فيها الفناء والدمار.

رأى نعيم بعينيه ما ينهض به بنو قريظة من جهود واستعدادات، فعض على شفته السفلى: «اللهم إن تُرِك هؤلاء اليهود وشأنهم فلسوف يشعلون النيران فى أنحاء المدينة، وستتحول البلد الطيب إلى مسيل للدماء. هؤلاء اليهود هم الذين حرضونا، وحشدوا القبائل بألاعيبهم ومغرياتهم.. تالله لأضربنهم ضربة لا يفيقون منها..».

قام الرجال لاستقبال نعيم وحينما رأوه. قال حيى بن أخطب: «مرحبا بك فى بيتك.. يا نديم الليالى الغابرة، ورفيق السمر والطرب..».

ابتسم نعيم فى مكر وقال: «هذا هو شعورى دائمًا، لكم أحن إلى هذه البقاع.. أشعر أننى فى موطنى كلما وطأت قدماى هذا التراب العزيز..».

ثم تلفت حوله فى دهشة وقال: «ماذا أرى؟؟ إنكم على وشك أن تفعلوا شيئًا كبيرًا، هذا ما أشعر به..».

قال حيى بن أخطب: «آن الأوان يا نعيم يجب أن نضع خاتمة لمأساة محمد..».

- «أنتم يا حيى؟؟».

- «نحن وحلفاؤنا من قريش وغطفان..».

ابتسم نعيم فى أسى ظاهر، ثم قال: «قريش وغطفان؟ لست أدرى كيف تفكرون يا حيى بن أخطب».

- «ماذا؟؟ ألك رأى آخر؟؟ إن هؤلاء الألوف لم يجتمعوا إلا للقضاء على المسلمين قضاء مبرمًا.. إننا لم نحرك هذه الجموع، ولم نفرض هذا الحصار إلا بغية القضاء التام على سلطان المسلمين وأفكارهم الخطرة..».

قال نعيم فيما يشبه التأكيد، وقد بدت فى كلماته رنة الإخلاص والوفاء: «يا حيى بن أخطب.. لقد عرفتم ودى إياكم.. وقد ظاهرتم قريشًا وغطفان على حرب محمد، وليسوا مثلكم.. البلد يا معشر يهود بنى قريظة بلدكم، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون أن تتحولوا عنه، وأن قريشًا وغطفان إن رأوا نهزة وغنيمة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم. وخلوا بينكم وبين دين محمد، ولا طاقة لكم به. فلا تقاتلوا حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم حتى تناجزوا محمدًا..».

حملق حيى بن أخطب فيه دهشًا، إن كلمات نعيم معقولة، وأصابت كبد الحقيقة، بل إن أحداث الأيام الماضية تثبت ذلك. ألم تحاول غطفان أن تعقد صلحًا منفردًا مع محمد مقابل ثلث ثمار المدينة؟؟ ألم يبدِ أبو سفيان شيئًا من الفتور والملل؟؟».

وعاد نعيم يقول: «يا حيى بن أخطب لا تجعل بنى قريظة يغامرون بمصيرهم، ويخوضون الحرب الفاصلة ضد محمد ما لم تأخذوا هذا الرهن من أشراف قريش وغطفان، عند ذلك سيواصلون الحرب إلى جواركم، وتضمنون القضاء على محمد قضاء تامًا. .».

قال الرجال من بنى قريظة، وعلى رأسهم حيى بن أخطب: «صدقت يا نعيم. . لقد أشرت بالنصح، ولست عندنا بمتهم. .».

ودارت الأرض بحيى بن أخطب. لقد كان يظن أنه على وشك تحقيق أمله ومحو أسطورة محمد الذى لا يقهر. ها هى الألوف من خلفه، القبائل وقريش واليهود بين فارس وراجل ودارع، لو اندفعوا لسحقوا المدينة ولملئوا الخندق بنعالهم. . لكن نعيم يقول كلامًا خطيرًا: إن قريش تكفل لنفسها الحماية. فى بلد آمن، ولديها من الرجال والعتاد والمال ما يمنعها، والقبائل قد تمل المقام، فتعود إلى خيامها ومضاربها ومراعى إبلها. . ونبقى وحدنا. . وحدنا مع العذاب والانتقام المرير.

وصاح حيى بن أخطب فى حقد: «لا بد من الحرب. . لا بد من الحرب. .».

ثم توقف لحظة وقلبه يضرب بشدة، وأخذ يقول: «ولن

يخدع اليهود مرة ثالثة . . لا بد من أخذ الرهائن من قريش وغطفان؟؟».

ابتسم نعيم فى سعادة وقال : «هذا عين الصواب».

ولم يستجب نعيم لقضاء بعض الوقت لدى بنى قريظة ، لم يكن فى حاجة إلى ندامى وسمر وكئوس . . وأسرع إلى قريش ، حيث يعسكر أبو سفيان ، وأكثر من ستة آلاف من رجالات مكة يرفعون الرايات العتيقة . ويدافعون عن مجد الآباء .

– «يا أبا سفيان . . يا أبا سفيان . . يا كبراء قريش . . ».

قال أبو سفيان : «ماذا وراءك يا نعيم؟ إنك تبدو شاحبًا متعبًا مهمومًا . . ».

– «وكيف لا؟؟ لقد وقعنا فى قبضة فئة من الأنذال . . ولن نعود من هذه المعركة إلا كما عدنا يوم «بدر» الحزين . . ».

بدت الدهشة على وجه أبى سفيان ، وقرب حاجبيه ، ورمى نعيم بنظرات متفحصة وقال : «ماذا وراءك؟؟ إننى أفضل أن تلقى ما لديك من أنباء بسرعة ، ولا عليك فقد تعودت أن أواجه الحقائق كما يواجهها الرجال الأشداء . . إنك تعرفنى جيدًا يا نعيم».

قال نعيم وهو يتلفت يمنة ويسرة : «إذن فلتسمح لى بالانفراد معك وبعدد قليل موثوق به من رجالات قريش . . ».

وما إن اجتمع أبو سفيان والرجال، حتى قال نعيم بن مسعود: «تذكرون جيداً أن اليهود قد حرضونا على حرب محمد، أتوا ليقنعونا بذلك، وطافوا بغطفان والقبائل. تعرفون ذلك جيداً..».

قال أبو سفيان معلقًا: «أذكر ذلك، وأنا لم أظاهر اليهود وأستجب لآرائهم إلا لأنى أتفق معهم فى ضرورة القضاء على المسلمين ودعوتهم وسطوتهم التى هددت قريشًا ومجدها العريق.. كنت أعرف أن كل من نهض لحرب محمد له هدف يختلف عن الآخرين، وإن اتفقت الوسيلة بينهما.. لست من الغباء بحيث يخفى علىّ ذلك..».

قال نعيم فى تأكيد وثقة.. «لكن هناك شيئًا لا تعلمه..».

- «ما هو؟؟».

- «يا أبا سفيان.. بلغنى أن بنى قريظة ندموا، وقد أرسلوا إلى محمد قائلين: هل يرضيك يا محمد أن نأخذ من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم، فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقى منهم؟؟ فأجاب محمد، أن نعم.. هذا ما دار يا أبا سفيان بين بنى قريظة وبين المسلمين.. لا تحاولو أن تشكوا فيما أحمله إليكم من أنباء دقيقة.. لتنتظروا بعض الوقت، وسترون صدق كلماتى.. لكن لى

نصيحة واحدة، إذا طلبت قريظة منكم رهنًا من رجالكم فلا تسلموا لهم رجلاً واحدًا. . إن الذين تأخذهم قريظة لن يعودوا. . أبدًا، لن يعودوا. . وقريظة لم تتحالف معكم لتحمل جزءًا من تبعة الحرب، بل لتستغلكم وتجنى من ورائكم ما بذلتم فى سبيله العرق والدم والسهر. . ».

استبد الشك بقريش، وماجت نفس أبى سفيان ثورة وحنقًا، وأخذت شتى المشاعر تتجاذبه. . أيقدم؟؟ أيعاقب قريظة أم يبطش بمحمد؟؟ ومع ذلك فقد آثر أن ينتظر لعل الأيام تكشف له عن جديد فى الأمر.

ولم يتوانَ نعيم بن مسعود فى الذهاب إلى غطفان، لقد ترك وراءه رجالات يتململون حقدًا وغيظًا، وترك وراءه اليهود من بنى قريظة ينتابهم القلق والرعب، وعندما بلغ غطفان قال لهم: أنتم أهلى وعشيرتى. . وما كان أن أغلق فمى عن خطر يتهددكم. . وأخذ يروى لهم ما رواه لقريش. .

كانوا على أهبة المعركة الفاصلة. . قريش تشحذ سيوفها، واليهود يتوعدون ويحلمون بيوم الثأر، وغطفان والقبائل يمنون أنفسهم بالغنائم والأسلاب والعود الحميد إلى الديار والنساء والأبناء. . وكان المسلمون فى الوقت نفسه يربضون خلف الخندق، وفوق الأسطح والقمم الصخرية يرمقون الطريق بعيون لا تنام، ويبتهلون إلى الله بأحر الدعوات.

غمغم أبو سفيان :

- «لقد طال الانتظار ، ولا مفر من الهجوم ، فلا جدوى من الحصار بلا معارك ، ورجالنا لا يستطيعون الصبر أكثر من ذلك فى ليالى البرد القاسية . . . » .

وفى مكان آخر كان الحارث بن عوف يقول لغطفان : «لم يكن يدور بخلدنا أن يطول مقامنا حول المدينة ، وأن يمتد بنا الحصار هذا الوقت الطويل ، ولا طاقة لنا بالجمود والترقب أكثر من ذلك . . » .

وفى بنى قريظة ، ثارت ثائرة حيى بن أخطب ، وأخذ يهذى :

- «لا بد من قتل محمد . . لا بد من حرق المدينة بكل من فيها . . إنها فرصة العمر . . لتهجم غطفان . . ولتهجم فزارة وأسد . . ولتضرب قريش ضربتها -هذا حشد لن تجمع العرب مثله لمواجهة محمد . . » .

وفى ليلة سبت ، استدعى أبو سفيان عكرمة بن أبى جهل وقال له : «فلتأخذ معك رجالاً من غطفان وآخرين من قريش . . ولتذهب إلى بنى قريظة . . وتطلب منهم أن يستعدوا للهجوم الماحق غداً . . دون إبطاء . . » .

□□□

الفصل [٢٩]

قصد عكرمة ديار بنى قريظة فى ضواحى المدينة، ووجد اليهود فى لباس الحرب، يتقدون حماسًا، ولكن فى عيونهم ترتسم حيرة ممزوجة بالخوف، يتطلعون إلى رجال الوفد فى توجس: أيحـــاربون؟ أينتظرون؟؟ فى هذه اللحظات الحاسمة، وفى الوقت الذى كان محدداً للقضاء على محمد تحدث هذه الحيرة، وينتابهم هذا التردد، والتقى عكرمة بن أبى جهل بحيى بن أخطب وكعب بن أسد.

قال عكرمة لحيى بن أخطب: «لم يعد هناك مجال للتأجيل، ولا بد أن تزحف قواتنا من جميع الجهات نحو تجمعات المسلمين بالمدينة، وقد حدد موعد الهجوم غداً..».

نظر إليه حيى بن أخطب فى شك، أين الثقة القديمة؟؟ ليتها تعود، أحقًا يريدون أن تشتعل المعركة، هذا غاية المنى، لكم تحرق شوقًا لهذا اليوم الموعود، لكن ماذا لو لم يستطيعوا كسر المسلمين، وإلحاق الهزيمة بهم؟؟ أترحل قريش وغطفان

كما فعلوا يوم «أحد» ويخلون السبيل لمحمد كى يجتاح الخونة من بنى قريظة؟؟ واضطرب حيى بن أخطب، ، لا بد أن يكون هناك ضمان حتى لا تنسحب قريش وتتركهم فريسة فى أيدى المسلمين. . هذا الضمان أصبح ضرورة لا بد منها.

قال كعب بن أسد فى إصرار: «يا عكرمة. . قل لأبى سفيان إننا لا نستطيع الهجوم غداً».

- «لماذا؟؟».

- «نحن لا نحارب يوم السبت، لأن هذا محرم فى ديننا كما تعلمون. هذه واحدة». . قال عكرمة فى شىء من الضيق: «والثانية؟؟».

تلكأ كعب بن أسد وتلعثم، وأطرق فى حيرة، ثم استجمع شجاعته وقال: «والثانية. . نحن نريد رهائن من قريش وغطفان من أشراف الرجال. . قبل أن نشرع فى القتال. .».

قال عكرمة دهشًا: «رهائن؟؟».

- «أجل. .».

- «إذا لم يكن هناك ثقة فلا محل لأن نحارب جنبًا لجنب، إن طلب الرهائن إهانة بالغة تلحق بقريش وغطفان ومن معهما. .».

- «لم نقصد ذلك يا عكرمة بن أبى جهل. .».

- «ماذا تقصدون إذن؟».

- «أن تتــجــمع الأحــزاب ولا ترجع عن الحــرب وتدمــيــر المسلمين حتى النهاية . . أخاف أن تقنعوا بنصر جزئى ثم ترجعوا إلى دياركم، ومن ثم يتلقفنا المسلمون ويثأرون منا . . ».

ضحك عكرمة ساخراً وقال: «وماذا تفعلون بالرهائن، لو انصـرفنا عن الحـرب بعد عـدة جولات لظروف قاهرة، فـوق إرادتنا وفوق إرادتكم؟ ماذا تفعلون بالرهائن؟؟».

- «معنى انصرافكم هو القضاء علينا . . ».

- «لظروف قاهرة مثلاً يا كعب بن أسد . . ».

- «ليــست هناك ظروف ألعن من تركنا وحــدنا بين يدى محمد . . الرهائن يجب أن تكون تحت أيدينا . . ».

- «لماذا؟؟».

وابتلع حيى بن أخطب ريقـه، وقـال مـتـدخـلاً: «تضـرب أعناقهم عند الغدر . . ».

تمتم عكرمة فى حنق: «الغدر؟؟».

وسادت فترة صمت قال عكرمة بعدها: «سنعود إلى أبى سفـيان بما تراه، والرأى له ولرجالات قريش وغطفان . . ألا وإن ما بيننا من وفاق قـد عبثت به يد الشك والريبة، ألا وإن

محمداً أصبح فى مأمن من سيوفنا القاهرة . . وهذا ما يبعث الأسى والحزن فى نفسى . . » .

وعاد عكرمة ومعه الرجال من قريش وغطفان إلى «مجمع الأسيال» حيث تعسكر قريش، وشرح لأبى سفيان ما دار بينه وبين قريظة، فهز القريشيون رءوسهم فى أسف وقالوا: «لقد صدق نعيم بن مسعود يريد اليهود أن يضمنوا لأنفسهم حق الحياة، وأن يدرءوا عن أنفسهم عقاب المسلمين، بعد أن غدروا وكذبوا وتآمروا، ولم يروا ثمنًا يستطيعون دفعه لمحمد إلا الرهائن التى طلبوها منا . . هؤلاء الأنجاس حرضونا على الحرب، وزينوا لنا الطريق، وعندما شعروا أن محمداً لم يزل صامداً برغم قلة رجاله، وضعف مركزه، ورأوا غطفان تبحث عن كسب مادى كى تعود أدراجها، عندما رأوا ذلك أسرعوا ببيع صداقتنا، والتضحية بعلاقات الود القديمة . . اللعنة على هؤلاء اليهود . . » .

وقال الحارث بن عوف سيد غطفان: «الحقيقة أن محمداً يرعى العهد، ولا ينقض الميثاق، ويعترف بأخطاء رجاله أما اليهود فلا وفاء لهم ولا عهد . . » .

وصمت برهة ثم عاد يقول: «ومع ذلك فلن نتراجع، لا بد من الحرب، ماذا يقول العرب عنا إذا رجعنا بخفى حنين؟؟

ماذا تقول القبائل ونحن نعود أدراجنا حفاة عراة جياعًا، دون أن ننال أيسر نيل من محمد؟؟ وماذا نحمل معنا للنساء والأطفال بعد هذا الغياب الطويل؟؟ إلا إن عودتنا على هذه الصورة سوف تضعف من الثقة بقواتنا وأحلافنا، وستزيد من احترام العرب لمحمد، وفى الوقت نفسه إذا فكرنا ثانية فى أن نحشد جيشًا لمنازلة محمد فلن يتبعنا أحد..

أجل لن يتبعنا أحد؟ وكيف ننصرف دون حرب، ونحن نملك الرجال والمال والسلاح.. والتفوق على المسلمين فى كل شىء؟؟ لا بد أن نخوضها حربًا شعواء ضد محمد، ولن نعتمد على اليهود فى شىء، لن نعطى اليهود الرهائن. وسننتظر اشتراكهم فى المعركة، يجب أن نمضى وحدنا حفظًا لكرامتنا وماء وجوهنا.. ولأن هزيمة المسلمين أمر مؤكد لا خلاف عليه.. ثم التفت إلى أبى سفيان قائلاً: «ما رأيك يا أبا سفيان؟».

قال أبو سفيان: «دعنى أعيد النظر وأفكر فى الأمر من جديد» ومال الحارث بن عوف على عكرمة بن أبى جهل وقال: «وأنت ياعكرمة؟».

- «إننى أؤيدك فى كل ما قلته..».

قال أبو سفيان فى شىء من الهدوء: «صبرًا يا عكرمة، لا يصح أن يبت فى كبريات الأمور هكذا على وجه السرعة..

لنفكر الليلة باهتمام وجد . . وسنعود لتبادل الرأى يا حارث ابن عوف فى الغد» .

وتركهم الحارث غاضبًا ، وأخذ سمته نحو مضارب غطفان ، وهو أشدهم إصرارًا على شن الهجوم الخاطف على المسلمين فى قلب المدينة ، وتمتم لنفسه :

- ولو استطعنا قهر المسلمين فلن يفلت بنو قريظة منا ، هؤلا الغادرون الجبناء المترددون لسوف نلقنهم درسًا لن ينسوه .

التفت أبو سفيان ناحية عكرمة بن أبى جهل بعد انصراف الحارث وقال له : «يا عكرمة . . ألا إن هؤلا الرجال من قريش أمانة فى عنقى ، ولن ألقى بهم فى تهلكة ، أو أخوض بهم معركة يائسة . . إن محمدًا على جانب كبير من الحيطة والذكاء ، وهو يضن بالتضحية بأتفه الرجال وأحقرهم شأنًا على الرغم من أنه يؤكد لرجاله أن شهيدهم فى الجنة . . أتريد يا عكرمة من أبى سفيان أن يكون أقل من محمد خوفًا على رجاله ، واهتمامًا بهم؟؟ يا عكرمة إن اليهود ماكرون ، يبحثون عن منفعتهم الشخصية ، ويبيعون أغلى المقدسات للحفاظ على أنفسهم ، ولقد صدق نعيم بن مسعود حينما حذرنا من إعطائه الرهائن . . فكيف نحارب فى صف واحد مع هؤلاء اليهود . . ثم هناك غطفان يا عكرمة ! ! أنسيتم أنهم

كانوا على وشك أن يعقدوا صلحًا منفردًا مع محمد مقابل ثلث ثمار المدينة؟؟ لقد تناسوا ما بيننا من عهود، وداسوا الحلف بأقدامهم من أجل ثلث الثمار، فهل غطفان جديرة بعد ذلك بأن تحارب إلى جوارها، ونحن مطمئنون لنواياها ومواثيقها؟؟ لقد كان خطأ كبيرًا أن نتحرك من مكة، ونستمع لصراخ اليهود ومزاعم حيى بن أخطب، ونزوات عطفان . . إننى يا عكرمة لن أفرط فى رجالنا فى هذه المعركة الغامضة . . ولن نعطى المسلمين فرصة كى يسحقوا كبرياءنا كما سحقوها فى بدر . .

وزأرت العواصف فجأة . .

كان الليل باردًا مظلمًا، والسحب تغطى السماء بأستارها القاتمة، والريح تصفر فى جنون حتى أنها اقتلعت الخيام، وقلبت كثيرًا من قدور الطعام، وحملت النيران المشتعلة قسرًا من مكان إلى مكان فاشتعلت بعض الحرائق.

وهتف عكرمة: «ماذا جرى؟؟ لكأنما قد انقضت الشياطين على عسكرنا . . ».

قال رجل فى الظلام: «أخاف أن يكون المسلمون قد داهمونا فجأة . . إننى أسمع قطعة سلاح وصهيل جياد . . وتكبير الجنود وتهليلهم . . ».

قال عكرمة فى حنق: «إنه وهم يجسمه الظلام والخوف والعواصف..».

وصاح أبو سفيان فى رعب حقيقى: «الرحيل.. الرحيل.. أسرجوا الخيول وأعدوا الإبل وانتزعوا الأوتاد والحبال، ولترجعوا إلى مكة.. إن جنوداً لا حصر لها تحاصر المكان.. هذا ما أعتقده..».

هز عكرمة رأسه فى أسى وقال: «لقد خسرنا معركة ونحن فى أوج قوتنا.. ما معنى ذلك؟؟ وكيف حدث هذا؟؟ إننى لا أكاد أصدق ما أرى وأسمع..».

أفاقت غطفان على الحقيقة المرة، لقد علمت أن قريشًا ترحل إلى ديارها دون استشارتها وأخذ الحارث بن عوف يشد لحيته فى عصبية وضيق، ماذا يفعل هو ورجاله؟؟ لا بد أن يرجعوا من حيث جاءوا..

وصاح وجسده كله يرتجف: «يا رجال غطفان والقبائل.. أعدوا أنفسكم للرحيل.. لم يعد من بقائنا فائدة تذكر.. اللعنة على قريش.. وعلى قريظة.. تحركوا قبل أن يفضحنا نور الصبح، وينظر إلينا المسلمون فى استهزاء وسخرية..».

ويلغ النبأ مسامع حيى بن أخطب..

كـاد يجن جنونه . . وأخـذ يجـرى هنا وهناك، ويصـرخ صوب معسكر الحلفاء وهو يعلن أن صوته لن يبلغهم .

- «أيها الحقراء المجرمون أين تذهبون؟؟ لقد حكمتم على أنفسكم بالفناء . . إن محمداً لن يترككم غداً، بل سيغزوكم فى عقر داركم، فكيف تضيعون أعظم فرصة أتيحت لكم؟؟ لن يترككم محمد . . » .

ثم انفجر باكيًا وألقى بجسده المنهك على التراب وهو يقول : «ولن يتركنا أيضًا . . لقد ضاع كل شىء . . » .

ثم صمت وهو يجفف دموعه . يقول : «لقد صدق نعيم بن مسعود . . » .

وسعل من خلفه شيخ عجوز ثم اقترب منه وقال : «وصدقت اليهودية . . إن كل شىء ينهار . . لم أعد أرى فى الأفق الأسود إلا الحزن والضياع والعار . . ولم لا؟؟ نفس الحكايات القديمة . . ادفعوا ثمن الغدر ونقض العهود . . يا أبناء اليهود . على نفسها جنت براقش . . أعدوا أنفسكم ليوم هول جديد . . » .

هب حيى بن أخطب واقفًا وقال : «لا . . لن نستسلم حتى آخر قطرة من دم، ولدينا الوقت الكافى لتدبير أمورنا . . فلا داعى للهرج والمرج . . » .

وأعاد النظر إلى الأفق البعيد وظل يقظًا حتى الصباح يتطلع إلى هناك . . أين مضارب الجند من غطفان وقريش وأسد وفزازة لقد رحلوا . وأين أحلام النصر والخلاص والثأر للضائعين؟؟ لقد تحولت الأحلام الوردية إلى كومة من رماد تختلط بالقاذورات والعفن . . أهذا هو الحصاد يا بنى قريظة؟؟ لقد رحلوا . . حلفاؤنا رحلوا إلى مكة وغطفان . . هناك يجدون الحماية ، بعيدين عن النار والثأر والعقاب . بعيدين عن المدينة . . أما نحن . . آه . . الطريق يمتد أمامى أسود فاحمًا كوجه إبليس . . وعلى جانبيه الأفاعى . . ينتشر على ثراه الشوك والعذاب والحفر . . وهيهات أن يعود الصفاء والسلام . . » .

ooo

الفصل [٣٠]

ساد الذعر معسكر بنى قريظة، وانتابهم ارتباك شديد، وأخذوا يتخبطون فى آرائهم يمنة ويسرة، واختلط الصياح بالانتحاب، أصوات رجال ونساء وأطفال، لا يكاد السامع يتبين تفاصيل ما يلقى من أحاديث ونقاش، الشيوخ يقولون فى صوت راجف: لقد حذرناكم مغبة سوء التصرف، والشباب يقولون: لقد أخطأ القادة التصرف، وقذفوا بنا فى أعماق تهلكه لا قرار لها، والنسوة يهتفن فى لوعة: «لقد أحلتم أمننا إلى خوف، وهدوءنا إلى اضطراب، وسعادتنا إلى شقاء، فابحثوا لنا ولكم عن حل.. ويبكى الأطفال فى حسرة، ويتساءلون فى براءة: «ماذا جرى؟ إننا سنذبح ذبح الشياه فى وقت قريب..».

وصاح كعب بن أسد: «أين المجرم حيى بن أخطب؟؟».

لقد اختفى حيى، إنهم يبحثون عنه، وسط الرجال فلا يجدونه..

- «لو وجدت حيى بن أخطب لمزقته إربًا إربًا . . دلونى عليه يا قوم . . » .

ورد رجل آخر : «ولم العجلة؟؟ انتظروا حتى نرى كيف يحل الإشكال المدمر ، الذى ورطنا فيه . . » لم يكن أحد يدرى كيف اختفى حيى بن أخطب ولا إلى أين ذهب ، ومن ثم أخذ رجال بنى قريظة يتحدثون عنه فى غيظ ، ويرمونه بالحماقة والأنانية ، إنهم يحسبون أنه قد هرب . . كما هرب من أبى الحقيق منذ ساعات . . أيمكن أن يكون حيى هو الآخر قد هرب؟؟ أهكذا يكون القادة والمسئولون من كبراء القوم وخيرة الرجال؟؟ إن قريظة ترى الهارب فى هذا الوقت خائنًا يرتكب فى حق الدين والوطن أكبر خيانة ، ولا يمكن أن تغتفر جريمة الهروب فى هذه اللحظات ، وخاصة من حيى بن أخطب الذى عاهدهم على البقاء إلى جوارهم حتى النهاية ، فهو الذى رسم طريق الحرب ، ودعا إليها ، وسار بشأنها إلى القبائل من غطفان وأسد وغيرهما ، وهو الذى أقنع قريشًا بأن تسوق جنودها إلى المعركة الفاصلة ، ثم إنه أولاً وآخرًا هو الذى ألح على بنى قريظة كى تنقض العهد ، وتتملص من وعودها محمد ، فكان أن طعن اليهود المسلمين فى أحرج الأوقات طعنة نجلاء لا تنسى ! ! أيمكن أن ينسى المسلمون أمرًا كهذا؟؟ إن حيى بن أخطب هو الذى قاد هذا التمرد ، وهو الذى ساهم بنصيب

الأسد فى تحريك تلك الفتنة لإشعال حرب كبرى تبيد المسلمين عن آخرهم . . فكيف يهرب هو ويترك ضحاياه يسقطون فى مأزق خطر كهذا؟؟ إن الواجب عليه أن يبقى مسئولاً وقائداً . . كما كان قبل النكبة . . ليبقَ لا حبًا فيه، ولا إيمانًا بخطبه الفاشلة فى إثارة العرب ضد المسلمين، ولا حفاظًا على رجل مخلص عظيم فى يده الخلاص . . لا . . ليبقَ حيى بن أخطب وليقف فى المقدمة كما كان . . فإن حلت كارثة أخرى وقعت على رأسه قبل رءوسنا، وذاق مرارتها مثلما نذوق، وشعر بما يشعر به التعساء المعذبون من بنى قومه .

ولقد كان حيى بن أخطب عند حسن ظنهم . . إنه لم يهرب، فبعد أن رأى رحيل قريش وغطفان وغيرهما، أيقن أن الضربة التى كان ينوى توجيهها إلى محمد قد باءت بالفشل، وأن محمداً بقى كما هو طوداً شامخًا، وقوة لم تضعف أو تنهار، وأيقن أن هذه الأزمة سوف تزيد المسلمين قوة إلى قوتهم؛ وستجعل قلوب الناس تهفو إليهم، فيكثر أتباعهم ولم لا تهفو مشاعر الخلق نحو التوحيد والحرية . . نحو راية القرآن الذى يجمع بين دفتيه خير الدنيا والآخرة . .

والأهم من هذا كله ماذا سيفعل محمد بيهود بنى قريظة، أولئك الذين نقضوا العهد فى أحرج الأوقات، وكادوا يتسببون فى فناء حقيقى للمسلمين، ويجعلون الدائرة تدور

عليهم؟ هذا هو السؤال الذى يطن فى رأس حيى بن أخطب ورأس كعب أسد، وهو نفس السؤال الذى يتردد فى أروقة البيوت والشوارع والحوانيت، إنه السؤال الذى يشغل قريظة كلها . . أيمكن أن يكون مصيرهم مثل مصير بنى قينقاع وبنى النضير؟؟ ماذا لو أرسلوا إلى محمد، وبعثوا إليه بالهدايا، واعتذروا له عما بدر منهم، وأبدوا أسفهم العميق لما حدث؟؟ أيمكن أن يعفو عنهم، ويكتفى بأن يفرض عليهم غرامة مادية، ثم يعود كتابة العهد المنقوض من جديد؟؟

وشعر حيى بن أخطب أن رأسه يكاد ينفجر: إنه غريق فى بحر لجى من الحيرة والاضطراب والرعب . . أجل . . الرعب . . يبحث عن قشة يمسك بها لعلها تأخذه إلى الشاطئ البعيد . . شاطئ النجاة . . والبحر مضطرب ثائر، والسماء سوداء ليس فيها بصيص من نور. وسمعه يزدحم بضجيج وصراخ وعواء . . إنه يكاد يجن . . أين أذهب؟؟ آه . . لقد تذكرها . . تلك المجنونة . . العاقلة . . اليهودية . . تلك التى حذرتنا يوم بنى قينقاع . . ونصحتنا قبل أن تحدث مأساة بنى النضير . . والتى كادت تجن وهى ترانا نرتكب الخطأ الثالث فى بنى قريظة، لقد حقرنا من شأنها، وسفهنا آراءها، ورميناها بالجنون والعته . . إن لهذه المرأة كلمات واضحة صريحة وأحيانًا لها تأثير نفسى طيب . . لسوف أذهب إليها . . وأخذ

حيى بن أخطب يتحسس الطريق إليها، وقصد إلى بيت صغير تأوى إليه . . كانت تجلس منهكة شاردة النظرات، لم تنطمس بعد معالم وجهها الجميل. وعندما رأته كشفت عن وجهها الشاحب وقالت: «هل أتيت؟؟».

- «أتيت محطمًا عاجزًا أبحث عن نور . . ».

طأطأت رأسها فى حزن وقالت: «لقد خلفت النور وراءك يوم أن غدرت بعهد محمد . . ».

- «أما من عودة إلى هذا الطريق؟؟ ليس من أجلى . . ولكن من أجل المفزعين من بنى قومنا . . ».

- «لست أملك الإجابة يا حيى بن أخطب . . ».

ودهش حيى إذ رآها هادئة حزينة، ليست كما رآها لآخر مرة حينما كانت تصرخ وتصيح وتحذر، وتعترض وتلقى بعض الكلمات الجارحة . . وتمتم حيى:

- «ما بك؟؟».

- «لا شىء يا ابن أخطب . . ».

- «أراك هادئة . . ألا تعرفين أنهم رحلوا . . رحلت قريش والقبائل، وتفرقت الأحزاب . . وبقينا وحدنا . . ننتظر . . ».

قالت ودموع تتسرب من خلف أهدابها: «أجل.. إننى هادئة.. لأن كل شىء قد انتهى..».

- «ماذا تعنين؟؟».

- «لقد استسلمت.. لم يعد هناك جدوى من فعل شىء إننى الآن أعيش على أمل الموت.. أقتات الحزن، وأذرف الدمع، وأستشعر الندم..».

قال حيى وقد دق قلبه: «ألا تفكرين فى مصير التعساء من بنى قريظة؟ ألا تفكرين فيما ينتظرهم؟؟».

- «لقد فكرت يا حيى عندما كان هناك جدوى من التفكير.. أما الآن..».

- «ماذا؟؟».

- «ليدفع الغادرون ثمن غدرهم، وليجاز الخونة على خيانتهم.. هذا هو العدل..».

- «أجل يا حيى بن أخطب.. وماذا تنتظر من رجل أردت أن تقتله؟؟ وبأى وجه يقابلك المسلمون وقد غدرت بهم فى أحرج الأوقات، ورسمت الخطط الرهيبة للقضاء عليهم وفنائهم؟؟ ألا تعتقد يا حيى بن أخطب أن الجزاء من جنس العمل.. وأن فى القصاص حياة؟؟».

لم ينكر حيى بن أخطب أنه ارتكب خطأ فادحًا، وأن بنى قريظة قد أتوا إثمًا باهظًا لا يمكن الإفلات منه، لكن حيى يبحث عن وسيلة يقترب بها إلى المسلمين، ويترضى بها محمداً، لهذا جاء إلى اليهودية يسألها الرأى كى يستنير بتوجيهاتها . .

وقال حيى: «إن محمداً ذو قلب طيب كبير، يتسع صفحه لكل الخطاة . . ».

سددت إليه اليهودية نظرات فاحصة وقالت: «أتعتقد ذلك حقًا؟؟».

- «بكل تأكيد أنت تعرفين . . ».

- «أعرف أنك رميته بالقسوة و . . وأشياء كثيرة أرانى فى غنى عن سردها . . إنك تريد الإفلات لتدبر المكائد من جديد يا حيى بن أخطب: إننى أفهمك جيداً . . ».

قال متنهداً: «آه . . إننى أعتب عليه ما فعله فى بنى قينقاع وبنى النضير، ولهذا رميته بالقسوة».

- «وماذا تقول عن نفسك وعن بنى قريظة . . أثناء تجمع الأحزاب. وانحيازكم إلى المعتدين فى ذلك الوقت العجيب؟؟».

وسمعت دقات على الباب الخارجى، ودخل أحد الرجال

وقال فى صوت متحشرج لاهث: «ياحيى بن أخطب. . ألم تسمع ما جرى؟؟».

- «ماذا؟؟».

- «إن المسلمين بقيادة محمد فى الطريق إلينا. .».

- «كيف؟؟».

- «هذا ما حدث. .».

- «إذن فلتسرعوا إلى حصونكم وقلاعكم، والبسوا لباس الحرب، وأعدوا أنفسكم ليوم عصيب. . إن لدينا من الأقوات والسلاح والرجال ما يكفى لصمودنا فترة طويلة. .» وضحكت اليهودية فى مرارة وهى تقول: «ألا تعرف كيف حدث ذلك يا حيى بن أخطب؟؟».

وأسرع حيى خارجًا، وكم كانت دهشته حينما رأى اليهود يعانون من ضيق شديد، ورعب قاتل، فلو صحت شائعة قدوم المسلمين إلى هنا، فليس هناك مدعاة لذلك الرعب كله، إن لدى اليهود من الاستعدادات المختلفة ما يجعلهم فى أمان لفترة طويلة، وحصونهم منيعة لا يمكن اختراقها بسهولة، ثم إن المسلمين ليس من المعقول أن يخرجوا لحرب قريظة فى اليوم التالى لرحيل الأحزاب، إن المسلمين قد نالهم كثير من التعب والعناء وهم يحرسون حول المدينة، ويرابطون إلى جوار

الخندق، ويناژلون الأعداء فى معارك متعددة. فهل يصدق عاقل أنهم يخرجون توًا لحرب قريظة، وهم أشد ما يكونون إرهاقًا. وأشد ما يكونون لهفة للقاء أزواجهم وأولادهم؟؟

وأمام ما تموج به جموع قريظة من خوف وهلع، وقف حيى بن أخطب بينهم خطيبًا وقال: «يا بنى قريظة..

أراكم فى هم قاتل.. إلا أنكم لتهزمون أنفسكم دون أن توجه إليكم سهام من عدوكم. وتمهدون لنصره عليكم، وأنتم فى أيديكم القوة والصبر على البلاء والصمود فى الصباح والمساء.. يا بنى قريظة.. إنكم أوفر مالاً من محمد، وأكثر ماء، وأقوى شكيمة، وأمنع حصونًا..».

وصاح رجل وسط الجموع الهادرة وقال: «يا حيى بن أخطب.. إنك تخدعنا..».

صمت حيى برهة ثم مضى فى حديثه..

- «لقد أردت لكم الخير دائمًا.. حاولت جاهدًا أن أرتفع باسمكم إلى عنان السماء.. وأن أكيد لعدوكم.. وأرفع من شأن دينكم، وحاولت أن أحشد العرب لحماية تراثكم، والنيل من محمد وصحبه.. أما وقد وجدت أمورًا لا حيلة لى فيها، فليس معنى ذلك أننى أخدعكم».

وصاح رجل آخر من بنى قريظة مقاطعًا: «يا حيى بن أخطب أنت ترمى بنا فى المهالك..».

صاح حيى بن أخطب بصوت محتبس: «لقد أردت النجاة يا بنى قريظة . . لم أكن أهدف إلا إلى السلام والمنعة لكم ولسلطانكم فى بلاد العرب، وكنت أفكر فى إخوان لكم ساروا فى الدروب الطويلة وسط الصحارى القاحلة . . يجرون خطاهم الذليلة فى أرض العذاب والضياع . . » .

وحدثت همهمات واعتراضات صاخبة كلها يتهم حيى بن أخطب بالخطأ وسوء التقدير، وأدرك حيى أنه من العسير عليه أن يرد إلى هذه الجموع أمنها واطمئنانها بهذا الأسلوب، لا بد أن يبحث عن أسلوب آخر يناسب هؤلا الذين تحطمت آمالهم، وتلوثت بالقاذورات . . أسلوب يتفق مع ما يسودهم من ذعر وجبن بالغَبْن . إذ إن الكارثة وشيكة الوقوع، والعقاب محقق، وذلك لأن محمداً أقوى الجميع فى ذلك الوقت، واندحار الأحزاب قد قوى من جبهته، ورفع من روح جنوده، ولأن جريمة اليهود وإدانتهم أمر لا يختلف فيه اثنان . . لهذا تصرف حيى بن أخطب بسرعة، وغيَّر أسلوبه فى الحديث، واستطرد يخطب . . «يا بنى قريظة . .

يكفى ما تعرضنا له من هجوم ومأس، وأراكم فعلاً متعبين وفى مسيس الحاجة إلى أيام من الدعة والهدوء، حتى تسكن نفوسكم وأرواحكم . وتستقر أفئدتكم . . ولهذا سوف أوفد الرسل إلى محمد بن عبد الله، مستعيناً بحلفائنا الأقدمين من

الأوس والخزرج. . وسنبدى له أسفنا واعتذارنا بل واستعدادنا المطلق لكل ما يطلب منا. . مقابل الصفح عما ارتكبناه فى حقه من نقض العهد. . لقد كان فى نيتنا يا بنى قريظة أن نغتال محمداً وأن نقضى على المسلمين. . لكن شيئًا من ذلك لم يوضع موضع التنفيذ. . ومن ثم فإن فرصة الصلح مع محمد فرصة كبيرة، وبعدها يعود الوئام والاطمئنان، وتسود روح الود والصداقة بين اليهود والمسلمين من جديد. . ».

وساد الصمت فترة وجيزة. .

وعاد حيى بن أخطب يصيح قائلاً: «ما رأيكم؟؟».

قال أحد الشيوخ: «لعل هذا هو التصرف الوحيد الذى قد يؤدى إلى حقن الدماء وسيادة السلام وما أظن أن هناك بديلاً لهذا التصرف. . ».

وقال حيى بن أخطب معلقًا: «ومع ذلك يجب أن نكون على حذر. . سيوفنا فى أيدينا. . ورجالنا فى قلاعهم وحصونهم. . ومداخلنا محروسة. . والجميع على أهبة الاستعداد. . إنه قد تجد أمور يا بنى قريظة. . فلا مناص من الحيطة. . ».

وارتفعت ضحكة ساخرة. .

وتلفت حيى بن أخطب، ليرى من هذا الذى لا يحترم مشاعر الأسى العام الذى لف الربوع، وحط على قلوب الناس ووجوههم.

- «من؟؟ كعب بن أسد؟؟ أين كنت؟؟ ولِمَ تضحك؟؟».

استجمع كعب كل شجاعته وقوته، ثم بصق بقوة فى وجه حيى بن أخطب. وصرخ قائلاً: «ألم أقل لك إنك امرؤ مشئوم؟؟

ألم أقل لك يا حيى بن أخطب.. إنك جئتنى بذل الدهر، وكل ما يخشى.. جئتنى بجهام، قد أهريق ماؤه، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شىء؟؟

ألم أقل لك يا حيى.. دعنى وما أنا عليه.. فإنى لم أرَ من محمد إلا صدقًا ووفاء.. عم تتحدث الآن أيها الشيطان؟ لقد أحاط بنا الفناء من كل جانب.. إن الشىء الوحيد الذى يبرد غلتى، ويهدئ من ثورتى.. هو أنك معنا. معنا.. لتشرب من نفس الكأس المريرة المذاق.. تلك التى سنشربها حتى الثمالة.. أيها الملعون..».

□□□

الفصل [٣١]

- «صدق الله وعده».

هذا ما قاله عمر بن الخطاب حينما جاءه نبأ انسحاب الأحزاب، إن ما حدث أمر عجيب حقًا، بل هو بالمعجزة أشبه، أيأتى هذا الجيش الضخم، ويداهم المسلمين وفى حالة من القحط والقلة لا مثيل لها. يأتى إليهم هذا الجيش وقد غدرت قريظة، وانسل المنافقون لائذين بالفرار، وملك الرعب الناس لما تحققونه من أخطار محدقة.. ثم بعد هذا كله تنسحب الأحزاب؟؟ الله أكبر..

- «أحقًا رحل الأحزاب يا ابن الخطاب؟».

- «من؟؟ رابح؟؟».

- «أجل.. لقد انتشر النبأ فى كل مكان.. المنافقون لا يصدقون.. ويرفضون الخروج من أوكارهم يحسبون الأحزاب لم يذهبوا، وبنو قريظة تحشد الرجال والسلاح..

خبرني يا عمر . . الفجر لم يطلع بعد . . والحقيقة تائهة . . » .

هز عمر رأسه وقال ووجهه يطفح بشراً : «صدق الله وعده يا رابح . . ونصر عبده . . وأعز جنده . . وهزم الأحزاب وحده» .

ثم التفت إلى رابح الذى هزته موجة عارمة من الفرح ، وقال «رابح» :

- «ماذا يا ابن الخطاب؟؟» .

أشار عمر عبر العتمة إلى ناحية مساكن بنى قريظة ، وقال فى حزم : «للمعركة ذيولها . . لابد من القضاء على ذلك الحزب الباقى الذى يكمن خلف ظهورنا كالثعبان . . » .

- «بنو قريظة أجل . . سددوا الطعنة إلينا فى الظلام ، فعلوها فى وقت عصيب . . لكن . . » .

قال عمر فى دهشة «لكن ماذا؟؟» . .

- «الرجال متعبون . . فى حاجة إلى الدفء والطعام والنوم والتزود بنظرة إلى عيالهم ونسائهم بعد هذه الأيام الشاقة . . » .

ودق قلب رابح حينما تذكر العيال والنساء . . دق بقوة وسرعة . . لكنه عاد يقول : «دعنى أجرى يا عم وسط الشوارع . .

وعبر الساحات وبين مرابط الجند . . دعني أجرى وأصيح فى كل مكان بالمدينة ، وأقول . . الله أكبر . . لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده . . دعني أملأ الآفاق فرحًا وبشرًا . . دعني أعيد إلى نفوس الخائفين الأمن والرضى . . وإلى نفوس المترددين اليقين والثقة بالله . . دعني أفجع المنافقين فى آمالهم الخبيثة ، وأحلامهم المريضة . . دعني أملأ الآفاق ترنيمًا بفضل الله ونعمته علينا وعلى الناس هذا يوم عظيم يا عمر . . من أيام الله الخالدة . . ولم لا؟؟ ألم ينصرنا الله بعد أن بلغت القلوب الحناجر ، وظننا بالله الظنون؟؟» .

ولم ينتظر رابح رد عمر عليه بل انطلق صائحًا : «يا معشر المسلمين . . » وأخذ ينشر الأنباء الجديدة عند مطلع الصبح ، فامتلأت الشوارع بالأطفال ، وتطلعت أعين النسوة من الأزقة والأبواب النصف مغلقة ، ورفع الشيوخ أبصارهم الكلية نحو السماء . . هذا يوم الشكر لله .

عاد الرسول فى الصباح إلى المدينة ، كان يلهج بالشكر لله ، إنه يرى البسمة تعلو وجوه المتعبين والساهرين ، وإشراقة الأمل تلمع فوق جبين الخائفين ، وأمارات اليقين تتردد على شفاه المؤمنين الذين لم يراودهم الوهن أو الشك فى وعد الله . . إنه يوم مشهود ، واحتشد المقاتلون ومعظم أهل المدينة يباركون للرسول ذلك النصر المؤزر ، وكل جوارحهم تهتف بالشكر

لله . . والناس ينظرون على فترة من الراحة والاستجمام . . العيون التى طالما هدها السهر ، والقلوب التى طالما أرجفها الخوف ، وليالى الحرمان والجوع والبرد . كلها مبررات كافية لفترة من الدعة والراحة .

لكن الرسول يأمر المسلمين أمراً لا رجوع فيه ، وكيف يترددون وهم يعلمون أن دعوة الرسول الفورية لمحاصرة بنى قريظة إن هى إلا أمر الوحى . أمر الله ؟ ؟

ونادى عمر : «إن الرسول يأمركم بأن تصلوا العصر فى بنى قريظة . . » وكان الوقت ظهراً . . فى بنى قريظة ؟ ؟ كيف ؟ ؟ لو قدر لمعركة أن تنشب الآن بين المسلمين وبين بنى قريظة فإنها ستكون معركة شاقة ، فبنو قريظة مساوون فى العدد -بالنسبة للجنود المقاتلين- للمسلمين ، وبنو قريظة لم يرهقهم سهر وجوع وخوف ، ولديهم الكثير من المال والماء والطعام . . والمسلمون على ما هم عليه من قحط وتعب وإرهاق . . هذا ما كان يختلج فى نفوس المجاهدين المسلمين وعلى الرغم من ذلك إلا أنهم ، لم يتراجعوا ، كانوا يعدون العدة ، ويحملون السلاح ، وينظرون إلى حصون بنى قريظة التى تلوح فى الأفق القريب .

وقال عمر لمن حوله من جند المسلمين : «أراكم تتثاقلون ، وكأنكم تتذرعون بالتعب وما حل بكم فى الليالى العصيبة . . ألا فاعلموا أن ترك بنى قريظة يجعل من نصركم نصراً ناقصاً . . إن

بقاء قريظة سيمد فى حبل المؤامرات والدسائس، وفيه حيى بن أخطب، لسوف يعيدون الكرة ويحشدون الناس لحربكم ويتصلون بيهود خيبر. . فلا يصح أن نتركهم ليتدبروا أمرهم ويحاولوا الاتصال بحلفائهم، ويجب أن نجهز عليهم، وهم فى ذهول وحيرة، إن انصراف الأحزاب عنهم، ضربة فى الصميم، فإذا ما أتيناهم وهم على ما هم عليه من الوهن والخوف، قضينا عليهم القضاء النافذ، وأنفذنا أمر الله لقطعوا رءوسكم، وسبوا نساءكم وذراريكم، وسلبوا كل ما تملكون. . ».

قال رابح وهو يحرك سيفه فى سعادة: «أو تظننا ننكل عن أمر الله ورسوله يا ابن الخطاب؟؟ لقد كفانا الله مؤنة جيش يربو على عشرة آلاف. ولعله ادخرنا ليوم قريظة الملعونة. . ».

وأقبل سعد بن معاذ سيد الأوس، وقال: «لك الويل يا بنى قريظة. لقد حذرتكم سوء المآل، وألححت عليكم فى الحفاظ على عهدكم مع رسول الله. . لكنكم أبيتم إلا المبادرة بالغدر. . وأظهرتم فظاظتكم وأحقادكم ووجهتم إلىّ كلمات بذيئة. . يخجل اللسان من ترديدها. . »

لكم يؤلمنى أن تلقوا بأنفسكم إلى هذه التهلكة التى لا مهرب منها. . ».

ضحك عمر بن الخطاب وقال: «إلى من توجه الحديث؟ انتظر حتى تبلغ ديارهم».

قال سعد بن معاذ شاردًا: «لم أزل أذكر جيدًا ما حدث . . أذكر حيي بن أخطب وهو يسخر ويسب، ويوجه أقذع الكلمات إليَّ . . وإلى رسول الله . . وأذكر كعب بن أسد . . الحقيقة أن كعب بن أسد كان يخشى الدوائر وإن لم يفصح لنا عن شيء من خوفه . . كنت ألحظ على وجهه شيئًا من التردد لكنه كان يقاوم ضعفه . . أما عمرو بن سعدى . . فقد قال: «والله لا أغدر بمحمد أبدًا . . وكنت أرى في وجوه الجميع - عدا عمرو بن سعدى- الشماتة والحقة . . إنهم حلفائي في الجاهلية يا عمر . . ولقد كنت حريصًا تمام الحرص ألا يقعوا في خطأ جسيم . . كنت أخاف عليهم يومًا أبشع من يوم بني النضير . . لكن حيي بن أخطب ملأ قلوبهم بالحقد الأسود والغرور، وأخذ عمر يتحدث عما حدث، محاولاً تفسيره، إنها إرادة الله، إن الغدر الذى يخالط مشاعر اليهود، ويسيطر على أفكارهم، لا بد وأن يكون له نهاية، فوجدوه خطرًا على الإسلام والمسلمين، وقد شاء الله أن يكشف بنو قريظة عن نواياهم المختبئة حينما أيقنوا -أو هكذا صور لهم الوهم- أن هذه الحشود من قريش وغطفان وغيرهما قادرة على سحق المسلمين، والقضاء عليهم قضاءً تامًا . . ومن ثم أفحشوا في القول لوفد الرسول، وقذفوا بكلماتهم البذيئة في قحة لم يألفها سعد بن معاذ . .

ثم قال عمر: «إن القضاء على حيى بن أخطب أمر ضرورى».

قال سعد بن معاذ: «أو تعتقد أنه لم يغادر بنى قريظة؟ إنه يفر فى مثل هذه الأوقات الحرجة..».

- «لقد علمت يا سعد أن كعب بن أسد سيد قريظة اشترط على حيى بن أخطب أن يبقى بحصونهم ليشاركهم فى تحمل ما قد يلحق بهم من أضرار، إذا أراد أن ينحاز بنو قريظة للأحزاب..».

- «أعرف ذلك..».

وقبيل المساء كان المسلمون قد أكملوا حشودهم حول حصون بنى قريظة بقيادة الرسول.

تطلع كعب بن أسد من ثغرة من الثغور، فرأى عدداً كبيراً من جنود المسلمين يحيطون بديار بنى قريظة.. ثم مد بصره إلى بعيد.. آه.. هذا يوم الفصل.. لقد ذهبت قريش وعادت أدراجها إلى مكة، لتنحر الجزر، وتشرب الكئوس المترعة، ولتستمع إلى عزف القيان والمطربين والمطربات..

وعادت غطفان إلى باديتها، تنعم بالحرية والانطلاق.. أما نحن آه.. يا لهول المصير المزعج.. النساء يولولن يا كعب بن أسد.. والأطفال يبكون وينوحون يا كعب بن أسد.. والفناء

يتهدد الجميع يا مسكين . . ومحمد كما هو كالطود الشامخ محمد كالعهد به يحيل الهزيمة إلى نصر . . ويواجه العالم بأسره لا يخاف . . وينتصر . . ينتصر دائمًا . . يا للكارثة ! ! بنو قريظة -وأنا سيدهم- يتهددها الفناء . . بنو قريظة جنى عليها سفهى وغبائى ، وانصياعى لأحقاد حيى بن أخطب . .

وسمع كعب خلفه صوتًا يهتف به : «لا عليك يا كعب . . إن لدينا من المؤن والذخائر والماء ما يكفى لمدة عام . . » .

التفت خلفه وقال : «من؟؟ حيى بن أخطب؟؟ ألديك بقية من عقل يفكر؟؟ أترى المصير الأسود يا ابن أخطب؟؟ قل إنك تراه وتلمسه . . قال ولا تنكر . . اعترف بالحقيقة المرة ولو مرة واحدة . . انظر . . كيف جئتنى بعز الدهر . . أهذا هو عز الدهر يا حيى بن أخطب» .

قال حيى الشاحب الوجه . «لا جدوى من هذا الكلام . . » .

- «إنك تهرب من خطاياك . . » .

- وخطاياى؟؟ لقد أردت لكم الخير ، فأخطأت . . » .

- هذه الدماء التى توشك أن تصبغ الرمال . . فى عنقك أنت . . » .

- «فى عنقى أنا؟ إننى لم أرغمك على اتباع خطتى يا كعب بن أسد، لقد كان لى وجهة نظر وكنت مؤمنًا بها أعمق الإيمان، لم يخالجنى شك فى نجاح خطتى. لهذا دعوتك إليها فى إخلاص.. أنت وافقت بعد تفكير.. ووافق زعماء بنى قريظة لماذا وافقتم؟؟ تكلم، كنتم تأملون فى سحق محمد، واجتياح المسلمين، وارتفاع ذكركم، وعودة السلطة إليكم.. ألم يكن الأمر كذلك؟؟ لم يخطر ببالى أو ببالكم أن نمنى بهذا الفشل الذريع»..

وعاد كعب بن أسد أدراجه، ومعه حيى بن أخطب، وعاد إلى الشارع..

- «انظر يا ابن أخطب، كيف نسيطر على هذه الجماهير المذعورة؟».

- «كما سيطر محمد على المسلمين فى ساعات الروع القاتل..».

- «آه.. دع محمداً وشأنه.. فنحن هنا فى بنى قريظة التى انفض حلفاؤها، ووهنت أرواحها، وأعول رجالها قبل نسوتها.. انظر الأسى الدامى يصبغ الوجوه وحتى الأبنية والأرض والسماء.. كل شىء ينوح ويدمع يا ابن أخطب.. ترى أى شيطان قذف بك إلينا فى هذه الأيام السوداء؟؟».

قال حيى وهو يجفف عرقه برغم البرودة الضارية: «ما جدوى هذا الكلام؟ لنبحث عن حل..».

قالها كعب بن أسد وهو يهز رأسه ثم أردف: «ابحثوا أنتم، فأنا لا أرى أمامي بصيصًا من نور..».

هتف حيي: «لا ملجأ إلا إلى سيوفنا.. الجِلاد حتى الموت أو النصر..».

قال كعب ساخراً: «النصر؟؟ هذا أمر بعيد المنال.. انظر إلى المسلمين وهم يكبرون ويهللون، انظر إلى وجوههم الضامرة، وقد نجاهم الله من كيد الأحزاب.. إنهم على استعداد لأن يتسلقوا الحصون المشتعلة، أن يصعدوا إلى السماء، أو يخوضوا البحار.. أية قوة قادرة على صدهم؟؟ تحدث يا حيي بن أخطب عن شيء آخر غير النصر..».

زمجر حيي، وصاح محتداً: «إننا بهذه الروح لن نستطيع أن نواجه عدواً..».

- «أنا وأنت.. من منا يستطيع أن «يصوغ الروح القوية» لهذه الجموع المذعورة الروح القوية لا يمكن خلقها في لحظات.. إن البذرة في جوف الثرى لا يمكن أن تقفز إلى نبتة ثم ثمرة مكتملة..».

- «لم نفكر في هذه الأمور؟؟ ليس هناك سوى أن نحمل سيوفنا وندفع عن ديارنا وحصوننا حتى يخف لنجدتنا رجال من يهود «خيبر» وهم كما تعلم أصهاري وعشيرتي، أو نبحث عن أعداء لمحمد كي يسرعوا لنصرتنا..».

هز كعب بن أسد رأسه، وقال: «أما أنا فإنى أفكر فى أمر آخر . . ».

- «ماذا؟؟».

- «أن نعتنق الإسلام . . ».

وثب حيى بن أخطب كمن لدغته عقرب، وصرخ: «ماذا؟؟».

- «ذلك هو طريق النجاة . . ».

- «اصمت يا كعب بن أسد . . ».

- «إننى أعتقد أن محمداً على حق، إنه يؤمن بموسى وبالتوراة، والأنبياء من قبله لا يفرق بين أحد من رسل الله . . فما الذى يمكن أن نعيبه عليه؟؟ ألم تبشر كتبنا بظهور نبى هذا الزمان؟؟ ألم يعتنق «ابن سلام» الإسلام وهو حبرنا الأكبر، وعالمنا الفذ؟؟».

قال حيى بن أخطب: «لو لم تكن كعب بن أسد لضربت عنقك . . ».

وقدم عدد من رجالات قريظة، وحاولوا تهدئة الخواطر، وقال أحدهم: «ماذا؟؟ أتريدون أن تقيموا معركة هنا . . تريقون فيها دماء إخوانكم، والعدو يقف خلف الأسوار؟؟».

وبعد أن ساد الاضطراب والهرج فترة قصيرة، هدأت الخواطر قليلاً، وعاد الرجال يتدارسون الأمور. وكان رأى كعب بن أسد الذى أصرّ عليه إصرارًا هو أنه لا سبيل إلى حل إلا عن أحد طريقين: إما أن نعلن إسلامنا، وإما أن ننزل من الحصون للقاء المسلمين وليكن ما يكون. .

وبسط الموضوع على شعب قريظة، لكن رفض الجميع أن يعتنقوا الإسلام ما عدا ثلاثة على رأسهم عمرو بن سعدى، كما رفضوا أيضًا النزول لحرب محمد والمسلمين.

- «ماذا تريدون إذن؟؟».

سؤال مهم عاد كعب بن أسد يوجهه إلى جمهرة اليهود، دون أن يتلقى عليه جوابًا، فما كان منهم إلا أن لاذوا بحصونهم، وتركوا الأمر معلقًا، لكنها كانت أيامًا عصيبة بالنسبة لليهود، لأنها تمر عليهم بطيئة ثقيلة، مشحونة بالخوف والانتظار القاتل، والمصير الغامض المعذب، ولقد كان من رأى حيى بن أخطب الحرب، لكنه لم يجد صدى لدعوته بين جموع بنى قريظة الذين خارت قواهم، وانحطت أرواحهم، وضعفت معنوياتهم لحد بعيد، كما كان من رأى كعب أن يشهروا إسلامهم ما داموا يهابون الحرب، لكنهم استكثروا وهم أصحاب كتاب قديم أن ينصاعوا للنبى الجديد، وينضووا

تحت لوائه . . ولم يكن رفضهم قائمًا على منطق سليم، أو موقف فكرى محدد، وإنما استجابة لكبرياء غامضة، ومنفعة عاجلة ، وسلطان دنيوى، واستصغاراً لشأن المسلمين ونبيهم، وحقداً موروثًا لصيقًا بهم منذ أمد بعيد.

وهز كعب رأسه، وقال: «أرى أنه لو سمح لنا محمد بالرحيل إلى «أذرعات»، وترك ديارنا وبيوتنا كما فعل بنو قينقاع وبنو النضير. . لو سمح محمد بذلك لحققنا كسبًا عظيمًا».

قال حيى بن أخطب ساخراً: «الكسب؟ وهل الكسب أن تطرد من وطنك، وتقذف بأطفالك ونسائك فى عرض البرارى والقفار؟؟».

- «إنه أفضل من الفناء الشامل. .».

- «بل الفناء أفضل يا كعب بن أسد. .».

التفت إليه كعب فى غيظ وقال: «يا حيى بن أخطب. . إنك تفكر فى رعونة وحقد، مشاعر الكراهية ضد محمد والمسلمين لا تفتأ تسيطر على أفكارك. . وبهذه الطريقة لن تتمكن من إدراك الأمور بطريقة واضحة لن تصل إلى رأى نزيه سليم. . إن قريظة عن بكرة أبيها تريد الخلاص. . لا تبغى سوى النجاة بنفسها، وليذهبوا إلى أى مكان. . تلك هى

الحقيقة . . إننى كممثل لهؤلاء الناس، وكسيد لهم لابد أن أفكر فيما يرضيهم، ويحقق لهم النجاة . . هم يريدون ذلك . . إننى أشعر بضخامة المسئولية الملقاة على عاتقى . . هذا عذاب ما بعده عذاب، أما أن أفكر فى مصير هؤلاء الناس تفكيراً ينبع عن مشاعرى وعواطفى الخاصة بما فيها من انحياز أو انحراف . . فسأجر عليهم الوبال . . وعلى نفسى أيضًا، ومع ذلك فإن الأمر يختلف حينما تفكر فى مصيرك الخاص، عندما تفكر فى مصير التعساء من قوم أعنى أولئك الذين قد جعلتك الأقدار حاكمًا عليهم، توقفت الكلمات فى حلقه . . وأفلتت دمعتان من بين أهدابه، فأسرع بتجفيفهما . ثم عاد يقول فى انفعال : «لم أكره منصبى فى يوم من الأيام كما أكرهه فى هذه الأوقات الرهيبة . . إننى ألعن اليوم الذى أصبحت فيه سيداً لبنى قريظة . . لقد كانت سيادتى عليكم يا بنى قريظة همومًا متصلة وعناء بالغًا، ومتاعب لا حد لها . . وها هى النهاية . . النهاية التى لا أعرف كيف تكون، لكنها ستكون بالتأكيد سيئة على أى وجه من الوجوه . . » .

□□□

الفصل [٣٢]

جلس سعد بن معاذ سيد الأوس وحده، كان يفكر فيما تجرى به الأيام، يتذكر منذ أن قدم رسول الله إلى المدينة، وتبعه بضعة نفر - المهاجرون - وأحاط به أهل البيعة من الأنصار، أكان يتصور سعد يومها أن العرب ستهب ذات يوم، ونفر من قريش وغطفان وأسد وفزارة وغيرهم تأتى لحرب ذلك المهاجر المسالم ومن معه من رجال طيبين، قلة فى العدد والعدة؟ والأعجب من ذلك كل ما جرى لسعد نفسه.. إنه يحاول المقارنة بين سعد فى جاهليته، وسعد الآن.. فيهوله الفارق الضخم.. أين أيام الحدة والانطلاق الأعمى والكئوس والنساء والتجبر، وحروب القبائل، ومجالس الفخر، والدين القديم بما فيه من مضحكات وترهات.. وأعاجيب.. إن سعداً لم يتغير وحده.. بل وجه المدينة الخالدة، قد جرى عليها ما جرى على سعد.. أصابها التغيير فى نظامها ومجتمعاتها وعلاقاتها الإنسانية والتجارية..

تبدلت اهتماماتها وتطلعاتها.. المبانى هى المبانى..

والأسماء هى الأسماء . . لكن روحًا جديدة سرت بين الناس فتركت بصماتها على الوجوه، والكلمات والنظرات والخطوات . . لكأنما مر دهر طويل على المدينة منذ أن أتى إليها محمد . . واستطرد سعد فى تفكيره العميق . . يوم بدر المشهود، لم يخطر على بال أحد من الناس أن هذا المهاجر الفار بدينه وبالمؤمنين من رجاله . . لم يخطر على بال أحد أنه قادر على أن يمرغ أنف قريش فى الرغام، وأن يجندل أبطالها، ويطحن كبرياءها وعنجهيتها وجبروتها تحت أقدام رجاله الحفاة . .

وفى يوم «أحد» حيث الابتلاء والامتحانات والدرس الذى لا ينسى . . مات حمزة بن عبد المطلب، ومات غيره من كبار القلوب، لم يستسلموا بل واصلوا النضال حتى آخر رمق . . يا له من يوم ! ! أشق ما فيه زعمهم أن محمداً قد قتل . . يا رعاك الله أيها النبى العظيم، تخرج من الغبار واللهيب والدخان الأسود، تخرج مشرق الوجه، تدعو الرجال للصمود والتجمع، وتعاود الكرة لتستخلص النصر من بين براثن الهزيمة، بعزم لا يكل، وقلب لا يفزع، ومع هذا الصمود والثبات كنت يا رسول الله تبكى . . تبكى الرجال الأوفياء الذين ذهبوا إلى جنة الله . .

وبالأمس القريب . . جاء العدو فى أكثر من عشرة آلاف . . وضربوا حول المدينة حصاراً عنيداً . . وتذكر سعد، كيف أن الرسول قد أسف لما أصاب المدينة من كوارث وقحط، وكيف أنه فكر فى تخفيف العبء عن المساكين من سكانها، فحاول أن يعقد

صلحًا مع غطفان، كى تعود من حيث أتت مقابل ثلث ثمار المدينة . . لم تضعف عزيمة الرسول، ولم يرهب الصراع، وإنما كان يفكر فى المدينة وسكانها وما يعانون من متاعب مختلفة . .

ويفكر أيضًا فى تمزيق وحدة الأحزاب الذين قدموا للقضاء على المسلمين . . تذكر سعد كل ذلك . . ثم تذكر كلمات الرسول عن هذه الاتفاقية المنتظرة، وتذكر أيضًا كيف أنه قال لرسول الله : «يا رسول الله أيكون هذا أمرًا تحبه فتصنعه، أم شيئًا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيئًا تصنعه لنا؟؟ فإن كان أمرًا من السماء فامض له، وإن كان أمرًا لم تؤمر به، ولك فيه هوى فسمع وطاعة، وإن كان إنما هو الرأى، فما لهم عندنا إلا السيف . . » فقال رسول الله : «لو أمرنى الله ما شاورتكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكثر شوكتهم إلى أمر ما» وابتسم سعد بن معاذ وهو يذكر رده القوى على تعليق رسول الله : «يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم [غطفان] على الشرك بالله، وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون فى أن يأكلوا منا ثمرة إلا قرى أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نقطعهم أموالنا؟؟ والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . . » .

ويذكر سعد ابتسامة رسول الله آنذاك، ويذكر أيضًا كيف

اكفهرت وجوه سادة غطفان، وهم يستمعون إلى كلمات سعد، سعد المحاصر الذى أحاطت به وبالمسلمين وبرسول الله الأعداء من كل جانب . .

لقد مرت الأيام، وانسحب الأعداء، وخرج المحاصرون من مدينتهم ليحاصروا حزبًا من الأحزاب المخذولة، ليحاصروا بنى قريظة . . أجل إن إرادة الله فوق كل إرادة . . هذه هى قريظة التى آذته وسبته وداست على نصائحه، ولم تكترث للود القديم، «ها هم جنود الله يطوقونها من كل جانب . . والعجيب أن قريظة، قد بعثت تخطب ود الرسول، وتتوسل إليه أن يتركها ترحل إلى بعيد . . وعندما أصر الرسول على أن يكون تسليم قريظة بدون شروط مسبقة، أو قيود معينة . . هرعت قريظة إلى طلب وساطتى، وتعلن أنها موافقة على تحكيمى فى القضية الخطرة . . لسوف أذهب إلى قريظة لأسمع منهم . . لن أشمخ بأنفى . . لن تأخذنى عزة المنتصر المنتقم، بل سأبقى كما أنا . . سأنسى إلى حين كلماتهم البذيئة، وشتائمهم لى ولرسول الله . . لا يصح أن أذكر الإساءات القديمة، إننى سأكون فى موضع القاضى . . فى مكان مقدس ارتضاه الرسول وارتضته قريظة . . ولن تأخذنى فى الله لومة لائم أيها المسلمون . . ولن أحكم إلا بالعدل يا حلفائى الأقدمين . . يا بنى قريظة . . » .

دخل سعد إلى ديار بنى قريظة، استقبله الرجال بالتجلة والاحترام، إنه شىء يختلف تمامًا عن الاستقبال السابق يوم

وفد الرسول، لكن سعد بن معاذ يرى شيئًا آخر يمزق نياط القلوب، النسوة يعولن، والأطفال يبكون ويصيحون . . الذعر يسود الجميع . .

- «أحسن فى مواليك يا سعد بن معاذ . . » .

- «هل ارتضيتمونى حكمًا؟؟» .

- «ونعم الحكم!!» .

قال كعب بن أسد : «إن إنكار الحق حماقة . . لقد وقعنا فى خطأ جسيم . . سمه جريمة إن شئت!! لكن محمدًا يستطيع أن يصفح عنا . . إنه يتحلى بالرحمة والعطف والتسامح . . وما أظنه يضن علينا بتركنا نرحل إلى أذرعات» .

هز سعد رأسه : «لقد فوضتم الأمر إلىّ . . أليس كذلك؟؟» .

- «نعلم ذلك . . » .

- ولم يعد هناك مجال للحديث عن رحيلكم لأذرعات أو غيره . . إننى أدرك قداسة ودقة الحكم الذى يتعلق بمصير الرجال والنساء والأطفال . . أعرف ذلك جيدًا . . » وسمع سعد صوتًا من خلفه، إنه يعرف ذلك الصوت جيدًا : «لكنك يا سعد تعرف جيدًا أيضًا أننا أسأنا إليك حينما وفدت لمفاوضتنا . . » .

- «إننى أحكم بالعدل . . بما أرانى الله . . أهو حيى بن أخطب؟؟» .

أدار سعد وجهه، فالتقت نظراته بنظرات حيي بن أخطب الذي قال: «إنه أنا.. أنت تعلم يا سعد بن معاذ أننا نستطيع الحرب، والصبر على الحصار فترة طويلة، وسيتكبد المسلمون الكثير من التضحيات والوقت والمال حتى يتمكنوا من هزيمتنا. إننا نريد أن نوفر إراقة الدماء، وألا نضيع الوقت فى الصراع الدامى الذى لا طائل تحته..».

حدجه سعد بنظرات دهشة، لم يزل الملعون يتكلم من عل، ويعلن عن هزيمته فى صوت قوى، ويبدى تخاذله وراء أستار زائفة من الهيبة والسيطرة، لم يزل حيى بن أخطب يتكلم بصوت أجش، لم يزل يتحدى وهو يحنى رأسه، ويقاوم وهو ملقى فى قيود الذل والهزيمة ويستعطف وهو يستعلى بنبراته ومنطقه.. وفكر سعد أن يحرجه، أن يشرح له ما لا يحتاج إلى شرح، ويذكره بأنه يستسلم بدون قيد أو شرط، ويلفت نظره للنسوه اللاتى يولولن، والأطفال الذين يصيحون، والرجال الذين يستعطفون.. لكن سعداً لا يريد أن يفعل ذلك.. إن سعداً فى مكانة القاضى، وهو الحكم، ولا بد أن ينجو بنفسه من شباك الحق الذاتى، إن كعب بن أسد يدرك القضية أكثر مما يدركها الملعون حيى بن أخطب..

إن الرجل المسئول يعانى من جراء خطئه، ويرمى نفسه وحزبه بالإجرام.. لكن حييًا لم يزل يحمل فى قلبه الحقد

الذى لا يزول، ولو تركت له الفرصة مرة أخرى، فلسوف يحاول حشد الأعداء وجمع المشركين والمنافقين من شتى أنحاء الجزيرة العربية.. ليعيد الكرة.. وليشعل نيران حرب جديدة..

وأدرك كعب بن أسد ما حالف كلمات حيى من حماقة وعدم لباقة، فقال بعد فترة صمت: «يا سعد بن معاذ.. نحن نطلب الصفح من محمد.. يا سعد بن معاذ إننا نطلب منك أن تحسن فى مواليك وحلفائك القدامى، كما فعل «ابن أبى» مع حلفائه من قبل.. يا سعد بن معاذ.. إننا اخترناك لعدلك وحلمك وتقواك..».

صاح حيى بن أخطب، ووجهه الشاحب، وعيناه المحتقنتان ينبشان عن مشاعره المصطرعة: «إنك تريق ماء وجهك يا ابن أسد، وتمرغ شرف قومك فى الذل والهوان..».

التفت إليه كعب، ورماه بعين شزراء وقال: «إننى أحمى التعساء الذين ساقوا أنفسهم وراءنا إلى مستنقعات الإثم والغدر.. وأنا على استعداد لأن أكون نعلاً لمحمد كى أرد عن قومى العذاب.. والضياع..».

- «فلا كانت الحياة يا ابن أسد..».

ومضوا بسعد فى الشوارع والحارات، ليرى ويسمع لعل

قلبه يرق، لكن سعداً كان فى شغل شاغل عن ذلك كله، إنه يحدد كل شىء. المتهم: بنو قريظة.. الجريمة: نقض العهد فى أحلك الأوقات، ومؤازرة الأعداء.. ومحاولة التسلل خلف ظهر المسلمين كى يسوقوا النساء والأطفال سبايا.. والعمل على إفناء المسلمين.. والقضاء على الرسول ودعوته قضاء تامًا.. والآن ما هو العقاب الواجب؟؟.

وتمتم سعد بن معاذ: «لن تأخذنى فى الله لومة لائم.. بحق العناء الذى عشناه طوال الحصار المرير، وبحق الشقاء الذى لف المسلمين خلف الخندق، فى ليالى الجوع والظمأ والبرد والخوف..

بحق هذا كله لن ألتزم إلا بالحق.. الحق وحده..».

والتفت سعد إلى بنى قريظة: «يا بنى قريظة.. لقد رضيتمونى حكمًا؟؟».

- «أجل..».

- «يا بنى قريظة.. لقد رضيتمونى حكمًا؟؟».

- «أجل..».

- «فاسمعوا وأطيعوا لأوامرى..».

- «سنفعل..».

- «استعدوا..».

- «نحن على استعداد..».

الفصل [٣٣]

أصدر سعد حكمه وهو: أن ينزل بنو قريظة من حصونهم وأن يضعوا السلاح.. تمتم حيى بن أخطب: «ننزل من حصوننا؟؟ كيف؟؟ ونضع السلاح؟؟ هذا أمر عجيب!!» وأدرك سعد ما هم فيه من خوف وتردد فعاد يقول: «لقد أخذت عليكم العهود والمواثيق أن تنزلوا على حكمى، وما أظنكم تغدرون بعهودكم مرة ثانية.. فافعلوا ما أمرتكم اختصارًا للوقت.. ولكى نسرع بالوصول إلى النتيجة المحتومة..».

همس حيى فى أذن كعب بن أسد: «ليس لنا ملجأ سوى سيوفنا، فكيف نضعها يا زعيم القوم؟؟».

قال كعب فى يأس: «وماذا تفعل سيوفنا أمام الحشد الذى أقامه محمد من حولنا؟؟ لن أنكث بعهدى مرة ثانية..».

ومن خلفهما قهقهت اليهودية، وقالت: «وداعًا يا حيى بن أخطب».

قال حيي: «ماذا؟؟ أتنوين الهرب؟؟ أظن ذلك أمراً صعبًا..».

ابتسمت وقد جلل الشحوب وجهها وقالت: «الوداع يا بؤرة الفساد والعناد ومحرك المآسى..».

- «اصمتى يا فاجرة..».

- «فاجرة؟؟ ها.. ها.. ها.. كان ذلك فى زمن الغباء والطيش.. إن الأيام السوداء والصراع الدامى الذى عشته الليالى الطويلة، قد كفر عن خطاياى، ومع ذلك فأنت أفجر منى..».

هتف فى غيظ: «كيف؟؟ إنك تسيئين إلى سيدك إساءة بالغة.. أيتها الحقيرة..».

هزت رأسها قائلة:

«ترفع رأسك فى كبرياء وأنت على أعتاب الفناء..».

- «أنت واهمة، فإن حييًا لا يستسلم إلا لينطلق من جديد..

عادت تقهقه: «ها.. ها.. ها.. من جديد»؟؟

وهاج كعب بن أسد وماج، واعترض على ذلك النقاش العقيم فى ذلك الوقت العصيب. وأمرهم أن ينزلوا على رأى سعد بن معاذ حليفهم القديم، إذ لا شك أنه سوف

يحسن فى مواليه ، وكل ما يرجوه أن ينجوا بجلودهم من هذه الورطة ، ولتذهب أموالهم وأنعامهم إلى الجحيم وقال حيى وهو يصر على أسنانه : «ألا إن حليفك القديم قد يغدر بنا» . .

قال كعب فى حدة وصبر نافذ : «لقد غدرنا بهم عشرات المرات ، وليكن ما يكون . . » .

وشرد حيى بضع لحظات ، ثم قال : «لست أدرى لماذا لم يتحرك يهود «خيبر» لنجدتنا ، إن فيهم ابنتى صفية وزوجها كنانة بن الربيع سيدهم . . ماذا ينتظرون؟؟ ألم يحرضونا على ذلك الفعل؟؟ ألم يشاركوا فى التدبير والاتصال بقريش والقبائل؟؟ وكيف نعتب على انصراف الأحزاب عنا ، ثم لا نعتب على أبناء جلدتنا فى «خيبر»؟؟» .

فرد عليه كعب : «لقد فات أوان العتاب . . إننى أرى بعينى الطريق الكالح الذى سار فيه بنو قينقاع وبنو النضير . . » .

تنهد حيى بن أخطب فى حسرة وقال : «يا ليت !!» .

ووفد عليهم عمرو بن سعدى صامتًا ، وتمتم حيى : «أرى على وجهك الاطمئنان ، لكأنك واثق من نجاتك» .

- «إننى لا أعرف مصيرى مثلكم ، لكنى أصررت على حفاظى على عهد محمد . . هذا ما استطعته أنا والرجلان اللذان معى . . » .

- «ومحمد لا ينسى الأوفياء يا عمرو. .».

وجاءهم صوت سعد بن معاذ صائحًا: «لتنزلوا من حصونكم، وتضعوا السلاح. .».

وثب كعب بن أسد من مكانه، وقال: «إنا لفاعلون. .».

ثم التفت إلى بنى قريظة، وصاح بهم: «ماذا تنتظرون؟؟ هيا انزلوا. .».

لحظات قاتلة رهيبة، الطابور الطويل يهبط من الحصون فى صمت مذهل، والوجوه ترهقها فى ذلة وشحوب، والعيون الساهرة تنظر فى رعب قاتل، والخطوات متعثرة واهنة مرتجفة، والشمس تغمر المكان بضوئها الساطع برغم برودة الجو، وحيى بن أخطب يخطو فى ذهول، ينظر يمنة ويسرة، فيرى آلاف العيون ترمقه، وجنود المسلمون يحيطون بالطابور الآثم. . أهى النهاية يا حيى بن أخطب؟؟ مستحيل، إن قلبه ينغل بالمؤامرات والأحقاد، لم يزل يحلم بيوم الثأر الأحمر، يوم أن يرى محمداً يرسف فى الأغلال ينشد العفو والرحمة، ويرى ابن الخطاب وعليًا وعثمان وأبا بكر وأبا عبيدة وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة وغيرهم من المهاجرين والأنصار صرعى تنزف منهم الدماء أو أسارى يرفلون فى ثياب الذل والعار. . لم يزل حيى يحلم بالمستقبل وبالآلاف من جنود قريش والقبائل تأتى مرة أخرى لتسحق كلمة الإسلام، وتبدد شمل

تجـمـعـه، وتطفئ وهج الإيمان والإباء فى نفـوس الرجـال المؤمنين . .

وصاح سعد بن معاذ . .

- «أقسم بالله أن أحكم بالعدل، وأن أنطق كلمة القاضى النزيه . .»، ارتاع حيى بن أخطب وهو يستمع لكلمة «العدل» إنها كلمة مخيفة، إن الحكم بالعدل على الجانى هو الإدانة، وحيى لا يريد حكمًا بالعدل، يريد صفحًا، يريد من سعد بن معاذ أن يحسن فى مواليه وحلفائه الأقدمين . . أما العدل فإنه أمر جد خطير . . وقال سعد بن معاذ: «استمعوا إلى حكمى».

تعلقت به العيون، وتطاولت إليه الأعناق، وأرهفت الآذان الأسماع، ليقل سعد ما شاء، فإنه لا شك لن يقسو على حلفائه الأقدمين، بل ولن ينفذ فيهم حكم العدالة لأنه قاسٍ رهيب.

وقال سعد: «الحكم هو أن يقتل المقاتلون من بنى قريظة، وتقسم الأموال، وتسبى الذرارى والنساء . .».

وصرخ حيى بن أخطب: «لقد خدعنا . . أين سيفى؟؟».

لا وجود لسيفه، والحشود المسلحة من المسلمين تحيط بالجناة، الذين سينالون نفس الجزاء الذى أرادوا أن يطبق على المسلمين، الجزاء الذى داسوا من أجله العهود والمواثيق، فى أخطر اللحظات العصيبة . .

الفصل [٣٤]

مالت اليهودية على أذن حيى بن أخطب قائلة: «لقد جاء دورك يا حيى . . أراك مرتبكًا شاحبًا حزينًا». لم يجد أدنى رغبة فى أن يرد إليها الصفعة، كان يفكر فى كل شىء فى لحظاته الأخيرة . . الماضى والحاضر والمستقبل . . كان وكان . . آه . . ذكريات طويلة وليالٍ من السهر والكراهية والجهد الجهيد . . واليوم . . الدماء تسيل . . النهاية الفاصلة الحاسمة التى لا نجاة منها . . لماذا يموت على هذه الصورة؟؟ اللعنة عليك يا كعب بن أسد . . اللعنة على كل اليهود؟؟ لماذا لم يستمعوا لنصحى ويحملوا سلاحهم، ويخوضوا المعركة ويموتوا على الأسوار، وفى الشوارع، وعلى عتبات البيوت، بدلاً من أن يستسلموا كالنعاج الخائفة؟؟ ها هو محمد يرفع رأسه . . إنه يعطينا درسًا قاتلاً فى الأدب حتى لا نغدر مرة ثانية؟؟ نغدر؟؟ وكيف يغدر الموتى؟؟ أحقًا جاءت نهايتى على هذه الصورة المزرية؟؟ ألن يكون هناك

شيء اسمه حيي بن أخطب بعد ذلك؟؟ ألن أتصدر المحافل، وأجلس على رأس المؤتمرات، وأذهب إلى سادات قريش وغطفان، وأحرك الألوف بكلماتي الساحرة؟؟ وهل انتصر محمد؟؟ وهل ستجلجل أصوات المؤذنين في كل مكان، وتهز الآفاق، وتدخل الحسرة في قلوب أعداء الإسلام؟؟ أيكبر جيش محمد وتنطلق دعوته في شتى الأنحاء، ويخرج في جيش لجب، ليؤدب المارقين واحداً واحداً، ويصطاد الأحزاب حزبًا حزبًا؟؟ لكم الويل يا أغبياء قريش!! أتظنون أنكم نجوتم بجلودكم؟ كلا.. فمحمد سيغزوكم في عقر داركم، ولن يترككم حتى تخروا سجداً، وتعلنوا استسلامكم وولاءكم.. أجل.. وتعلنوا إسلامكم.. هيهات.. لقد ضاعت الفرصة إلى الأبد.. لشد ما أكره محمداً.. هذا الرجل يعيش، وهذا يعذبني.. إنه ينتصر، وهذا ما يؤلمني.. لن يؤلمني سيفه وهو يحتز ويفصلها عن جسدي.. إن ما أفكر فيه أكبر من ذلك بكثير.. آه.. آه.. أين أنت يا ابنتي يا صفية؟؟ لا شك أنك ستولولين وتملئين الربوع دموعًا وصياحًا.. وسيأتي إليك نسوة «خيبر» ويقدمن لك التعازي.. كان أبوك يا صفية رجلاً عظيمًا.. وكنت أنت يا صفية تعترضين دائمًا على مخططاتي.. وكنت تفضلين مصالحة محمد، والعيش

فى جواره، والوفاء بعهوده.. هل كنت يا صفية أبعد نظرًا منى، أم أن قلبك كان يحدثك بهذا الموقف الرهيب الذى يقفه أبوك؟؟ لا يا صفية.. إن أباك عاش بطلاً ومات بطلاً.. لقد ظللت وفيًا لمبادئى - أيًا كانت هذه المبادئ - حتى النهاية.. لم أفرط فى ذرة منها.. الوفاء لقومى من اليهود.. الكراهية الكبرى لمحمد ودعوته.. ضحيت بكل شىء من أجل أن أقهره.. بذلت كل ما فى وسعى لسحقه، وكدت أنجح نجاحًا باهرًا يا صفية يا ابنتى الحبيبة.. لكن الأقدار وقفت فى طريقى.. عاندتنى الأقدار ياصفية.. هدمت ما كنت أبنيه.. لماذا؟؟ لماذا حدث ذلك يا صفية؟؟ هل لأنى لم أكن على حق؟؟ هل محمد على حق؟؟ على الرغم من أنى أفكر فى هذا الأمر، إلا أنه لم يعد يعنينى يا صفية، ولست على استعداد أن أتحول عن عقيدتى فى اللحظات الأخيرة من حياتى، ماذا يقول اليهود عنى إذا ما اعتنقت الإسلام؟؟ وماذا يقول العرب عنى؟؟ سيقولون: إن حيى بن أخطب قد أعلن إسلامه ليحفظ حياته، سيقولون: إننى غيرت عقيدتى جبنًا ونذالة.. لا.. لا لن أكون هذا الرجل الضعيف الهزيل، لسوف ألقى الموت قويًا مرفوع الهامة، لن أدمر كبريائى.. ليست المسألة مسألة حق وباطل، بل هى كرامتى قبل كل شىء.. وهل بقى من

العمر أكثر مما مضى يا صفية . . آه . . أين أنت يا صفية يا ابنتى الحبيبة؟؟ إنك لا تسمعيننى الآن، وهذا ما يعذبنى، ويملأ قلبى بالأسى والأحزان . . لا . . لا . . إننى لا أتمنى أن ترينى فى هذا الموقف الصعب . . لو حضرت الآن يا صفية لقلت لك اذهبى إلى حيث كنت . . لا أن ترينى على هذه الصورة . .

وأفاق حيى بن أخطب من أفكاره المصطرعة، إنه يسمع هديراً من الصياح والعويل، ويسمع بنى قريظة يكيلون له الشتائم والسباب . . إنهم يودعونه أسوأ وداع . . «اللعنة عليكم جميعًا أيها الأوباش . . ».

- «لقد جاء دورك يا حيى بن أخطب يا عدو الله . . » هذا ما سمعه، ليكن . . إن الذى يعادى الله لا بد وأن يكون عنيدًا شجاعًا . . آه . . أنت تضحك على نفسك يا مسكين . . من أنت بالنسبة لله؟؟ إنك مخلوق ضعيف ستخمد أنفاسك بعد ضربة سيف . . لكن الله باقٍ . . وكلماته باقية . . لن تموت . . وجذبته يد قوية .

فتح عينيه فرأى السيف يلمع . .

- «أنت يا حيى بن أخطب قد أجرمت فى حق الله . . وفى حق قومك . . أنت مجرم حرب غير شريفة، نكثت فيها

بالعهود، وحرضت على الغدر وإراقة الدماء، وعرضت الأبرياء للموت والدمار والشر . . ».

هز رأسه في عناد وقال: «ولو عشت لفعلت مثلما فعلت من قبل . . ».

وقدم إليه رسول الله وقال: «ألم يخزك الله يا حيي؟؟».

وأجاب حيي في استخذاء لئيم: «كل نفس ذائقة الموت، ولي أجل لا أعدوه، والله ما لمت نفسي عداوتك قط يا محمد، ولكن الله يخذل من يخذله . . ».

والتفت حيي إلى جموع اليهود، كان يحاول التماسك، ويتظاهر بالشجاعة، فرآهم نهبًا للرعب القاتل والخوف الفظيع، كان يحاول التماسك، كانوا ينتظرون مصيرهم المحتوم، وفي ذلك الوقت الرهيب . . وقت الانتظار الصعب . . كانوا يلعنونه. ويذكرونه بأنه سبب الكارثة التي حلت بهم، والنكبة التي حاقت بهم . . فواجههم قائلاً: «يا بني قريظة . . لا بأس بأمر الله . . كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل!!».

وجاءه صوت اليهودية من بعيد . .

- «أنت صانع المأساة أيها الملعون . . » .

وتدلت شفتاه في ابتسامة بلهاء ، وزاغت نظراته ، واختلطت المرئيات أمام عينه . . لم يعد يرى سوى وجه محمد يشرق بالثقة والنور والأمل وسمع رسول الله يتمتم ببعض آيات الله التي نزل بها الوحي :

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢٥-٢٧] . . صدق الله العظيم . .

وتمتم حيي بن أخطب : «أجل . . غنيمة باردة . . » .

ثم رجع عدو الله إلى مكان العقاب . . وأطاح النصل بعنقه .

وصاحت اليهودية في فرح مجنون : «لقد حذرتك يا حيي ابن أخطب . . يا فاتح طريق المتاهات والعذاب والضياع . . عليك اللعنة . . » .

ونادى منادي المسلمين : «لن يصاب النساء بأذى . . ولن يصاب الأطفال بأذى . . ولن يصاب الذين أسلموا بأذى . .

ولن يصاب الذين حافظوا على عهدهم بأذى . . هنيئًا لك يا عمرو بن سعدى أنت وصاحباك . . » وانطلق المسلمون إلى حصون بنى قريظة وبيوتهم يرثون الأرضْ التى كتبها الله لهم ، وأخذت اليهودية ترمق الزحف الصاعد، والدموع على خديها : «هذا يوم الحساب . . الحزن يجلل الديار . . والنداء الجديد يرج الأنحاء . . ويتردد صداه بين الأروقة . . الله أكبر . . صدق وعده . . ونصر عبده . . وأعز جنده . . وهزم الأحزاب وحده . . » .

وهمست فى أذن جارتها : «ألا تسمعين . . إنهم لا يمنون بشيء . . يعزون النصر كله لله . . هزم الأحزاب وحده . . لقد صمدوا وصبروا وصابروا . . وعاشوا أيامًا سودًا . . حتى تفتحت لدعواتهم أبواب السماوات . . ثم عادت تقول : «انظرى إلى عمر بن الخطاب . . هذا الرجل الفارع الطويل . . إنه يرفع يديه إلى السماء . . حيث يوجد قلبه . . لقد صدق قرآنهم حينما قال : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب : ٢٣] . . أجل وقالت جارتها وهى تجفف دموعها : «إنهم لم يسوقونا إلى دينهم على الرغم منا . لقد تركوا لنا حرية الاختيار . . لم يسيئوا إلينا قط . .

لكن ما قيمة الحياة بعد أن فقدنا الزوج والولد، وضاعت بهجة الحياة.. لقد شربنا كأس الهوان المر المذاق..».

وقالت اليهودية:

«لقد أردنا نحن ذلك.. لماذا لم نثر فى وجه الرجال؟؟ لماذا لم نمنع وقوع الكارثة!!».

- «كان الملعون حيى بن أخطب يزوق لنا المنى، كلماته كانت كالسحر، وآماله الخادعة كانت خلابة.. فسرنا وراء السراب..».

وتمتمت اليهودية: «حتى تجلت شمس الحقيقة فأماطت اللثام عن حياة الزيف والخداع..».

- «أجل..».

- «بعد أن دفعنا الثمن غاليًا..».

ثم عادت اليهودية تقول: «لقد كنت فى كل مرة آوى إلى اليهود بعد نكبتنا.. بعد بنى قينقاع قصدت ديار بنى النضير، وبعد النضير قصدت قريظة، والآن لن أذهب إلى خيبر.. هذه المرة سأبقى هنا لأفكر تفكيرًا آخر..».

- «ماذا تعنين؟؟».

– «إننى يجب أن أفكر فى دعوة محمد على ضوء جديد . . ألا تعتقدين أنه على حق؟؟».

قالت المرأة فى أسى وقد عادت دموعها للانهمار: «لا أستطيع التفكير الآن . . ».

– «لا . . لا يصح أن نترك هذا السؤال الحاسم معلقًا دون إجابة . . ».

– «أتريدين الحقيقة؟؟».

– «أجل . . ».

– «هذه الحقيقة نعرفها من زمن بعيد . . إنه رسول الله حقًا، ولم نرَ فى دعوته، وسلوك رجاله إلا صورة صادقة لآيات الله وأحكامه وتعاليمه . . ».

– «فماذا ننتظر؟؟».

– «ننتظر حتى تجف الدماء . . وينسدل الستار على المشهد الرهيب . . ثم نشهد أنه لا إله إلا الله، وأن . . » وصمتت.

قالت اليهودية: «وأن محمدًا رسول الله . . ». وطأطأت المرأة رأسها قائلة: «أجل . . ».

❑❑❑

الفصل [٣٥]

ران الصمت على يهود «خيبر»، واتشحت النسوة بالسواد، وماجت صدور الرجال بالحقد الممتزج بالخوف، وأدار سيدهم «كنانة بن الربيع» رأسه إلى الآفاق الرحبة الممتدة إلى بعيد، يمسح الرمال الصفراء بنظرات حزينة، وتغلي رأسه بأفكار مضطربة واجفة. أهكذا تكون نهاية بني قريظة، أهكذا تكون نهاية صهره الغالي العزيز «حيي بن أخطب» والد زوجته الأثيرة صفية؟؟ لو يملك سيد خيبر العدد الكافي من الرجال والسلاح لانقض على «المدينة» وجعل عاليها سافلها، ودمر مبانيها على رأس محمد وصحبه وأشعل النار في مساجدهم ومرابعهم، وأحرق الرجال والنساء والأطفال أحياء.. أجل أحياء حتى يتلذذ بما يقاسونه من عذاب وهوان، لكنها أمنيات عاجزة مقهورة، والعجز قاسٍ رهيب يبعث المرارة في مذاق الحياة، ويحيل بهجتها إلى أسى وضياع وحسرة.. الحقد يأكل قلب سيد «خيبر»، وحيثما يكون الحقد، لا يفسح مجالاً

للتفكير السليم أو المنطق الواضح! الصحيح. . الحقد يعمى العينين عن رؤية الحقيقة، ويسد فى العقل منافذ التحرر والإنصاف. . الحقد أبكم وأصم وأعمى. . لا يفعل سوى أن ينفخ النيران، ويبعث بمخالفه لتمزق وتريق الدم. . الحقد رذيلة كبرى. .

على الرغم مما حدث من مآس. . فإن سيد «خيبر» لن يهادن محمداً ولو أن محمداً أصبح أقوى منه، وسيد خيبر سيثيرها حرباً شعواء. . لقد كان «حيى بن أخطب» على حق حينما حشد قريشاً والقبائل واليهود فى صف واحد لضرب محمد، ولن تنجح أية حركة تقوم ضد محمد إلا إذا سارت فى نفس الطريق الذى سار فيه «حيى». . مع محاولة تجنب سوء الحظ الذى حالف التكتل السابق. . إن على خيبر أن تعد نفسها ليوم مشهود، وأن تحشد كل إمكانياتها من مال وسلاح وأقوات ورجال ليوم المعركة الكبرى. . إن دماء قريظة تصرخ بالثأر. . وذبح «حيى بن أخطب» كما تذبح الشاة مأساة كبرى لن يكون اليهود يهوداً إلا إذا مسحوا عارها وأساها العميق. . أيكون هناك نصر بغير تضحيات؟؟ أتشتعل معركة دون ما حقد دفين؟؟ إنه الوقود الذى سيدفع خيبر إلى خوض غمار حرب ضارية تأكل الأخضر واليابس. . ووقف «كنانة بن الربيع» يتقبل العزاء فى صهره، وأخذ رجالات خيبر يتقدمون إليه واحداً

واحداً، إنه يصافحهم وهو فى ذهول وكرب شديد، هيهات تغنى الكلمات عن المصاب الفادح. ووقف «ابن الربيع» بينهم خطيبًا: «يا رجالات خيبر.. لقد فقدنا رجلاً عظيمًا، ولسوف يمر وقت طويل قبل أن تجود السماء برجل مثله.. إن حيى بن أخطب فلتة من فلتات الزمان، كان يعرف جيداً ماذا يفعل وكان يدرك أبعاد الخطر الإسلامى الداهم منذ البداية.. عندما هاجر محمد إلى المدينة هاربًا برجاله القلائل، بعد أن كادت قريش تقتله، وفكر محمد فى عقد حلف مع يهود المدينة، وضواحيها، رفض حيى بن أخطب التوقيع على هذا الحلف فى البداية، وحذر اليهود من مغبة ذلك.. وأفهمهم أن الموافقة على الاتفاق المزمع عقده يجعل من محمد ملكًا على المدينة وما حولها.. ويقوى من شوكته، ويحمى ظهره، ويجعله فى منعة -أو ما يشبه المنعة- من أعدائه القريشيين.. كان محمد يا رجالات خيبر رجلاً يحمل مبدأ وعقيدة، من السهل فهمها، وتقبلهما لدى عقول العامة.. ولم تكن قريش تملك هذا الرصيد.. ومن ثم فإن قريشًا لا تشكل خطرًا حقيقيًا على محمد ودعوته.. نحن اليهود نشكل الخطر الحقيقى وحدنا.. ومحمد كان يدرك ذلك.. ولهذا حرص على التحالف معنا حتى يفرغ لأعدائه القريشيين وغيرهم من القبائل الجاهلة -على أمل أن يزداد أتباعه وتقوى شكيمته، ويصبح القوة الوحيدة

المهابة التى لا يستطيع اليهود ولا غيرهم التصدى له . . كان «حيى» يدرك ذلك . . ولما لم يستجب اليهود له ، وأظهروا عدم مبالاتهم وكذلك استهتارهم بنوايا محمد ومطامعه . . لم يطمئن حيى بن أخطب . . وقف متيقظًا يرقب الأحداث ، ويرى الخطر ينمو ، فاندفع يدبر ، ويحشد الحشود ويضرب القوى النامية فى قلب الجزيرة العربية . . إلى . . إلى أن مات حيى بن أخطب شهيداً . . » وجفف كنانة دمعة من عينيه ، واستطرد قائلاً : « . . ورأينا بأعيننا طرد بنى قينقاع ، وشهدنا رحيل بنى النضير الحزين الباكى . . ثم كانت الطامة الكبرى يوم ذبح المقاتلون من قريظة ، وعلى رأسهم رب السيف والفكر والعقيدة حيى بن أخطب . . » .

ثم صاح بصوت جريح : «أترى تغيب شمسنا عن أرض العرب ويضع محمد بسيوفه النهاية الأليمة لملحمة النضال اليهودى الصابر ؟؟ والله إن بطن الأرض خير من ظاهرها ، وهيهات أن تقر لنا عين ، أو يهدأ لنا بال ونحن نعيش تحت سيطرة محمد وتهديده . . » .

وصاح رجل فى المؤخرة : «يا كنانة بن الربيع . . ليست الخطورة كامنة فى سيوف محمد ، ولكنها فى أفكاره . . فى سطور الكتاب المنزل عليه . . » .

اهتاج ابن الربيع وهتف: «دع أفكار محمد وقرآنه. . نحن نتحدث عن الثأر والحرب. . إن الحديث فى مثل هذه الأمور يبعث الوهن فى النفوس ويوقع بيننا الخلاف والتردد، لسنا على استعداد لأن نناقش أفكاره الآن، لقد فات الأوان، وجرت الدماء بيننا وبينه، ونحن مؤمنون بديننا، ونرفض أى شىء جديد. . نرفضه بشدة، ودون تردد. . افهموا ذلك جيداً يا أبناء خيبر الأبطال. . ».

وعاد رجل المؤخرة يقول: «كلمات محمد يا سيدنا هى العامل الحاسم فى المعركة، لماذا نضع رءوسنا فى الرمال، ونتجاهل الحقائق الواضحة الصارخة؟؟ كلمات محمد هى التى صنعت رجاله، وشكلت النسق الجديد لسلوكهم وأفكارهم، والبطولات التى ظهرت بين يدى محمد، وانبثقت من تعاليمه، هى التى تهزمنا. . ».

وهتف كنانة بن الربيع: «وماذا نفعل إذن؟؟».

- «ندرس الرجل وأفكاره على ضوء جديد. . ».

قهقه كنانة فى حسرة: «ندرس؟؟ إنه لشىء مضحك!! عندما تتم دراستك يكون كل شىء قد انتهى. . يكون محمد قد استعد استعداداً كاملاً، وأطبق علينا من كل صوب. . أو يكون نصف رجالنا ضعاف الإيمان، قد تحولوا إلى دينه،

وصبئوا عن دين الآباء والأجداد . . هذا هو الموقف بصراحة .

إننى يا رجالات خيبر لم أقف بينكم خطيبًا لأترنم بالقصائد فى رثاء قريظة وحيى بن أخطب ، ولم أتحدث إليكم لكى نتدارس أفكار محمد وكلماته وانعكاسها على رجاله . . إننى أحدثكم فقط عن الخطر المحدق ، وأذكركم بالثأر الذى يصرخ بكم . . وأدعوكم لكى تعيشوا رجالاً أو تموتوا رجالاً . . ولا شىء غير ذلك . . وسأغلق سمعى عن تلقى أى حديث أو رأى خارج عن هذا النطاق . . » .

طأطأ الرجال رءوسهم صامتين ، ولم يمنعهم ذلك من الحديث حول أفكار محمد وكلماته المنزلة ، من عند الله ، وما يرويه القرآن عن بنى إسرائيل . . عن تاريخهم وكأن محمداً كان حاضراً فى تلك الأزمنة السحيقة . . أيام موسى وهارون . . وداود وسليمان . . وزكريا ويحيى وعيسى . . وألوان الغدر التى عرف بها بنو إسرائيل . . وانحرافاتهم القديمة . . كل شىء يعرفه محمد . . إن كلماته حق . . لو لم يكن لدى محمد معجزة لكفاه ما يكشف عنه من أقاصيص وأسرار . . بل إن معجزته الكبرى هو ذلك الجيل الذى أخرجه محمد إلى الوجود . . الجيل الذى استخلصه من بين تقاليد الجاهلية ونزاعاتها وصراعاتها القبلية . . وثاراتها الموروثة ، وعقائدها المتعفنة الخاطئة .

قال رجل يهودى حكيم : «أخطر ما فى محمد أنه استطاع أن يحرر طاقات الإنسان فأبدع . . » .

ورجل آخر قال : «بل أرسى قواعد التوحيد فى نفوس رجاله ، فأصبحوا لا يعبدون بحق إلا الله ، ولا يخافون سواه» .

وقال ثالث : «كل واحد من رجاله يحاول أن يلحق بمرتبة النبوة ، وطوال الطريق إلى ذلك يتطهرون بالجهاد الدائب ، والعبادة المتصلة . . كل شىء عندهم عبادة . . العمل الصالح عبادة . . حفظ آيات الله عبادة . . النوم عبادة . . الأكل الحلال عبادة . . الصدق والوفاء والأخوة . . الفضائل كلها عبادة . . » .

وقال رابع : «إن كلمات محمد قد استجابت لأشواق الإنسان التائه الحائر ، فوجد فى ظلها الأمن . . انظروا أيها السادة إلى محمد حينما يقول : «من بات آمنًا فى سربه، معافى فى بدنه، عنده قوت يومه، فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها» .

تنهد الرجل الذى كان يصيح فى المؤخرة وقال : «تهزمون رجلاً هذا شأنه؟؟ فلنبحث لنا عن طريق آخر غير الحرب . . » .

وكان هناك حبر من الأحبار يستمع إليهم ، ويلتقط كل كلمة يتفوهون بها ، فقال : «ربما يكون الصواب قد حالفكم فيما تبدون من آراء ، لكن هذه الآراء قد تتغير إذا ما كنتم فى مركز المنتصر ، إن الهزيمة التى حاقت بنا قد جعلت كفة العدو

هى الراجحة، وأظهرت مبادئه فى صورة من القوة والإشراق لا يمكن التصدى لها، لو انتصرنا لبحثتم عن روعة مبادئنا، ولجلوتموها بصورة مشرقة، وإنى لأرى رأى «كنانة بن الربيع» لنسترد كرامتنا، ونقف على أرجلنا فى ثبات وقوة وثقة . . ثم ننظر فى عقيدتنا وعقيدة عدونا . . عندئذٍ يكون الحكم صائبًا . .

لم يعد هناك من طريق سوى الحرب . . ولا شىء غير الحرب . . وهذا هو رأى قائد جيشنا سلام بن مشكم . . ورأى كنانة أيضًا . . » .

وعاد كنانة بن الربيع إلى بيته، وانقبض صدره حينما تناهى إلى سمعه صرخات ملتاعة، هذه صرخات زوجه «صفية بنت حيى بن أخطب» . . إنها تندب أباها، وحق لها أن ترتدى السواد وتشق الجيوب، وتلطم الخدود، وتضع التراب على رأسها . . حق لك أن تفعلى ذلك يا زوجتى المسكينة . .

وعندما دخل كنانة مطأطئ الرأس، رفعت إليه صفية عينين دامعتين ممتلئتين بالدموع، وصاحت: «مات أبى يا كنانة» .

غمغم ابن الربيع: «لقد لاقى الله بطلاً شهيدًا . . » .

– «أنتم تخدعوننى» .

– «أو تشكين فى ذلك يا امرأة؟؟» .

- «أنتم الذين دفعتموه إلى الفناء . . تركتموه يسقط دون مبرر . . » .

- «أنت تخطئين يا صفية . . لقد سقط دفاعًا عن شرفه وشرف عقيدته .

مات وهو يردد . . لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر ، وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل هكذا كان يقول . . لم يتزعزع إيمانه ، أو يفقد ثقته بنفسه . . تحدى السيوف والموت وتقريع محمد له . . لو كان كل اليهود على شاكلة أبيك لحطمنا محمداً منذ زمن بعيد . . » .

وعادت تولول وتقول : «قولوا ما شئتم ، فليس فى رأسى سوى حقيقة واحدة . . حقيقة مرة أليمة وهى أن أبى مات . . مات حزينًا . . تعسًا . . وأنتم هنا تنعمون بالحياة . . وتأكلون وتشربون . . » .

اكفهر وجهه وهتف : «تعست حياتنا إذا لم نقضها فى مواصلة الصراع ، والعمل على الأخذ بالثأر من محمد وأتباعه . . » .

- «أو تعودون للشقاء مرة ثانية . . » .

- «لن ننكص أو نتراجع . . » .

وشردت بنظراتها الدامعة، وأخذت تقول :

-«قلت لأبى محذرة: دعك من هذا الصراع الذى لا طائل تحته، فإذا كان محمد نبيًا فلا مجال لمعاداته، بل الأوفق الإيمان بدعوته، وإن كان غير ذلك فسيضع الله حداً للدعاوى الباطلة».

زم شفتيه، وقرب حاجبيه، وهتف: «السيوف وحدها هى التى تضع الحد للدعاوى الباطلة. . ».

وابتلع ريقه، ثم عاد يقول: «إن فداحة المصاب قد أوعزت إليك بالأراجيف، وبذرت فى نفسك الوهن، لا كنت صفية بنت حيى إذا لم تطربى لاستشهاد أبيك، وتسيرى على نهجه. . ».

فلم يرقَ لها حديث زوجها، بل أخذت تستمع إليه فى ضيق وامتعاض، وتمنت فى هذه اللحظات، أن تجرف الأوحال بيديها، وتلطخ وجه زوجها بها، وتصرخ فيه: «أنتم تكذبون. . أنتم عصارة الحقد النجس، والزيغ القديم، والانحراف الأزلى. . إن محمداً على حق، وأنت على باطل. . إننى أعرفكم جيداً. . وأعرف البشارات التى أنبأت عن ظهور النبى الجديد. . البشارات التى تخفونها وتنكرونها. . لكنها لم تستطع أن تنطق بمثل هذه الكلمات. .

إن صورة أبيها الذبيح . . ودمه المراق . . ولحيته البيضاء . . وموقف الذلة والهوان . . شيء لا يمكن أن تنساه . . وشيء آخر يشب إلى ذهنها من آن لآخر فى هذا الموقف المؤلم الحزين . آه . . تلك الرؤيا الغريبة ! ! ذلك القمر القادم من المدينة إلى خيبر . . ذلك القمر الذى مال عن أفقه ، وانحدر صوبها ، ثم استقر فى حجرها . يا لها من رؤيا غريبة؟ ! وهل تنسى أن زوجها كنانة بن الربيع قد سدد إلى وجهها لكمة قوية عندما أخبرته بالرؤيا؟ ؟

لكن أباها مات . .

لا يصح أن تستسلم للهواجس ، وتذكر هذه الرؤيا فى معمعان الحزن الداهم ، والأسى الصاخب الذى يلقى ظلاله الكئيبة على الربوع ، ويرشح الأفق المعتم بأرديته السوداء .

وعادت تصرخ : «واكرباه ! ! ! واحبيباه ! ! ! وامصيبتاه ! ! . . » .

وإلى اللقاء فى القسم الثانى من القصة.

نجيب الكيلانى

دبى فى ٢٠ رمضان سنة ١٢٨٨ هجرية

١٠ ديسمبر سنة ١٩٦٨م.